المركز القومى للترجمة

رابندرانات طاغور

البيت والعالم

ترجمة: شكرى محمد عياد

مراجعة: مصطفى حبيب

ميراث الترجمة

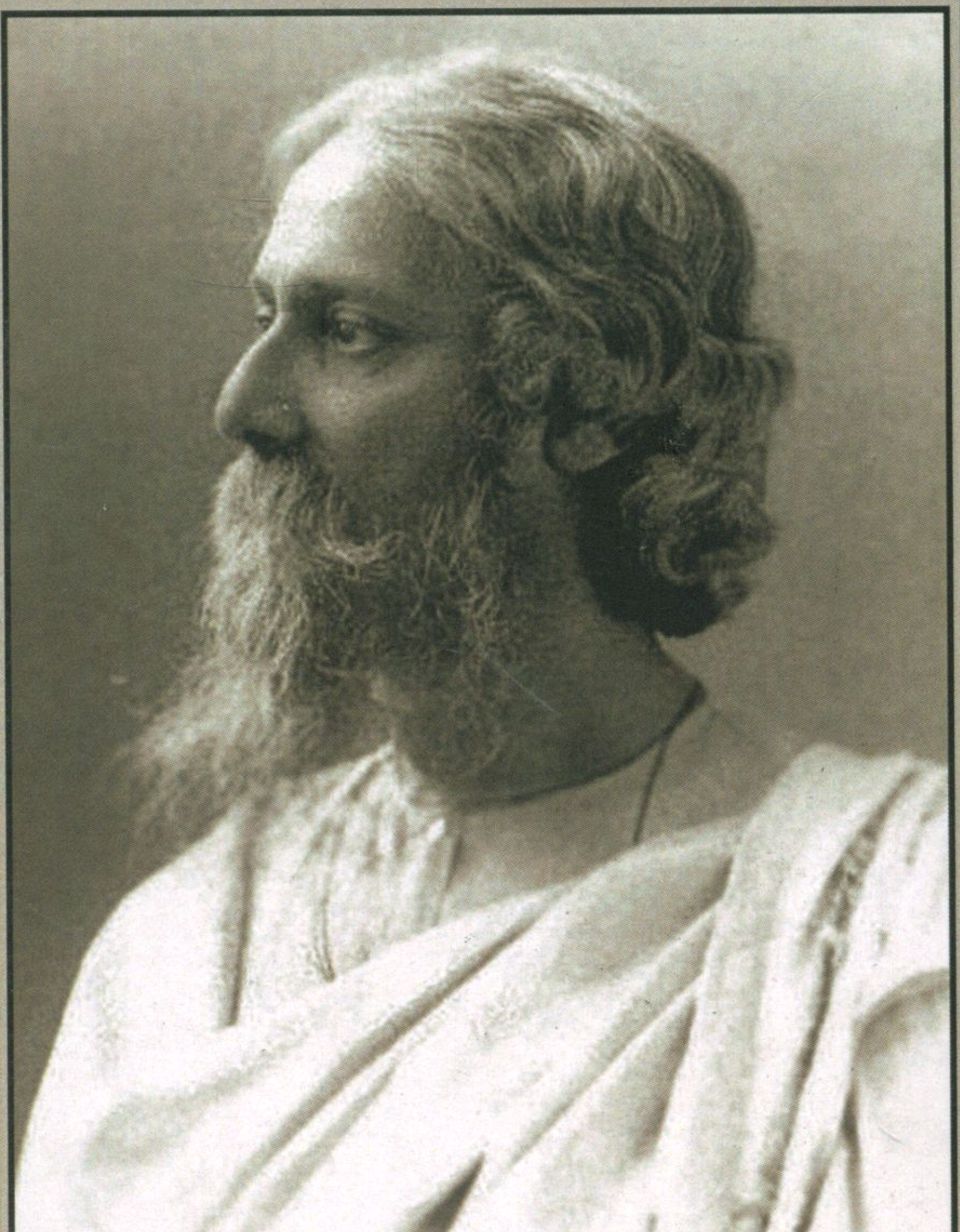

1647

البيت والعالم

المركز القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

سلسلة : ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة : طلعت الشايب

- العدد : 1647
- البيت والعالم
- رابندرانات طاغور
- شكرى محمد عياد
- مصطفى حبيب
- الطبعة الثانية 2010

هذه ترجمة كتاب:

The Home and the World

By Rabindranath Tagore

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة .
شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦
فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

e.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

البيت والعالم

تـألـيـف : رابـنـدرانـات طـاغـــــور
ترجـمـــة : شكرى مـحـمـد عـيـاد
مـراجـعـة : مـــصطفى حـبـيـب

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

طاغور ؛ رابندرانات، ١٨٦١ -١٩٤١
البيت والعالم/تأليف : رابندرانات طاغور، ترجمة : شكرى محمد عياد
مراجعة : مصطفى حبيب
القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٠
٣٣٢ ص ، ٢٠ سم
١- الأدب الهندى - مجموعات
٢- طاغور - رابندرانات
(أ) عياد؛ شكرى محمد (مترجم)
(ب) حبيب؛ مصطفى (مراجع)
(جـ) العنوان ٨٩١,٤٠٨

رقم الإيداع ٢٠١٠/١٣٧٨٤
الترقيم الدولى 978-977-704-153-9
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

المحتويات

طاغور الشاعر الإنسان 9

الفصل الأول

حكاية بيمالا «١» 15

الفصل الثانى

حكاية بيمالا «٤» 33

حكاية نيكهيل «١» 51

حكاية سنديب «١» 61

الفصل الثالث

حكاية بيمالا «٦» 69

حكاية سنديب «٢» 75

الفصل الرابع

حكاية نيكهيل «٣» 95

حكاية بيمالا «٧» 103

حكاية سنديب «٤» 119

الفصل الخامس

حكاية نيكهيل «٤» 129

حكاية بيمالا «١١» 139

حكاية نيكهيل «٦» 155

الفصل السادس

حكاية نيكهيل «٨» 163

حكاية سنديب «٧» 175

الفصل السابع

حكاية سنديب «٨» 183

الفصل الثامن

حكاية نيكهيل «١٠» 203

حكاية بيمالا «١٤» 217

الفصل التاسع

حكاية نيكهيل «١٥» 227

الفصل العاشر

حكاية نيكهيل «١٢» 257

حكاية نيكهيل «١٨» 269

الفصل الحادى عشر

حكاية بيمالا «٢٠» 281

الفصل الثانى عشر

حكاية نيكهيل «١٥» 303

حكاية بيمالا «٢٣» 323

طاغور الشاعر الإنسان

تحتفل البشرية كلها فى هذه الأيام بالشاعر الفذ الذى سخر قلمه لخدمة الإنسان وتثبيت حقوقه - وهو عرفان خليق أن يشارك فيه بقلبه كل إنسان يؤمن بنفسه وبقيمته، ومن ثم فليس عجيباً أن تجتمع القلوب على إحياء ذكرى الشاعر الإنسان رابندرانات طاغور فى كل بقاع الأرض، فلقد كان طاغور المنافح عن الإنسان فى كل مكان يذوب قلبه وعصارة ذهنه، لا يعرف فى دفاعه حدوداً ولاسدوداً، ولا يفرق فى تقديره للإنسان بين جنس وجنس ولا بين لون ولون ولا بين دين ودين. كان الإنسان عنده هو الإنسان فى أية صورة ركب وفى أى أرض نشئ. كان يرى الإنسان قدسياً؛ لأنه الصورة التى تتجلى فيها قدرة القادر وعظمة الخالق على الأرض - كان يحب الإنسان - أى إنسان - ويقدس حقه ويجهد فى سبيله. لم يفقد قط حتى فى أحلك ساعات حياته إيمانه بالإنسان ولم ين قط عن السعى الدائب فى سبيل تحقيق سعادة الإنسان.

تلكم المزية التى انفرد بها طاغور هى التى جعلت الأبصار كلها تتجه إليه فى هذه الأيام لتنفض عن ذكراه غبار السنوات التى مرت،

ولتعيد إلى الأذهان عهده الذى كتبه فى أخريات أيامه وتركه تراثًا حيًا خالداً للإنسانية؛ لتتأمل فيه كلما حزبها الأمر واشتد بها الخطب واحلولكت الظلمات. ظلمات المادة التى ارتكست فيها البشرية من أسف منذ سنوات طوال. لعل صيحة هذا الشاعر من وراء الأبدية تجد من يصيخ لها السمع ويفتح لها القلب عن إيمان بها؛ فيعمل على أن يعيد للبشرية اتزانها وإيمانها بالقيم الإنسانية التى تحتفى بالمادة وتقدر الروح حق قدرها بلا إسراف فى الأولى أو تطفيف فى الثانية ... لقد كتب طاغور فى رسالته الأخيرة يقول :

« مهما يكن من شىء فإنى لن أرتكب الخطيئة الخطيرة : خطيئة فقدان الإيمان بالإنسان، والرضوخ للهزيمة التى حاقت بنا فى الوقت الحاضر على اعتبارها نهائية وحاسمة . بل سأظل أتطلع بأمل إلى تحول فى مجرى التاريخ ، وبعد أن تنجاب هذه الغمة الجاثمة وتصفو السماء ثانية وتهدأ. وربما بزغ الفجر الجديد من أفقنا هذا. أفق الشرق ، حيث تشرق الشمس . وعندئذ تهب روح الإنسان التى لم تهزم لتقوده من جديد إلى طريقه، طريق التقدم رغم كل العوائق ، ليسترد تراثه الضائع ».

هذه الرسالة : رسالة الإيمان بالإنسان وبروح الإنسان، والإيمان بأن البعث الجديد سيأتى من الشرق. هى التى تغنى بها طاغور فى شعره وموسيقاه، وهى التى تمثل لب فلسفته كلها – هذه النبوءة التى أرسلها هذا العبقرى بعد أن كشف أسرار الوجود بنغماته التى

استوحاها من قلب الطبيعة الذى نفذ إليه ببصره واستكنه حقائقه ببصيرته وإخلاصه .. قد بدأت تتحقق، وأخذ الشرق ينتفض انتفاضات أيقظت شعوبه من غفوة رانت عليها، فهبت تبدد الغيوم الحالكة التى خيمت فى سمائها، وترسل قبسات من الضوء الكاشف تؤذن بانبلاج الفجر وبزوغ النور الهادى من قلب المشرق؛ ليهدى البشرية ويقودها إلى الطريق السديد الذى بشر به طاغور .... وإنه لتوفيق أى توفيق أن يتسنم الشرق مكان الهداية إلى الحق والخير والجمال فى هذه الأيام التى يكتمل فيها قرن على مولد شاعر الإنسان والحق والخير والجمال رابندرانات طاغور.

من أجل هذه المعانى، ومن أجل هذه الدعوة إلى تقديس الإنسان ورعاية حقه يحتفل الشرق والغرب بذكرى طاغور .. وطاغور نسيج وحده، فقد جمع إلى حكمة الشرق ثقافة الغرب، وإلى عراقة الأصل وشرف المحتد، الإيمان العميق بالشعب وبالجماعة الإنسانية، وإلى زكانة القلب ورجاحة العقل وذلاقة اللسان وطيب المعشر، وإلى علو المكانة شرف الجهاد من أجل حرية بلاده واستقلالها .. وهو بهذا كله قد احتل مكانًا فريدًا فى تاريخ الهند الحديث، بل وفى تاريخ الشرق كله، حتى استحق بحق أن ينعت بأنه أعظم فنان فى العصر الحديث، وأن تخلع عليه جائزة نوبل فى عام ١٩١٤.

لقد ولد طاغور فى السابع من شهر مايو سنة ١٨٦١ بمدينة كلكتا فى أسرة موسرة، ذائعة الصيت، ذات تاريخ مجيد، وجذور عميقة فى عالم

الثقافة ودنيا الأدب والسياسة. فكان جده راعيًا للفنون والآداب في عصره، وكان أبوه من أعظم المصلحين الاجتماعيين، وكان من أسرته النابغون في الرسم والموسيقى والأدب.. هذا التراث الثقافى الوفير الغناء الذى أخذه أبوه عن أبائه وأجداده مضافًا إلى مواهبه الفريدة قد خلق منه عبقريًا فذًا متعدد الجوانب مكتمل النبوغ، وهيأ له التحليق فى كل ميدان إلى القمة، فكان بين الشعراء أفحلهم ، وبين المسرحيين أنبغهم، وبين الفنانين أرقهم، وبين الموسيقيين أحلاهم ترجيعًا، وبين المصلحين أشجعهم رأيا وأدقهم بصرًا بالأمور، وبين المربين أعلمهم، وبين الوطنيين أكثرهم جهادًا وأعمقهم إيمانًا بحقوق وطنه، وبين المتحدثين أكثرهم جاذبية وأشدهم إقناعًا – لقد اكتملت فى يده أداة الفن فى شتى صورها ، فأرسل الأغانى تنساب حلوة النغم حافلة بالمعانى لتنفذ إلى القلوب وتستولى على الألباب – كان يتميز بفكر موسيقى وقلب موسيقى؛ فجاءت كلماته موسيقى عذبة تستمد أنغامها من غناء الطبيعة الساحرة فى كل مظاهرها .

لقد ترك طاغور لمحبى الفن والأدب أكثر من ألف قصيدة وأكثر من ألفى أغنية، بالإضافة إلى عديد القصص القصيرة والطويلة والمسرحيات والمقالات والبحوث التى عالجت موضوعات كثيرة ومختلفة ، فهو فى إنتاجه من حيث الكم لايباريه شاعر آخر، ومن حيث الكيف لا يرقى إلى مستواه إلا قلة من العباقرة – على أن إنتاج طاغور لم يقف عند هذا الحد ، فالشعر والأدب لم يستنفدا كل طاقاته الكامنة العارمة؛ فعمد إلى

الموسـيقى يؤلف فـيـهـا ويفـرغ بعض طاقـاته، وإلى الرسـم ينفس عن بعض مكنون طاقاته الفنية، ومـن عجب أنه بدأ يرسم وهو فى السبعين من عـمـره، ومع ذلك أنتج أكثـر من ثلاثة آلاف لوحـة، بعضـهـا فـريد فى كماله الفنى.

هذا التنوع الفـذ قلمـا اجـتـمع لشـخص واحـد، لكنه اجـتـمع فى طاغور؛ لأن طاغور كان يؤمن بالحياة ويحبها ولا يزهد فيها، كان يهب نفسه للكون باعتباره جزءاً منه، فعرف الكون وعرف الحياة ، وتفتحت له أسرار الوجود بالإيمان والحب والعمل...

هذا الإنسان الفريد الذى كرس حياته للإنسان، واستلهم شعره من روح الإنسـان ، ومن رسـالة خـالق الكون للبـشـرية جـمـعـاء، ومن إيمانه العميق بأن كلمة الله هى العليا، ورسالته للبشرية لن تدرك حق الإدراك إلا حين تسود الحرية وتتحقق العدالة الاجتماعية ، هذا الإنسان المؤمن بحق كل منا فى الحرية والعدالة الاجـتـمـاعـيـة من حـقـه علينا وعلى الإنسانية التى وجه ضراعاته إلى مالك الملك لينقذها من مسالك الضلال ويهديها إلى الصراط المستقيم، والتى أرسل أغانيه وأشعاره ليوقظها من سباتها وينهضـها من كبوتها، من حقه علينا فى ذكراه المئوية أن نعيد قراءة فيض خواطره، وأن نردد أشعاره وأغانيه، وأن نلقنها أبناءنا ونملأ بها جوانحهم، ليشبوا مؤمنين برسالته عاملين على تحقيقها.

ووفاء لهذا الحق تصدر الإدارة العامة للثقافة بوزارة التربية والتعليم هذه المختارات من مقطوعاته الشعرية وهى: الهلال وشيترا وجيتنجالى

والبستانى وجنى الثمار ومكتب البريد والبيت والعالم، وهى ترجو بهذا أن تكون قد ساهمت فى إحياء ذكرى هذا العبقرى، فليس أحفظ للذكرى من إحياء فكره العظيم بمداومة قراءته حتى يستقر فى النفس إيماناً ويحفز للعمل من أجل الحرية والسلام ورعاية حقوق الإنسان، تلك المبادئ التى آمن بها طاغور ودعا إليها فى :

* أيتها الأمم الفتية هبى وأعلنى صيحة الجهاد من أجل الحرية.

* وارفعى راية الإيمان الغلاب الذى لا يقهر.

* وأقيمى من حياتك معبراً يرأب صدع الأرض التى مزقتها الأحقاد والإحن.

* ثم سيرى للأمام ...

مصطفى حبيب

الفصل الأول

حكاية بيمالا

(١)

أماه ! ترتسم فى ذهنى اليوم صورة الطابع القانى[١] على مفرق شعرك، والسارى الذى تعودت أن ترتديه، بحاشيته الحمراء العريضة، وعينيك هاتين العجيبتين ، ملؤهما عمق وسلام. ترتسم فى ذهنى وأنا على أول الطريق فى رحلة حياتى ، كأنها أول خيط من خيوط الفجر يمنحنى زاداً ذهبياً يعيننى على المضى فى طريقى.

السماء التى تعطى النور زرقاء ، ووجه أمى كان أسمر، ولكنها كانت تشع قداسة. وحسنها يزرى بكل غرور الحسان.

ويقول كل الناس إنى أشبه أمى، وكنت فى صباى أغضب لذلك، وأسخط على مرآتى، فقد كنت أظن أن الله أسبغ القبح على أعضائى،

---

(١) علامة المرأة المتزوجة ورمز الوفاء الزوجى عند الهنود (المترجم).

وأن قسمات وجهي السمراء لم تكن من قسمتي، ولكنها جاءتني سهواً، ولم يبق لي شيء أسأل الله أن يعوضني به إلا أن أكون عندما أكبر نموذجاً للمرأة كما تقرأ عنها في قصيدة ملحمية.

وعندما خُطبت دُعي منجم فنظر في راحتي وقال : « هذه البنت ميمونة الطالع، وستصبح زوجاً مثالية ».

وقالت جميع النساء لمّا سمعنه : « لا عجب فالبنت لأمها »

تزوجت في بيت راجا، وكنت في طفولتي أعرف حق المعرفة وصف الأمير في القصص الخرافية. ولكن وجه زوجي لم يكن من نوع يستطيع الخيال أن يضعه في أرض الخرافات.. كان أسمر مثل وجهي، فسُرِّي عني بعض الانقباض الذي كنت أستشعره لنقص محاسني، وأسْأرتْ في قلبي – مع ذلك – قطرة أسى.

ولكن المنظر الجسمي إذا راغ من حواسنا الفاحصة ودخل هيكل قلوبنا؛ استطاع أن ينسى نفسه، وإني لأعلم من خبرة طفولتي كيف يكون الوفاء هو الجمال نفسه في صورته الباطنية، فعندما كانت أمي تنضد ألوان الفاكهة التي قشرتها بيديها في عناية على الطبق الحجري الأبيض، وتحرك مروحتها بلطف لتطرد عنها الذباب بينما يجلس أبي إلى طعامه، كان قيامها بين يديه يستحيل جمالا يجاوز حدود الظاهر، وأستطيع الشعور بقوته وإن كنت طفلة، كان يسمو على كل جدل أو شك أو حساب، كان موسيقى خالصة.

وإنى لأذكر فى وضوح كيف كنت أشعر بالطابع القانى على جبينى يضىء كنجمة الصبح حين أستيقظ بعد زواجى فى الصباح وأمسح التراب عن قدمى زوجى دون أن أوقظه[١].

واتفق أنه انتبه ذات يوم فسألنى مبتسما: « ما هذا يابيمالا؟ ما الذى تفعلينه؟».

لن أستطيع نسيان خجلى حين كشف أمرى؛ لعله حسبنى لا أبغى بذلك إلا أن أكتسب فضيلة. ولكن لا، لا! لم يكن فى الأمر فضيلة، إنما هو قلبى، قلب المرأة الذى لابد له أن يعبد كى يحب.

وكان بيت حمىَّ عريقًا فى المجد منذ أيام «الباد شاهين»، وكانت بعض آدابه تنتمى إلى المغول والبارتيين، وبعض عاداته ترجع إلى مانى وپاراشار.. ولكن زوجى كان عصريا خالصًا. فكان فى هذا البيت أول من أتم دراسته العالية وحصل على درجة الماجستير. وكان أخوه الأكبر قد مات شابًا لإفراطه فى الشراب، ولم يعقب ولدًا. أما زوجى فلم يكن يشرب ولايستسلم للشهوات، ومن غرابة هذه المحافظة بالنسبة إلى مألوف الأسرة؛ كاد الكثيرون يعدونها أمرًا منكرًا! فقد حسبوا

---

(١) مسح التراب عن القدمين علامة على التوقير، وتكون بأن يلمس قدمى الموقر لمسًا خفيفًا ثم يلمس المتقرب رأسه باليد نفسها. وليس من المألوف أن تؤدى الزوجة هذه الشعيرة لزوجها . (المترجم).

أن الطهارة لاتليق إلا بمن لم يبتسم لهم لحظ، فالكلف فى القمر لا فى النجوم.

وكان أبوا زوجي قد ماتا منذ زمن طويل، وجدته العجوز هى سيدة البيت، وزوجى هو إنسان عينها، والجوهرة التى على صدرها، فلم تصعب عليه مخالفة شىء من العادات القديمة، ولما دعا «مس جلبى» لتعلمنى وتكون رفيقتى؛ أبى أن يتحول عن عزمه رغم ما كانت تنفثه الألسنة الثرثارة من سموم، فى البيت وخارجه.

وكان زوجى آنذاك، قد فرغ من امتحان البكالوريوس وأخذ يدرس ليحصل على الماجستير، فاضطر للبقاء فى كلكتا لينتظم فى الكلية، وكان يكتب إلىّ كل يوم تقريبًا ... سطوراً قليلة وكلمات مألوفة، إلا أن خطه الكبير المستدير كان ينظر إلى وجهى بحنان، أوه ، أى حنان! وكنت أحفظ رسائله فى صندوق من خشب الصندل وأغطيها كل يوم بالأزهار التى جمعتها من الحديقة.

فى ذلك الحين كان أمير القصة الخرافية قد اختفى كما يختفى القمر في ضوء الصبح، وكان عندى أميرُ عالَمى الحقيقى متربعًا على عرش قلبى .. وكنت ملكة، مقعدى بجانبه، ولكن فرحتى الحقة هى أن مكانى الصحيح عند قدميه.

لقد تعلمت بعد ذلك، وعرفت العصر الحديث فى لغته، ومن هنا، تبدو هذه الكلمات التى أكتبها وكأنها تحمر خجلاً بين النثر العادى الذى

يحيط بها. ولولا معرفتى لقواعد هذه الحياة الحديثة لعلمت علم السليقة والطبع أن كونى ولدت امرأة أمر خارج عن يدى، وأن سجيّة العبادة فى حب المرأة ليست كمقطع مستهلك يُقتبس من قصيدة رومانسية ليُكتب بخشوع كتابة جميلة فى كراسة تلميذة.

ولكن زوجى ما كان يسمح لى بفرصة للعبادة؛ تلك كانت عظمته.. جبناء أولئك الذين يطلبون الخشوع المطلق من زوجاتهم على أنه حق لهم؛ فإنه مذلة لكلا الزوجين.

كأنما كان حبه لى يفيض فوق حدودى بفيض سخائه وعطائه، ولكن حاجتى كانت إلى العطاء أكثر من الأخذ؛ فالحب صعلوك شرير يُفتح أزهاره فى تراب الطريق أحسن مما يفتحها فى أصص البللور التى توضع فى حُجر الجلوس.

لم يستطع زوجى أن يتخلى تماماً عن التقاليد العتيقة التى تسود أسرتنا، ولذا كان من العسير علينا أن نلتقى فى أية ساعة من ساعات النهار أحببنا.(١) وكنت أعرف بالدقة الوقت الذى يأتى فيه، فكان للقائنا كل عناية الإعداد المحِب؛ كان كروىّ القصيدة يجب أن يأتى من خلال الوزن.

---

(١) لا يستحسن من الزوج أن يكثر التردد على «الزينانا» أو جناح الحريم فى غير ساعات معينة لتناول الطعام أو للراحة (المترجم).

كنت إذا فرغت من عمل اليوم وأخذت حمام العصر؛ أعقص شعرى، وأجدد الطابع القانى على الجبين، وأرتدى السارى وقد أحكمت طياته؛ ثم أسترجع جسمى وعقلى من كل شواغل الواجبات المنزلية، وأهبهما فى هذه الساعة المعينة، بشعائر معينة، لفرد واحد، كان هذا الوقت معه كل يوم قصيراً إلا أنه لانهائى.

وكان زوجى يقول: إن الرجل وزوجه متساويان فى الحب لأن لكليهما على الآخر حقًا مساويًا لحق صاحبه.. ولم أجادله فى ذلك قط، ولكن قلبى كان يقول: إن العبادة لا تسد طريق المساواة الحقيقية بل ترفع مستوى الأرض التى يلتقيان عليها، فتظل مسرة المساواة العليا باقية، ولاتنحدر إلى مستوى التفاهة السوقية.

لقد كان الأشبه بخلقك الكريم ياحبيبى أنك لم تنتظر منى العبادة قط، ولكن لو قبلتها لأحسنت إلىّ إحسانًا عظيمًا . لقد أظهرت حبك بتزيينى وتعليمى وإعطائى ما أسأله وما لا أسأله. ورأيت عمق حبك فى عينيك وأنت تنظر إلىَّ . وعرفت زفرة الألم الخفية التى كنت تكتمها فى حبك لى. لقد أحببت طبيعتى كلها وكأنما وهبك إياها قدر عزيز.

وازدهانى هذا الفيض من العبادة؛ لأنى حسبت كل الثروة التى ساقتك إلى بابى هى ثروتى. ولكن مثل هذا الغرور إنما يمنع سيل

الاستسلام الحر فى حب المرأة . فعندما أجلس على عرش الملكة وأطلب آيات الخضوع؛ يمضى هذا الطلب فى ازدياد ولا يشبع أبدا . وهل ثمة سعادة حقيقية للمرأة فى شعورها المجرد بأن لها على الرجل سلطانًا؟ لا خلاص، للمرأة إلا بأن تسلم كبرياءها فى العبادة.

يعاودنى، اليوم، تذكر كيف اشتعلت نيران الحسد حوالينا فى أيام سعادتنا؟! إنما كان ذلك طبيعيًا . ألم يأتنى حظى السعيد بمحض المصادفة دونما استحقاق؟ ولكن السماء لاتدع الحظ يدوم أبدًا، إلا أن يوفىّ دين شكره يومًا بعد يوم، أيامًا طويلة كثيرة، حتى يثبت ويستقر قد يمنحنا الله الهبات؛ ولكن لنا نحن فضيلة تقبلها والاحتفاظ بها . فوا أسفاه على النعم التى تنزلق من أيد غير جديرة بها!!

كانت جدة زوجى وأمه كلتاهما مشهورتين بالجمال. كما كانت «سلِفتى الأرملة» ذات حسن نادر المثال. ولما تركهن القدر لوحدتهن الواحدة بعد الأخرى آلت الجدة ألا تتطلب الجمال لحفيدها حين يتزوج، فلم يؤهلنى لدخول ذلك البيت إلا آيات يمن الطالع التى حظيت بها .

وقلّ من النساء فى ذلك البيت السرى من كانت تلقى حقها من الاحترام، إلا أنهن ألفن عادات الأسرة، واستطعن أن يبقين رءوسهن مرفوعة، متعلقات بعزة أنهن ملكات ذلك البيت العريق، وإن غرقت

دموعهن كل يوم فى حباب الخمر، ورنين خلاخيل الراقصات. فهل كان بفضل منى أن زوجى لم يقرب الشراب ولم يبدد رجولته فى أسواق النساء ؟ وأى سحر كنت أعرفه لأهدهد نفوس الرجال الثائرة القلقة ؟ لم يكن إلا حظى السعيد. فلقد قسا القدر على سلفتى، وانتهى فرحها والمساء فى أوله، تاركا نور جمالها يضىء عبثًا على أبهاء خالية، يشتعل ويشتعل، ولا موسيقى تصاحبه!.

وكانت سلفتى تظهر احتقارها لأفكار زوجى الحديثة، ما أسخف أن يجعل سفينة الأسرة المحملة بثقل مجدها العريق تمخر تحت علم هذه البنت زوجته فقط!! لطالما لذعنى سوط السخرية: «لصة سرقت حب الزوج!» «خدعة تتستر فى زينتها الحديثة الفاضحة!» وكانت الثياب الملونة الحديثة التى يحب زوجى أن يجملنى بها تثير غضبًا حسوداً : « ألا تستحى أن تجعل من نفسها شباك متجر وهى بهذا المنظر!».

وكان زوجى يشعر بهذا كله، ولكن طيبته لم تعرف حدوداً ، فكان يتوسل إلىَّ أن أسامحها.

وأذكر أنى قلت له مرة: «إن عقول النساء صغيرة، معوجة!» فأجاب : «كأقدام النساء الصينيات . ألم يطبعها ضغط المجتمع بالقبح والاعوجاج ؟ ماهن إلا لعب القدر الذى يقامر بهن، فعلام نؤاخذهن؟»

ولم تكن سلفتي تعجز قط عن الحصول على ماتريده من زوجي. ولم يكن يتريث لينظر إن كان ماتطلبه مقبولا أو معقولا. ولكن أشد ماغاظني أنها كانت لاتقر بجميل، وكنت قد وعدت زوجي ألا أرد عليها، ولكن ذلك ضاعف غضبي وإن لم أظهره ». وشعرت بأن للطيبة حدوداً إن تجاوزتها؛ جعلت الرجال أقرب إلى الجبن. هل أقول الحق كله؟ لقد تمنيت في كثير من الأحيان لو أن زوجي كانت لديه الرجولة الكافية ليكون أقل طيبة .

كانت سلفتي «البارارانى»[1] بعد شابة، ولم تكن تدّعى القداسة، بل إن كلامها ومزاحها وضحكها كان أقرب إلى الجرأة. وكانت الوصائف اللائى تحيط نفسها بهن على شيء من الوقاحة. ولكن لم يكن ثمة أحد يعارضها - ألم تكن هذه هى عادة البيت؟ وبدا لى أن حظى الحسن الذى أعطانى زوجًا نقيًا كان يقرح جفنيها. أما هو فكان يشعر بتعاسة حظها أكثر مما يشعر بنقائصها.

---

(١) «بارا» : أى الكبرى، و «تشوتا» أى الصغرى. وفى بيوت السراة ذات الأسر المشتركة لايكون للأرملة حق فى نصيب زوجها إلا التمتع به طوال حياتها، ولكنها تحتفظ برتبتها تبعًا للسن، ويظل لقبا « الكبرى » و« الصغرى » مميزين للفرعين الأكبر والأصغر، وإن كان الفرع الأصغر هو صاحب السلطان. (المترجم).

(٢)

كان زوجى شديد الرغبة فى إخراجى من «البردة»[١].

وقد قلت له يوماً : ماذا أريد من العالم الخارجى؟

فأجاب: لعل العالم الخارجى يريدك.

– إذا كان العالم الخارجى قد سار بدونى حتى الآن فإنه يستطيع أن يسير مدة أطول، ولا حاجة به أن يهلك حزناً علىّ.

– وما شأنى بهلاكه؟ إن هذا لايعنينى. ولكننى أفكر فى نفسى.

– أوه، حقاً! وماذا عن نفسك؟

فصمت زوجى مبتسما. وكنت أعرف أسلوبه؛ فبادرته مستنكرة:

– لا لا، لن تروغ منى هكذا! إنى أريد أن نتصارح وننهى الموضوع.

– هل يمكننى إنهاء موضوع ما بكلمات؟

– دع التكلم بالألغاز. أخبرنى ...

---

(١) «البردة» معناها «الستارة» – اسم عام يدل على حياة «الزينانا» المنفصلة وجميع مايتعلق بها من العادات. (المترجم).

- ما أعنيه هو أن تكونى لى وأكون لك بمزيد من الكمال فى العالم الخارجى، فهنا لا يزال كلانا مدينًا لصاحبه.

- وهل يعوز شىء فى حبنا هنا فى البيت؟

هذى أنت منطوية فى، لا تعرفين ماذا تملكين ولا ماذا تريدين.

- أنا لا أستطيع أن أحتمل سماعك تتكلم على هذا النحو.

- أود أن تخرجى إلى قلب العالم الخارجى وتلتقى بالحقيقة. أنت لم تخلقى لتؤدى واجباتك المنزلية فقط؛ لتعيشى حياتك كلها فى عالم التقاليد المنزلية وسخرة الأعمال المنزلية! لن يكون حبنا صحيحًا إلا إذا تلاقينا وعرف كل منا صاحبه فى العالم الحقيقى.

- إذا كان هنا نقص ما فى معرفتنا الكاملة فليس لدى ما أقوله. ولكن أنا لا أشعر بحاجة ما.

- هبى أن النقص فى جانبى وحدى، فلماذا لا تساعديننى على إزالته؟

كانت مثل هذه المناقشات تتكرر بيننا. وقال لى يومًا: إن الرجل النهم الذى يحب سمكته المطبوخة لا يتأذى من تقطيعها حسب حاجته، ولكن الرجل الذى يحب السمكة يريد أن يستمتع بها فى الماء، وإذا استحال عليه ذلك فإنه ينتظر على الشط، وإذا عاد إلى بيته دون أن يقع

نظره عليها فإنه يتغذى بمعرفة أن السمكة بخير. الكسب الكامل هو أفضل شيء، ولكن إذا استحال ذلك فإن أفضل شيء بعده هو الخسارة الكاملة.

لم أحب قط طريقة زوجي في الحديث عن هذا الموضوع، ولكن ذلك لم يكن هو السبب في رفضي مغادرة « الزينانا » لقد كانت جدته لا تزال على قيد الحياة؛ وكان زوجي قد ملأ البيت بالقرن العشرين إلى أكثر من مائة وعشرين في المائة، على غير هواها ، ولكنها تحملت ذلك دون أن تشكو، ولو خرجت كنّة بيت الراجا من حجابها؛ لتحملت الجدة ذلك أيضًا، بل إنها كانت متهيئة لحدوثه، ولكني رأيت ذلك لا يستأهل ألمها بسببه. لقد قرأت في الكتب أننا نسمي « طيوراً في الأقفاص » وليس باستطاعتي أن أتحدث عن غيري، ولكني كنت أجد في قفصي هذا ما لا يتسع له العالم أو على الأقل هذا ما شعرت به آنذاك.

وكانت الجدة المسنة شديدة الإعزاز لي. وكانت في أعماق معزتها فكرة أني استطعت بعون من طالعي السعيد أن أجتذب حب زوجي. أليس الرجال ميالين بطبعهم إلى الانحدار في الهاوية، لم تستطع واحدة من الأخريات، برغم جمالهن، أن تمنع زوجها من الانصباب إلى الأعماق الجاحمة التي تلتهمهم وتدمرهم . وآمنتْ بأني كنت وسيلة إطفاء هذه النار التي فتكت برجال الأسرة، فجعلتني في حجرها ، وكانت ترتعد إذا أصابتني أيسر وعكة.

لم تكن جدته تحب الثياب والحلى التى يحضرها زوجى من المتاجر الأوربية ليزيننى بها. ولكنها قالت لنفسها: « لا بد للرجال من هواية ما، يبعثرون فيها أموالهم، ولا فائدة فى محاولة الحد من إسرافهم، يكفى أنهم لا يجلبون الخراب على أنفسهم، وإذا كان وحيدى «نيكهيل» عاكفاً على تزيين زوجته فلسنا ندرى من التى كان يمكن أن ينفق عليها نقوده!» فكانت كلما وصل ثوب جديد لى أرسلت إلى زوجى؛ وراحت تمازحه حول هذا الأمر.

وهكذا حدث أن ذوقها هو الذى تغير حتى بلغ من تأثير العصر الحديث عليها أن أماسيها كانت تأبى أن تمر حتى أروى لها قصصاً من الكتب الإنجليزية.

وأراد زوجى بعد وفاة جدته أن أرافقه إلى كلكتا لأعيش معه، ولكنى لم أستطع الإقدام على ذلك. أليس هذا منزلنا الذى أحاطته بعنايتها خلال محنها ومتاعبها؟ ألا تحلُّ علىّ لعنة إن هجرته وذهبت إلى المدينة؟

كانت هذه هى الفكرة التى ألزمتنى مكانى بينما كرسيها الخالى ينظر إلى فى عتاب، لقد جاءت تلك السيدة النبيلة إلى المنزل فى سن الثامنة وماتت فى سنتها التاسعة والسبعين. ولم تقض حياة سعيدة. رمى القدر صدرها بسهم بعد سهم. فما زاد على أن جعل الروح

الخالدة الكامنة فيها تنطلق وتنطلق حتى تَقدَّس هذا المنزل الكبير بدموعها. فماذا عساى فاعلة بعيداً عنه فى تراب كلكتا؟

وكان رأى زوجى أن هذه فرصة طيبة لترك سلفتى تتعزى بالترؤس على المنزل، مع إعطاء حياتنا مجالا للامتداد فى كلكتا . وهذا هو ما ضايقنى. لقد نغصت علىّ حياتى، وأضجرتها سعادة زوجى، وعلى هذا هى تكافئه! ثم ماذا عن اليوم الذى يلزم أن يعود فيه؟ هل أسترد عندئذ كرسى الصدارة؟

وكان زوجى يقول : ولماذا تريدين ذلك الكرسى؟ أليس فى الحياة أشياء أثمن؟

إن الرجال لايفهمون فى هذه الأمور أبداً. فلديهم أعشاشهم فى العالم الخارجى، وهم لايعرفون حقًا كل ما يمثله المنزل، فعليهم أن يتبعوا إرشاد النساء فى هذه الأمور - تلك كانت أفكارى آنذاك.

وكان لب المسألة فى نظرى: أن الإنسان يجب أن يدافع عن حقوقه، فالذهاب، وترك كل شىء فى أيدى العدو يساوى الاعتراف بالهزيمة.

ولكن .. لماذا لم يجبرنى زوجى على الذهاب معه إلى كلكتا؟! أنا أعلم السبب؛ لأنه كان يملك القوة ولم يستخدم قوته.

(٣)

لو كان على المرء أن يملأ الفجوة بين الليل والنهار قليلا قليلا لاحتاج إلى عمر الأبد. ولكن الشمس تشرق فيتبدد الظلام، وتكفى لحظة للتغلب على امتداد غير محدود.

ذات يوم، بدأ عهد «السواديشى» (١) فى البنغال. أما كيف حدثت فهذا ما لم نتبينه على التحديد، فلم يكن ثمة منحدر متدرج يصل الماضى بالحاضر، ولهذا السبب - كما أظن - جاء العهد الجديد كالطوفان محطمًا كل السدود، مكتسحًا كل حذر وخوف فينا، بل إننا لم نجد وقتًا لنفكر أو نفهم ما حدث وما يوشك أن يحدث.

تضرج بصرى وعقلى وآمالى ورغباتى بالحمرة لحماسة ذلك العهد الجديد، ومع أن جدران المنزل الذى هو العالم النهائى فى نظرى بقيت ولم تتحطم، فقد وقفت أنظر من فوقها إلى الآماد، وسمعت صوتًا من الأفق البعيد لم أتبين معناه فى وضوح، ولكن نداءه نفذ إلى قلبى.

لقد حاول زوجى منذ كان طالبًا فى الجامعة أن يجعل الأشياء التى يحتاج إليها شعبنا تنتج فى بلادنا؛ فحاول أن يخترع جهازًا لاستخلاص عصير البلح واستخراج السكر والعسل منه - والنحل يكثر

---

(١) «السواديشى» : الحركة الوطنية، وقد بدأت اقتصادية أكثر منها سياسية، فكان غرضها الأساسى تشجيع الصناعات الوطنية. (المترجم).

فى إقليمنا - وسمعت أن تجربته نجحت نجاحًا عظيمًا ، إلا أن ما استخلصته من النقود كان أكثر من العصير. وبعد فترة انتهى إلى نتيجة، وهى أن محاولاتنا لإحياء صناعاتنا تتعثر لحاجتنا إلى مصرف خاص بنا. وكان فى تلك الأثناء يحاول تعليمى الاقتصاد السياسى، ولو اكتفى بذلك لما كان ثمة ضرر كبير، ولكن نفسه حدثته أيضًا أن يعلم مواطنيه فكرة الادخار حتى يمهد الطريق لقيام مصرف، ثم أسس بالفعل مصرفًا صغيرًا، كانت فائدته العالية التى جعلت القرويين يقبلون عليه لإيداع أموالهم سببًا لإعراق المصرف نفسه.

وشعر موظفو الإمارة المسنون بالقلق والذعر، وهلل معسكر الأعداء فرحا، ولم يظل على هدوئه فى الأسرة كلها غير جدة زوجى، فكانت توبخنى قائلة: لماذا تضايقونه كلكم هكذا؟ أهو مصير الإمارة الذى يزعجكم؟ ما أكثر ما رأيت هذه الإمارة فى أيدى المحضرين! هل الرجال كالنساء؟

إن الرجال مسرفون بطبعهم، ولا يعرفون إلا كيف يضيعون. يابنتى! عدى نفسك سعيدة الحظ؛ لأن زوجك لا يضيع نفسه أيضًا!

وكانت مساعدات زوجى تملأ قائمة طويلة. فهو على استعداد لأن يبذل معونة حتى الفشل التام المر لكل من يريد أن يخترع نولا جديدًا، أو آلة جديدة لضرب الأرز. ولكن أشد ما ضايقنى هو طريقة «سنديب بابو» فى ابتزاز أمواله باسم حركة «السواديشى» فكلما أراد أن ينشىء

صحيفة ، أو يقوم برحلة للدعوة إلى القضية، أو يغير الهواء عملا بنصيحة طبيب؛ قدم زوجى إليه المال دون تردد، هذا غير الراتب الذى كان «سنديب بابو» يتسلمه منه أيضاً. وأعجب مافى الأمر أن زوجى وسنديب بابو لم يكونا متفقين فى آرائهما.

ما كادت عاصفة « السواديشى » تمسك بدمى حتى قلت لزوجى: يجب أن أحرق كل ملابسى الأجنبية.

فقال : ولماذا تحرقينها؟ يمكنك أن تتركى لبسها ما شئت.

– ما شئت! لن يكون ذلك طول عمرى ....

– حسنًا. لا تلبسيها بقية عمرك إذًا. ولكن لماذا حكاية النار هذه؟

– هل تمنعنى من تنفيذ ما عزمت عليه؟

– الذى أريد أن أقوله هو هذا : لماذا لا تحاولين أن تبنى شيئًا؟ ينبغى ألا تضيعى ولو عشر طاقتك فى هذه الحماسة المدمرة.

– مثل هذه الحماسة تمنحنا الطاقه لنبنى.

كأنك تقولين: لا يمكنك أن تضىء المنزل إلا بأن تشعل فيه النار.

ثم كانت مشكلة أخرى. فعندما قدمتْ مس جلبى إلى منزلنا أول مرة كثر اللغط، ثم سكن حين تعودوا وجودها. والآن، أثير الموضوع كله من جديد، ولم أكن قد شغلت نفسى من قبل بكون مس جلبى أوروبية

أم هندية، ولكنى بدأت أهتم بذلك الآن؛ فقلت لزوجي : يجب أن نتخلص من مس جلبى.

فبقى صامتًا!

وحدثته بعنف. فذهب حزين القلب.

وبعد نوبة بكاء شعرت بمزيد من الهدوء حين التقينا ليلا. وقال زوجي: إننى لا أستطيع أن أنظر إلى مس جلبى خلال ضبابة من المعانى المجردة لا لشىء إلا لكونها إنجليزية. ألا تستطيعين أن تدركى أنها تحبك؟

وشعرت بشىء من الخجل. وأجبت ببعض الحدة:

– فلتبق. إننى لست شديدة الرغبة فى إخراجها.

وبقيت مس جلبى.

ولكنى سمعت ذات يوم، أن شابًا أهانها وهى فى طريقها إلى الكنيسة. وكنا نعول هذا الشاب، فطرده زوجي من المنزل. ولم يستطع أحد يومها أن يغفر لزوجي ذلك العمل – حتى ولا أنا. وفى هذه المرة ذهبت مس جلبى من تلقاء نفسها، وبكت حين جاءت تودعنى، ولكنى بقيت جامدة. هذا التشنيع بالفتى المسكين! وأى فتى! فتى ينسى حمامه وطعامه فى حماسته « للسواديشى ».

ورافق زوجي مس جلبي في عربته الخاصة إلى محطة السكة الحديدية . وأيقنت أنه يجور ولا يقتصد. وعندما رُويت هذه الحادثة روايات مبالغ فيها وأثارت فضيحة عامة وصلت إلى الصحف، شعرت أنه قد لقى جزاءه الذي يستحقه.

لقد طالما أقلقتني أعمال زوجي ولكن لم أستحِ منها قط من قبل، أما الآن فقد وجب عليّ أن أحمرّ خجلا من أجله! وما كنت أعرف بالضبط أي إساءة ألحقها «نورين» المسكين أو لم يلحقها بمس جلبي، ولا كنت أبالي بذلك، ولكن كيف يمكن الجلوس للقضاء في مثل هذا الأمر؟ في مثل هذا الوقت! ماكان ينبغي كبح الروح التي دفعت نورين الشاب إلى تحدى المرأة الإنجليزية. ولم أستطع أن أرى في عجز زوجي عن فهم هذاالأمر اليسير إلا علامة جبن؛ ولهذا خجلت له.

على أن زوجي لم يكن يرفض تأييد «السواديشي» ولا يناهض القضية بوجه من الوجوه. وإنما كان غير مقتنع كل الاقتناع بروح «باندى ماترم» (١) كان يقول:

– إنني أريد أن أخدم بلادي، ولكنني لا أعبد إلا الحق، وهو أعظم من بلادي كثيراً، ولئن اتخذت بلادي إلهًا أعبده لأجلبنّ عليها لعنة.

(١) «باندي ماترم» معناها الحرفي: حييت يا أمي، وهذه الكلمات هي مطلع أغنية للروائي البنغالي بانكيم تشاترجي، وقد أصبحت الأغنية هي النشيد الوطني الآن و « باندي ماترم» هي الهتاف الوطني منذ أيام حركة « السواديشي». (المترجم).

الفصل الثانى

حكاية بيمالا

(٤)

فى ذلك الوقت جاء سنديب بابو مع أتباعه إلى منطقتنا لينشر دعوة «السواديشى».

تقرر أن يعقد اجتماع كبير فى بهو المعبد. نحن النساء جالسات هناك فى جانب، خلف ستارة، صيحات «باندى ماترم» الظاهرة تقترب، فتبعث فى جسدى رعشة شاملة. فجأة! يندفع إلى الساحة المستطيلة سيل من الشباب حفاة الأقدام لابسى العمائم وعليهم لباس الزهاد الأصفر، كما يندفع سيل محمل بالطمى الأحمر إلى مجرى النهر الجاف لأول دفقة من الأمطار. ويمتلئ المكان كله بحشد عظيم يحمل فى وسطه سنديب بابو جالسًا على كرسى كبير ترفعه أكتاف عشرة أو اثنى عشر من الشباب .

«باندى ماترم! باندى ماترم ! باندى ماترم!».

لكأن السموات توشك أن تنشق وتتناثر ألف قطعة.

وكنت قد رأيت صورة سنديب بابو من قبل، فكان فى قسمات وجهه شىء لم أسترح إليه، لست أعنى أنه كان دميم الخلقة، بل على العكس. كان وجه وسيما، ولكن بدا لى - لسبب لا أدريه - أن كثيراً من الشوائب الخسيسة تدخل فى تكوين هذا الوجه على الرغم من كل بهائه. لأمر ما، كان النور في عينيه لا يبدو صادقاً؛ ولهذا كنت غير راضية عن خضوع زوجى لجميع مطالبه. لم يشق علىّ ضياع المال ولكن غاظنى التفكير فى أنه يحتال على زوجي؛ مستغلا صداقته. ولم يكن مظهره مظهر زاهد ولا رجل متوسط الحال، بل كان متأنقًا فى كل شىء. وكأنما حب النعيم... إن مثل هذه الخواطر تتوارد علىّ اليوم بكثرة، ولكن لندعها حيث هى...

غير أنى رأيت سنديب بابو ينقلب رجلاً آخر حين بدأ يخطب عصر ذلك اليوم، وقلوب الجمع تموج وتندفع لكلماته. وكأنها تريد أن تكسر كل الحواجز، لاسيما حين أضاء قسماته شعاع من الشمس التى كانت تدلف ببطء إلى مغربها، وقد انحدرت عن سقف البهو، فقد خيل إلىّ أن الآلهة اختارته رسولا إلى بنى الموت وبناته.

كانت كل جملة من جمله من بدء خطبته إلى نهايتها عاصفة منفجرة، وكانت ثقته بما يؤكده لاحد لها؛ وإذا بى لا أتمالك أن أزيح الستارة من أمامى وأثبت نظرى عليه، لاأدرى كيف حدث ذلك، ولكن لم يكن فى الجمع من يراعى أفعالى. مرة واحدة لاحظت أن عينيه أخذتا وجهى بوميضهما كنجوم الجبار[1].

فقدت كل وعى بنفسى، لم أعد سيدة بيت الراجا بل كنت ممثلة نساء البنغال وحدى، وكان هو بطل البنغال، وكما أسبغت السماء عليه نورها يجب أن تقدسه بركة امرأة ...

بدا لى واضحًا أنه مذ وقع بصره عليّ؛ زادت كلماته اشتعالا.لقد أبى جواد إندرا[2] أن يمسكه عنان فكان زئير الرعد ووميض البرق. وقلت فى نفسى: «إن لغته اشتعلت ناراً من عينى فنحن النساء لسنا ربات نار المنزل فحسب بل شعلة الروح ذاتها».

عدت إلى البيت فى ذلك المساء متألقة بكبرياء جديدة وفرح جديد. إن العاصفة التى ثارت فى باطنى نقلت كيانى كله من مركز إلى آخر.

---

(١) «الجبار» اسم لنجوم الجوزاء (Oriôn) « لأنها بصورة ملك متوج على كرسى » (التاج) - المترجم.

(٢) كبير الآلهة وإله السماء والمطر فى الميثولوجيا الفيدية، ويقابل زوس عند اليونان وجوبيتر عند الرومان (المترجم).

وكعذارى الإغريق فى القديم، وددت لو أقطع خصلات شعرى الطويلة اللامعة ؛ لأصنع منها وترًا لقوس بطلى. ولو كانت حلاى موصولة بمشاعرى الباطنية لكسرت قلادتى وأساورى قيودها وترامت على الجمع كشؤبوب من الشهب، فقد شعرت أنى لا أستطيع احتمال فورة حماستى إلا بأن أضحى تضحية ما.

وعندما عاد زوجى إلى البيت بعد ذلك، كنت أرتجف خشية أن يبدر منه صوت ناشز عن أنشودة النصر التى كانت لاتزال ترن فى أذنىّ، وأن يدعوه تعصبه للحق إلى استنكار شىء مما قيل فى ذلك الأصيل. فلو فعل لجابهته بالتحدى والإهانة. ولكنه لم يقل كلمة واحدة... وساءنى ذلك أيضًا.

كان ينبغى أن يقول: لقد أعادنى سنديب إلى صوابى. إننى أعلم الآن كم كنت مخطئًا طوال هذا الوقت.

وشعرت كأنه يريد أن يغيظنى بصمته ، ويصر على ألا يتحمس. فسألته إلى كم سيبقى سنديب بابو معنا؟ فقال زوجى : إنه راحل إلى رانجبور فى بكرة الغد.

– هل يجب أن يرحل غدًا؟

– نعم، فقد وعد بأن يخطب هناك.

وصمتُّ برهة، ثم سألته ثانية:

– ألا يمكنه أن يبقى يوماً آخر؟

– قد لايكون ذلك ميسوراً؛ ولكن لماذا؟

– أريد أن أدعوه للغداء وأخدمه بنفسى.

فدهش زوجى! إنه كثيراً ما رجانى أن أحضر حين يدعو بعض أصدقائه للغداء، ولكنى لم أوافقه قط على ذلك. تأملنى دهشاً، صامتاً ، بنظرة لم أفهمها جيداً.

وفجأة! غلبنى شعور بالخزى. فصحت: لا لا، هذا لن يكون!

فقال: لم لا؟ سأسأله ذلك بنفسى، وإن كان ممكناً؛ فسيبقى ولاشك إلى الغد.

وقد ظهر أن الأمر ممكن جداً.

سأقول الحقيقة كما هى. فى ذلك اليوم عاتبت خالقى لأنه لم يجعلنى فائقة الجمال، لا لأسلب قلباً بل لأن الجمال مجد. فى ذلك اليوم العظيم يجب أن تتمثل روح الوطن لرجاله فى صورة امرأة. ولكن عيون الرجال– واأسفاه! يعجزها أن تبصر الروح إن لم تبصر الجمال.

ترى هل يبصر سنديب بابو فىّ روح الوطن ظاهرة؟ أم يحسبنى امرأة بيت عادية فقط؟

في ذلك الصباح، طيبت شعرى المسترسل وقدته عقدة مسترخية يمسكها شريط حريرى أحمر بارع الضفر. فقد كنا على أن نقدم الغداء ظهرًا ولم يكن فى الوقت متسع لأجفف شعرى بعد الحمام وأضفره بالطريقة العادية، وارتديت ساريًا مذهب الحاشية، وكانت سترتى الحريرية القصيرة الكمين مذهبة الحاشية أيضًا.

وشعرت بأن فى ملبسى نوعا من الاحتشام، وأنه أبسط ما يمكن، ولكن سلفتى مرت بى مصادفة وإذا هى تقف أمامى جامدة وتتأملنى من فرعى إلى قدمى وتبتسم ابتسامة ذات معنى وهى تضغط على شفتيها. ولما سألتها عن سبب ذلك، قالت: إنى معجبة بزينتك!

فسألتها بضيق شديد: وماذا يطربك منها؟

فقالت : إنها بديعة. ولو لبست إحدى تلك الصدريات الإنجليزية القصيرة العنق لكملت.

وتركت الحجرة وجسمها كله – لا فمها وعيناها فقط – يتموج بضحك مكتوم.

واشتد غضبى جدًا، وأردت أن أبدل ثيابى كلها وألبس ملابسى العادية. ولكنى لا أدرى على التحديد لماذا لم أستطع أن أنفذ هذه الفكرة. لقد قلت لنفسى: إن النساء زينة المجتمع؟ ولن يسر زوجى إن ظهرت أمام سنديب بابو بملابس غير لائقة.

وكانت فكرتى أولا أن أجعل قدومى عليهم بعد جلوسهم للغداء، فيذهب خجل اللقاء الأول فى ضجة الإشراف على تقديم الطعام. ولكن الغداء لم يكن حاضراً فى وقته، ومر زمنى، وفى هذه الأثناء أرسل زوجى فى طلبى ليقدمنى إلى ضيفه.

كنت شديدة الحياء من النظر إلى وجه سنديب بابو، ولكننى استطعت أن أتماسك بحيث قلت : يؤسفنى أن الغداء تأخر.

فأقبل علىّ فى جرأة وجلس بجانبى وهو يجيب: إننى أتناول غداء ما كل يوم، ولكن ربة الخير تظل محتجبة. أما وقد ظهرت الربة نفسها فلا ضير إن تأخر الغداء.

كان فى مسلكه كما كان فى خطابته حازمًا لا يتردد. وكأنه تعود أن يحتل - غير مزاحم - مقعده المختار. وكان يدعى حق الألفة بثقة تجعل اللوم أشبه بأن يقع على أولئك الذين ينكرون عليه هذا الحق.

وكنت خائفة أن يحسبنى سنديب بابو حزمة هيابة من تفاهة الطراز القديم. ولكننى لم أستطع - وإن جهدت - أن أتألق فى أجوبة تسحره أو تبهره، وسألت نفسى حانقة: ماذا أصابنى حتى أبدو أمامه فى هذا المظهر السخيف؟

وهممت بالانصراف حين انتهى الغداء، ولكن سنديب بابو اعترض طريقى بجسارته التى لا تزايله وقال:

لا تحسبيني طفيليًا. ليس الغداء هو الذى أبقانى بل دعوتك. وإذا رغت الآن فلن تكونى عادلة مع ضيفك.

ولو لم يقل هذه الكلمات بيسر وانطلاق لبدت ناشزة. على أن صداقته الحميمة لزوجى كانت تجعلنى كأخته.

وبينما كنت أجاهد لأصعد على هذه الموجة العالية من الألفة أقبل زوجى لنصرتى قائلاً: هلا تعودين إلينا بعد أن تتناولى غداءك!

قال سنديب بابو: ولكنك يجب أن تعدى قبل أن نتركك تذهبين. فقلت بابتسامة خفيفة: سآتى.

ومضى سنديب بابو يقول: سأقول لك لماذا لا أستطيع أن أصدقك. لقد مضت تسعة أعوام على زواج نيكهيل وأنت تروغين منى، وإن مضيت تفعلين ذلك تسعة أعوام أخرى فلن نلتقى أبداً.

وجاريته فى معناه، فخفضت صوتى مجيبة: ولماذا لا نلتقى حتى إن حدث ذلك؟

– حساب نجمى يقول: إنى سأموت فى عمر مبكر. ولم يعش أحد من أجدادى بعد الثلاثين، وأنا الآن فى السابعة والعشرين.

كان يعلم أن هذه الكلمة ستصيب الهدف، ولابد أن ظلاً من الغم بدا في صوتي هذه المرة وأنا أقول: لا شك أن بركات البلاد كلها ستدفع سوء تأثير النجوم.

إذن، يجب أن تنطق بركات البلاد بلسان ربتها. هذا سبب انشغالي بعودتك، حتى يبدأ طلسمي عمله منذ اليوم.

كانت لسنديب بابو طريقة في أخذ الأمور أخذ عزيز مقتدر، حتى أني لم أجد فرصة لاستنكار مالم أكن لأسمح به من آخر.

وختم كلامه ضاحكًا: إذًا فسأبقي زوجك هذا رهينة حتى تعودي.

وفيما كنت خارجة ناداني: هل لي أن أثقل عليك بطلب صغير؟

فاستوفزت والتفتّ. قال : لا تنزعجي ، إنه كوب ماء فقط؛ لعلك لاحظت أني لم أشرب على الغداء. إني أشرب بعده بقليل.

وكان عليّ إزاء ذلك أن أظهر الاهتمام وأسأله عن السبب. فبدأ يروي تاريخ مرضه بسوء الهضم، وعرفت كيف عذبه المرض سبعة أشهر، وكيف أنه بعد المضايقات الطويلة المألوفة التي شملت أنواعًا من العلاج الآلوياثي والهوميوباثي بغير فائدة، حصل على نتائج رائعة من المواصفات البلدية. وأضاف مبتسمًا:

– هل تعلمين أن الله قد جعل علتي نفسها بحيث لا تستسلم إلا لمهاجمة حبوب «السواديشي».

وهنا خرج زوجي عن صمته قائلا:

– يجب أن تعترف بأن فيك جاذبية للعقاقير الأجنبية كجاذبية الأرض للشهب. إن فى حجرة جلوسك ثلاثة أرفف مليئة بالـ ....

فقاطعه سنديب بابو:

– أتدرى ماهي؟ إنها الشرطة التى تعاقبنا. تأتى لا لأننا نريدها بل لأن حكم هذا العصر الحديث يفرضها علينا لتغرِّمنا وتعذبنا.

لم يكن زوجي يطيق المبالغات، وقد استطعت أن أرى عدم رضاه عن هذه، ولكن كل التَحْليات مبالغات لم يصنعها الله بل صنعها الإنسان. وأذكر أنى قلت لزوجى مرة دفاعًا عن شيء قلته مخالف للحقيقة: لايقول الحقائق الصريحة إلا الأشجار والوحوش والطيور، لأن هذه الأشياء المسكينة. لاقدرة لها على الاختراع، وفى هذا يُظهر الإنسان تفوقه على المخلوقات الدنيا، وتبذ النساء الرجال. فلا يعيب المرأة مبالغتها فى التزين ولا مبالغتها فى الخروج عن الحقيقة.

لما بلغت الدهليز المؤدى إلى «الزينانا» وجدت سلفتى واقفة قرب نافذة تطل على جناح الاستقبال وهى تنظر من الخصاص.

فسألت دهشة : أنت هنا؟!

فأجابت : أسترق السمع!

(٥)

عندما عدت كان سنديب بابو رقيقًا فى اعتذاره قال : أخشى أن نكون قد أفسدنا شهيتك.

وشعرت بخجل شديد، فالواقع أنى انتهيت من طعامى بسرعة لاتليق، وكان من الواضح بتقدير يسير أن انصرافى عن الأكل كان أكثر من إقبالى عليه، ولكن لم يخطر ببالى أن ثمة من يعنى بتقدير ذلك.

ولعل سنديب بابو شعر بخجلى، ولكن ذلك لم يزدنى إلا خجلا، فقد قال: كنت واثقًا أن لك اندفاع الظبية النافرة إلى الهرب، ولكنى أجد اهتمامك بالمحافظة على وعدك لى نعمة كبيرة.

ولم أستطع أن أفكر في جواب مناسب، فجلست مرتبكة خَجْلَى على أحد طرفى الأريكة . وتخلت عنى صورة نفسى كما تخيلتها، صورة «روح» المرأة المتجسدة، أتوِّج سنديب بابو بحضورى وحده، فى بهاء الملك وبلا خجل.

وتعمد سنديب بابو أن يبدأ مناقشة مع زوجى. فقد كان يعلم أن بداهته تتألق فى المناقشة، وكثيراً مالا حظت بعد ذلك أنه لا يضيع فرصة الدخول فى مبارزة كلما كنت حاضرة.

وكان يعرف آراء زوجى فى عقيدة «باندى ماترم» فبدأ يقول مستثيراً: إذن، فأنت لاتسلم بأن هناك مجالا لمخاطبة الخيال فى العمل السياسى؟

– إن للخيال مكانًا ياسنديب، أسلِّم بذلك، ولكنى لا أومن بإعطاء المجال كله للخيال. إننى أريد أن أعرف بلادى على حقيقتها الصريحة، ولذلك أخاف أن أستخدم العبارات الوطنية المغناطيسية، وأخجل من ذلك.

– ما تسميه أنت العبارات المغناطيسية أسميه أنا الحقيقة. فأنا أومن حقًا بأن بلادى هى إلهى. إننى أعبد الإنسانية، والله يتجلى فى وطن الإنسان كما يتجلى فى الإنسان.

– إن كان هذا ما تعتقده حقًا؛ فينبغى ألا يكون عندك فرق بين إنسان وإنسان ولا بين وطن ووطن.

– هذا حق. ولذلك فإن تقديسى لبلادى استمرار لتقديسى للإنسانية.

– إننى لا أعترض على تقديسك فى حد ذاته، ولكنى أريد أن أسألك كيف يمكنك أن تعبد الله بكرهك لبلاد أخرى يتجلى الله فيها كما يتجلى فى بلادك؟

– الكره أيضًا قرين للعبادة. لقد نال أرجونا رضاء ماهاديفا(١) حين صارعها. وسيكون الله معنا آخر الأمر إذا عزمنا على حربه.

(١) «أرجونا» فى الأساطير الهندية القديمة: ابن اندرا، وأحد أبطال المهابهاراتا، والبطل الرئيسى فى قسم من الملحمة يسمى بها جاقاد جيتا. «ومهاديفا»، إحدى زوجات شيفا، وهى تمثل قوته المدمرة (المترجم).

– إن كان الأمر كما تقول؛ فإن من يخدمون البلاد ومن يسعون فى ضررها سواء فى عبادة الله. فلماذا إذن تتجشم الدعوة إلى الوطنية؟

– الحال غير ذلك بالنسبة إلى وطن المرء. فهنا يطلب القلبُ العبادة ولا ريب.

– إذا مضيت مع هذا المنطق، فيمكنك أن تقول: إن «ذاتنا» يجب أن تُعبد قبل أى شىء آخر، لأن غريزتنا الطبيعية تطلب ذلك، والله يتجلى فينا.

– كلا يا نيكهيل، إن هذا كله ليس إلا المنطق الجاف. ألا تسلم بأن هناك شيئًا اسمه الشعور؟

فأجاب زوجى: أقول لك الحق يا سنديب: إن شعورى هو الذى يثور كلما حاولت أن تجعل الظلم واجبًا، والشر مقالا أخلاقيًا. إن عجزى عن السرقة لا يرجع إلى قدراتى المنطقية بل إنى أشعر باحترام لنفسى وحب للمثل العليا.

كان باطنى فى ثورة، وأخيرًا لم أستطع أن أبقى صامتة، فصحت: أليس تاريخ كل بلد سواء أكان انجلترا أم فرنسا أم ألمانيا أم روسيا هو تاريخ سرقة من أجل بلادهم؟

– هم مسئولون عن سرقاتهم، وإنهم ليسألون عنها الآن، فتاريخهم لم ينته بعد.

فقاطعنا سنديب بابو قائلا: لماذا لا نحذو حذوهم على كل حال؟ فلنملأ خزائن بلادنا بالبضائع المسروقة أولا ثم لتمض القرون حتى نسأل عنها مثل سائر البلاد إن كان لا بد من ذلك. ولكنى أسألك: أين تجد هذا « السؤال» فى التاريخ؟

– عندما كانت روما تسأل عن إثمها لم يكن أحد يعلم أنها تسأل، ففى ذلك الوقت لم يكن يبدو أن لرخائها حدوداً . ألا ترى أمراً واحداً: أن حقائبهم السياسية تتقطع بالأكاذيب والخيانات وتكسر ظهورهم بأوزارها؟

لم تكن قد أتيحت لى الفرصة من قبل أن أشهد مناقشة بين زوجى وأصدقائه الرجال. كنت أشعر كلما جادلنى أنه يكره أن يلزمنى الحجة، ولم يكن لذلك من سبب إلا حبه لى. واليوم رأيت لأول مرة حذقه فى التبارز بالأفكار.

ولكن قلبى أبى أن يقبل نظرة زوجى. فكنت أجاهد لأجد جوابًا ما، ولكن الجواب لايريد أن يجىء. فعندما تأتى كلمة «الخيرية» فى مناقشة فإنك تستبشع القول بأن من الأشياء ما يمكن أن تحول خيريته دون منفعته.

وفجأة! التفت سنديب بابو إلىّ سائلا. ما رأيك «أنت» فى هذا؟ فانفجرت قائلة: إننى لا أبالى بالحدود المنطقية الدقيقة. سأقول لكما ما أشعر به على سعته وعمومه. أنا لست إلا كائنًا بشريًا: أنا ذات

أطماع. أنا أريد الطيبات لبلادى، فإذا اضطررت؛ فسوف أنتزعها وسوف أختلسها. أنا عندى الغضب، وسأغضب من أجل بلادى، وإن لم أجد بدًا فسأضرب وأذبح ثأرًا لشرفها. أنا عندى رغبتى فى أن أسْحر، ويجب أن أجد السحر متجسدًا متمثلاً فى بلادى، ويجب أن يكون لها رمز منظور يلقى سحره على عقلى. فسأجعل بلادى شخصًا وأدعوها أمًا وربة و «دُرْجًا»[1] أخضب الأرض بالضحايا قرابين لها، أنا كائن بشرى، لست كائنًا قدسيًا.

هب سنديب بابو رافع الذراعين وصاح: هورا! وبعد لحظة استدرك صائحا: باندى ماترم!

وعبرت وجه زوجى سحابةُ ألم. وقال بصوت رفيق رقيق: ولا أنا كائن قدسى. أنا بشر، ولهذا لا أسمح للشر الذى فى نفسى أن يتضخم حتى يصبح صورة لبلادى – أبدًا . أبدًا!.

وصاح سنديب بابو : انظر يانيكهيل كيف يكتسى الحق فى قلب المرأة لحمًا ودمًا. إن المرأة تعرف كيف تكون قاسية. حقدها كعاصفة عمياء ، جميل مرعب. أما فى الرجل فقبيح، لأنه ينطوى على ديدان

---

(١) إلهة الحرب فى الأساطير الهندية القديمة، بعد العصر الفيدى، وتصور – برغم قسوتها – ذات وجه جميل رقيق (المترجم).

العقل والتفكير التى تنخر. أقول لك يانيكهيل: إن نساءنا هن اللائى سينقذن البلاد ليس هذا وقت التشكك والتورع. يجب أن نكون قساة فى غير تردد ولا تفكير. يجب أن نخطىء، يجب أن نعطى نساءنا دهان خشب الصندل الأحمر ليمسحن خطأنا ويمجدنه. ألا تذكر ما يقوله الشاعر:

"تعالى أيتها الخطيئة ، أيتها الخطيئة الجميلة ،

لتسُكْب قبلاتك الحمر خمراً حمراء مشتعلة في دمائنا .

انفخي فى بوق الشر القاهر .

واضفرى على جبيننا إكليل العسف المنتشى .

يا آلهة الدنس .

لطخي صدورنا بوحل العار . ولا تخجلى » .

لتسقط تلك الخيرية التى لا تستطيع أن تنزل الهلاك والدمار وهي باسمة !

عندما وقف سنديب بابو رافع الرأس يهزأ فى لحظة اندفاع بكل ما اعتز به البشر فى كل بلد وفى كل عصر، وعدوه أثمن ما يملكون، سرت فى جسدى رعدة. ولكنه مضى فى خطابه وهو يدق الأرض بقدمه:

– إنى لأراك هذه الروح النارية الجميلة التى تحرق البيت رماداً وتضىء العالم الأكبر بلهبها. امنحينا الشجاعة التى لا تغلب لنذهب إلى قاع الدمار نفسه. ابعثى الجمال فى كل ما يُهلِك.

لم يكن واضحًا من التى عناها سنديب بابو بخطابه الأخير. لعلها تلك التى دعاها حين هتف «باندى ماترم»، أو لعلها المرأة فى بلاده، أو لعلها تلك التى تمثلها، وهى المرأة التى أمامه. وكان ماضيًا على هذه الوتيرة لولا أن زوجى نهض عن كرسيه فجأة ولمس كتفه برفق قائلا: سنديب، إن تشاندراناث بابو هنا.

فاستوفزت والتفت، لأجد سيداً شيخا بالباب ، سيماه الهدوء والوقار يتردد بين الدخول والانصراف، وكان يضىء وجهه نور لطيف كنور الشمس الغاربة.

واقترب زوجى منى وهمس: هذا أستاذى الذى حدثتك عنه كثيراً. حييه.

فانحنيت خاشعة، ومسحت التراب عن قدميه، وباركنى قائلا : رعاك الله دائمًا يا أمى الصغيرة.

شد ما كنت محتاجة إلى مثل هذه البركة فى تلك اللحظة!

حكاية نيكهيل

(١)

كان إيمانى بحيث اعتقدت يومًا أنى قادر على تحمل كل ما يأتى به ربى. ولم أتعرض قط للمحنة، أما الآن فأظنها جاءت.

وتعودت أن أختبر قوة نفسى بتخيل كل الشرور التى يمكن أن تنزل بى، الفقر، والسجن والعار، والموت - حتى موت بيمالا. وعندما كنت أقول لنفسى إنى قادر على أن أتلقاها صابرًا لم أكن أبالغ. إنى لعلى يقين من هذا، إلا أن ثمة شيئًا واحدًا لم أستطع أن أتخيله قط، وهأنذا أفكر فيه اليوم، وأسأل نفسى: ترى هل أستطيع أن أتحمله حقًا؟ ثمة شوكة فى موضع ما تخز قلبى، وتؤلمنى ألمًا مستمرًا وأنا فى عملي اليومى.

بل كأنى بها لا تكف حتى فى نومى، ولا أكاد أستيقظ فى الصباح حتى أرى البهاء قد ذهب من وجه السماء فما الأمر؟ ما الذى حدث؟

لقد بلغ من حساسية فكرى أن حياتى الماضية نفسها تبدو وكأنها تعصر قلبى بزيفها، وهى التى جاءتنى متنكرة فى لبوس السعادة؛ وأن العار والحزن اللذين يدنوان منى يفقدان غطاء السر بقدر ما يحاولان أن يحجبا وجهيهما، لقد أصبح قلبى كله عيونًا. والأشياء التى ينبغى ألا ترى، الأشياء التى لا أريد أن أراها هذه يجب أن أراها .

جاء اليوم أخيراً؛ ليصبح لزامًا على حياتى المنكودة أن تكشف عن فقرها فى سلسلة طويلة من الكشوف. واحتل هذا العوز غير المنتظر مكانه فى القلب الذى كان يبدو أن الامتلاء يسوده. ووجب أن يُردّ الأجر الذى دفعته للوهم تسع سنين من شبابى - وجب أن يرد مع أرباحه إلى الحقيقة حتى آخر أيام حياتى.

ما جدوى الجهد فى المحافظة على كبريائى؟ وأى ضير فى أن أعترف بأن شيئًا ما يعوزنى؟ لعله هو تلك القوة غير المنكرة التى يحبها النساء فى الرجال. ولكن هل القوة مجرد عرض للقوة العضلية؟ هل يجب ألا تتورع القوة عن وطء الضعفاء تحت الأقدام؟

ولكن لم كل هذا الجدل؟ إن الجدارة لا تُنال بمجرد المناقشة فيها، وأنا خلو من الجدارة، خلو من الجدارة؟ خلو من الجدارة.

وماذا إن كنت خلوا من الجدارة؟ إن قيمة الحب الحقة هى أنه يستطيع دائمًا أن ينعم بسخائه على غير الجدير. فللجدارة مكافآت كثيرة على الأرض، ولكن الله خص بالحب المساكين.

حتى اليوم كانت بيمالا هى ربيبة البيت، نتاج المكان المحصور والواجبات اليومية الصغيرة الرتيبة، وكنت أسأل نفسى: هل يأتى الحب الذى تبذله لى من ينبوع قلبها العميق، أو لا يعدو أن يكون كالتموين اليومى من ماء الأنابيب الذى تدفعه مضخة المجتمع البخارية العامة.

وكنت أتوق إلى رؤية بيمالا تزدهر وتتفتح بكل حقيقتها وقوتها، لكن الشىء الذى غاب عن حسبانى هو أن المرء يجب أن يتخلى عن كل حق مبنى على العرف إذا أراد أن يجد شخصًا يتجلى بحرية فى الحقيقة.

لماذا فاتنى التفكير فى ذلك؟ أهو اعتزاز الزوج بسلطانه على زوجته؟ لا، إنما السبب أنى وضعت غاية ثقتى فى الحب .. كنت من الغرور بحيث ظننت أنى أستطيع احتمال منظر الحقيقة فى قبحها المخيف. كنت أناوش القدر، وإن بقيت متشبثًا بعزمى الواثق على أن أخرج من المحنة ظافراً.

لقد عجزت بيمالا عن أن تفهمنى فى أمر واحد، لم تستطع أن تدرك جيداً أنى أرى كل فرض للقوة ضعفًا. فالضعفاء وحدهم هم الذين لايجرءون على أن يعدلوا. إنهم يهربون من مسئوليتهم أن يكونوا منصفين، ويحاولون أن يصلوا سريعًا إلى ما يبتغون باقتحام طرق الظلم المختصرة. وبيمالا لاتصبر على الصبر، فهى تحب فى الرجال الاحترام والغضب والظلم، واحترامها لابد أن يدخل فيه عنصر الخوف.

وكنت آمل أن تنجو بيمالا من فتنتها بالاستبداد حين تجد نفسها حرة فى العالم الخارجى. ولكننى أشعر الآن أن هذه الفتنة مستقرة فى أعماق طبيعتها. للعَنيف حبها. من طرف لسانها إلى أعماق معدتها يجب أن تحس لذعة الفلفل الأحمر حتى تستمتع بطعام الحياة العادى. ولكنى كنت مصمماً ألا أؤدى واجبى أبداً باندفاع المتعصب، ولا أستعين عليه بخمر الحماسة النارية، وأنا أعلم أن بيمالا يصعب عليها أن تحترمنى لذلك، فهى تعد تورعى ضعفًا ، وهى غاضبة على جداً لأنى لا أجرى كالمجنون صائحًا : «باندى ماترم».

والحق أنى أصبحت مكروهًا من جميع مواطنى لأنى لم أشاركهم فى نشوتهم الصاخبة. فهم واثقون أنى إما طامح إلى لقب ما أو خائف من الشرطة. أما الشرطة فيشكون فى أنى أضمر خطة ما، وأقيم بهدوئى معارضة شديدة.

أما الذى أشعر به حقًا فهو أن الذين لا يجدون فى معرفة وطنهم على حقيقته غذاء كافيًا لحماستهم، أو الذين لايستطيعون أن يحبوا الناس لكونهم ناسًا فقط ويجدون لزامًا عليهم أن يصيحوا ويؤلهوا بلادهم ليحافظوا على حماستهم - أولئك يحبون الحماسة أكثر مما يحبون بلادهم.

أن نقدم الهوى على الحق مظهر لعبودية راسخة. فنحن نشعر بالضياع حيث تكون عقولنا حرة. وحيويتنا المحتضرة يجب أن

تكون ركوبة إما لخيال وإما لصاحب سلطان وإما لفتوى من الفقهاء كيما تتحرك وما دمنا صما عن الحق لا نتحرك إلا بدافع مغناطيسى فيجب أن نعلم أنا عاجزون عن حكم أنفسنا، فنحن محتاجون مهما تكن حالتنا - إما إلى شبح موهوم وإما إلى دجال حقيقى ليكون هو القاهر فوقنا.

بالأمس حين اتهمنى سنديب بانعدام الخيال قائلا: إن ذلك يمنعنى أن أتصور بلادى فى صورة محسوسة، وافقته بيمالا. ولم أدافع عن نفسى بشىء . لأن الغلبة فى الجدال لا تؤدى إلى السعادة. واختلافها عنى فى الرأى لايرجع إلى تفاوت فى الذكاء بل على الأصح إلى تغاير فى الطبع.

يتهموننى بأنى عديم الخيال. أى أننى - على قولهم - قد يكون فى مصباحى زيت ولا شعلة. وهذا بالضبط هو ما أتهمهم به. فأنا أود أن أقول لهم: أنتم سود كالصوان، يجب أن تتصادموا وتصخبوا لتعطوا شراراتكم. ولكن وميضها المتقطع لا ينير بصائركم ولا يسند إلا كبرياءكم.

وقد كنت ألاحظ منذ زمن أن فى سنديب جشعًا فظيعًا، وأن مشاعره الجسدية تجعله يحتضن أوهامًا عن دينه، وتدفعه إلى موقف مستبد فى وطنيته. إنه حاد الذكاء ولكنه غليظ الطبع، فهو يمجد شهواته الأنانية بأن يخلع عليها أسماء طنانة. والتعزى الرخيص بالبغضاء ضرورى له كضرورة إشباع شهواته. وقد طالما حذرتنى بيمالا فى

ماضى الأيام من حبه الشديد للمال، وكنت أفهم ذلك. ولكنى لم أسترح إلى الوقوف موقف المساومة من سنديب وخجلت أن أعترف - ولو لنفسى - بأنه يستغلنى.

ولكن من العسير أن أشرح لبيمالا اليوم أن حب سنديب للوطن ليس إلا طوراً آخر من حبه لذاته، ذلك الحب الذى يجعله نهمًا طماعًا. وعبارة البطولة التى تبديها بيمالا لسنديب تزيدنى ترددًا إزاء الحديث معها عنه، أن يقودنى شىء من الغيرة إلى المبالغة دون أن أدرى. لعل الألم فى قلبى جعلنى أرى سنديب فى صورة مشوهة فعلا، ومع ذلك فقد يكون التصريح خيرًا من أن أبقى مشاعرى تنخر فى باطنى.

(٢)

عرفت أستاذى هذه السنوات الثلاثين. لا الشُّنعة تخفه ولا المصيبة ولا الموت نفسه. ما كان يمكن أن ينقذنى شيء، وأنا الذى ولدت فى تقاليد أسرتنا هذه لو لم يقم حياته بما لها من السلام والحق والبصيرة فى مركز حياتى فمكّننى أن أعرف الطيبة بالحق.

جاءنى أستاذى فى ذلك اليوم وقال : أمن الضرورى استبقاء سنديب هنا مدة أطول ؟ .

كانت طبيعته حساسة لكل نذر الشر. بحيث فهم على الفور. وكان قليلا ما يتأثر، إلا أنه شعر فى ذلك اليوم بظل المتاعب الأسود أمامنا. ألست أعرف كم يحبنى؟

فقلت لسنديب على الشاى: لقد تلقيت رسالة من رانجبور. إنهم يشكون لأننى استبقيتك أنانية منى. متى تذهب إلى هناك؟

وكانت بيمالا تصب الشاى، فإذا هى تطرق، إلا أنها ألقت نظرة واحدة متسائلة إلى سنديب. وقال سنديب: كنت أفكر فى أن هذا التجوال هنا وهناك معناه ضياع مخيف للجهد. إنى أشعر بأن عملى من مركز ما يمكن أن يحقق نتائج أبقى.

وهنا نظر إلىّ بيمالا وسأل: ألا توافقيننى على هذا الرأى؟

وترددت بيمالا في الجواب ثم قالت: كلتا الطريقتين تبدو صالحة: اتخاذ مركز للعمل، والتجول في البلاد. وأصلحهما لك هي أقربهما إلى نفسك.

فقال سنديب: إذن أقول ما في فكري. إنني لم أجد قط مصدراً واحداً للإلهام يكفيني إلى الأبد. وهذا ما جعلني لا أكف عن الترحال، أستثير حماسة الناس، وأستمد منهم - بدوري - ذخيرتي من الطاقة. وأنت اليوم أعطيتني رسالة بلادي، فما رأيت قط مثل هذه النار في رجل. وسأكون قادراً على أن أنشر نار الحماسة في بلادي حين أستعيرها منك. لا، لا تخجلي. أنت فوق كل حياء وكل تهيب. أنت ملكة النحل في خليتنا ونحن العملة سنجتمع حولك. ستكونين مركزنا ووحينا.

فاحمر وجه بيمالا كله بكبرياء خجول، واهتزت يدها وهي لاتزال تصب الشاي.

وجاءني أستاذي يوماً آخر وقال لي: لماذا لاتذهبان إلى دار جيلنج لتغيير الهواء؟ إنك تبدو متعباً. هل تنال قسطك من النوم؟ وفي المساء، سألت بيمالا هل يسرها أن تذهب في رحلة إلى الجبال. وكنت أعلم أنها تتوق إلى رؤية الهملايا. ولكنها أبت. قضية البلاد على ما أظن!

يجب ألا أفقد إيماني . سأنتظر. إن المَعْبَر من العالم الضيق إلى العالم الأوسع مليء بالعواصف. وعندما تألف هذه الحرية سأعلم أين

مكانى، فإذا وجدت أنى لا ألائم نظام العالم الخارجى؛ فلن أتعارك مع قدرى؟ بل سأتأذن فى الرحيل صامتًا .... أستخدم القوة؟ ولكن من أجل ماذا؟ هل يمكن القوة أن تغلب الحقيقة؟

حكاية سنديب

(١)

يقول الرجل العاجز: ما كان من نصيبى فهو لى. ويؤمِّن على قوله الرجل الضعيف. ولكن درس العالم كله هو هذا: ما يمكننى انتزاعه فهو لى حقًّا. لن تصبح بلادى لى لمجرد كونها البلاد التى ولدت فيها. ستصبح لى يوم أستطيع أن أكسبها بالقوة.

لكل إنسان حق طبيعى فى التملك، إذن فالطمع طبيعى، وليس من حكمة الطبيعة أن نقنع بالحرمان، فما تشتهيه نفسى يجب على بيئتى أن تعطيه، وهذا هو التفاهم الصحيح الوحيد بين طبيعتنا الداخلية وطبيعتنا الخارجية فى هذا العالم. فلتبق المثل العليا الأخلاقية لتلك الكائنات الشاحبة ذات الرغبة الصائمة والقبضة الضعيفة. أما الذين يستطيعون أن يرغبوا بكل نفوسهم ويستمتعوا بكل قلوبهم ولايعرفون ترددًا ولا ورعًا؛ فأولئك هم الذين باركتهم السماء، ولهم تبسط الطبيعة أحفل كنوزها وأحلاها. إنهم يسبحون الأنهار ويثبون الأسوار ويقتحمون

الأبواب لينالوا كل ما يستحق أن ينال. ولمثل هذا الظفر يفرح المرء ويمثل هذا الغلب تعز قيمة المأخوذ.

إن الطبيعة تسلم نفسها، بيد أنها لا تسلم نفسها إلا للسارق؛ لأنها تسر بهذه الرغبة العنيفة، بهذا الخطف العنيف. وكذلك هى لا تضع قلادة قبولها حول رقبة الزاهد النحيلة العجفاء. هذه موسيقى الزفاف تدق. لن أترك وقت الزفاف يمر. لهذا قلبى متوثب. فمن هو العروس؟ إنه أنا . إن مكان العروس لمن يقدر أن يأتى فى وقته، والمشعل بيده. والعروس فى بهو عرس الطبيعة يأتى غير منتظم وغير مدعوّ.

أأستحى؟ لا، إننى لا أستحى أبداً. أنا أطلب ما أريد، ولا أنتظر دائمًا حتى أطلبه قبل أن آخذه. أولئك الذين يحرمهم تهيبهم يعظِّمون حرمانهم باسم الحياء. إن العالم الذى ولدنا فيه هو عالم الواقع. وعندما يخرج رجل من سوق الأشياء الواقعية صفر اليدين خاوى المعدة لاتملأ حقيبته إلا الكلمات الطنانة، فإنى أتساءل: لماذا جاء إلى هذا العالم القاسى على الإطلاق، هل على تسلم هؤلاء الرجالُ وظائفهم من أيدى مترفى العالم الدينى؛ ليعزفوا ألحانًا معينة على نصوص تقية حلوة فى تلك الجنة الناعمة التى تتفتح فيها زهور اللاشىء ؟ إننى لا أتكلف تلك الألحان ولا أجد غذاء فى تلك الزهور.

إننى أرغب فيما أرغب فيه بإصرار واستعلاء. أريد أن أعجنه بكلتا يدى وكلتا قدمى؛ أن أدهن به جسمى كله، أن آكل منه حتى أمتلىء، ولن

يصل إلى أذنى صفير أولئك الذين أخفوا أنفسهم بصيامهم الورع حتى جفوا وشحبوا كديدان جائعة تسكن فراشًا طال هجره.

أنا لا أريد أن أخفى شيئًا؛ لأن هذا جبن. ولكن إن لم أستطع حمل نفسى على الإخفاء حين يكون الإخفاء ضروريًا؛ فهذا أيضًا جبن. لأن لك طمعك، أنت تبنى أسوارك، ولأن لى طمعى، أنا أنفذ منها. أنت تستخدم قوتك وأنا أستخدم مهارتى. وهذه هى حقائق الحياة، وعليها تقوم الممالك والإمبراطوريات وكل الأعمال العظيمة التى ينهض بها الناس.

أما أولئك «المبعوثون» الذين يهبطون إلينا من جنّتهم ليكلمونا بلغة قدسية فإن كلماتهم غير واقعية. ولذلك لاتجد أقوالهم مكانًا – مهما يلقوا من تصفيق – إلا فى الأركان التى يختبئ فيها الضعفاء إنهم محتقرون من أولئك الأقوياء الذين يحكمون العالم. والذين استطاعوا بشجاعتهم أن يروا هذا نالوا النجح، أما أولئك المساكين الذين تجذبهم الطبيعة إلى ناحية ويجذبهم هؤلاء «المبعوثون» إلى ناحية أخرى، فإنهم يضعون إحدى قدميهم فى قارب الواقع والأخرى فى قارب الزيف، ولذلك هم فى حيرة محزنة، لا يستطيعون أن يتقدموا ولا أن يبقوا فى مكانهم.

كثير من الناس يبدو كأنهم لم يولدوا إلا ليركبهم وسواس الموت. ولعل هناك شيئًا من الجمال – كجمال الشمس الغاربة – فى هذا الموت

المتلكئ فى ثنايا الحياة، الذى يبدو أنه يسحرهم. إن نيكهيل يحيا هذا النوع من الحياة، إن جاز أن نسميه حياة. وقد كان بينى وبينه، منذ أعوام، جدال كبير حول هذه المسألة. قال : صحيح إنك لا تستطيع أن تكسب شيئًا إلا بالقوة. ولكن ما هذه القوة؟ ثم ما هذا الكسب؟ إن القوة التى أومن بها هى القدرة على التخلى؛ فأجبته متعجبًا: إذن فأنت مفتون بعظمة الإفلاس! فأجاب: أشد الفتنة . كفتنة الفرخ الصغير بإفلاس بيضته. إن البيضة شيء واقعى ماثل ولكنها تتحرك من أجل نور وهواء لايلمسان . أحسبك تقول إنها تجارة خاسرة!.

وعندما يعمد نيكهيل إلى المجاز فلا أمل فى أن تجعله يرى أنه يتعامل مع كلمات لا مع أمور واقعية. حسنًا، فليبق سعيداً بمجازاته. إننا آكلو اللحوم فى هذا العالم. إن لنا أسنانًا وأظافر. إننا نطارد ونمسك ونمزق.

إننا لانقنع بأن نجترّ فى المساء العشب الذى أكلناه فى الصباح. نحن على كل حال لا نستطيع أن نسمح لتجار المجاز بأن يوصدوا الباب دون غذائنا، فإن فعلوا فما علينا إلا أن نختلس أو نسرق؛ لأننا يجب أن نعيش.

سيقول الناس إنى أبتكر نظرية جديدة، لاشيء إلا لأن الذين يسعون فى هذا العالم تعودوا أن يقولوا غير هذا الكلام، وإن كانوا يعملون به دائما فى الواقع. لهذا يعجزون عن أن يفهموا كما أفهم، أن

هذا هو المبدأ الخلقى الوحيد الفعال. والحقيقة أنى أعلم أن فكرتى ليست بالنظرية الفارغة، فالحياة العملية تثبت صدقها، وقد وجدت أن طريقتى تكسب قلوب النساء، وهن بنات هذا العالم الواقعى اللائى لا يُحلقن بين عالم السحب فى بالونات ملأى بالأفكار كما يفعل الرجال.

النساء يجدن فى قسماتى وطريقتى ومشيتى وكلامى انفعالا ملؤه السيطرة، لا انفعالا جففته حرارة الزهد؛ انفعالا ملؤه الدم، لا انفعالا يدير وجهه إلى الخلف عند كل خطوة فى شكل وتساؤل. إنه يزمجر ويندفع كالطوفان صائحًا : «أريد، أريد، أريد». والنساء يشعُرن فى أعماق قلوبهن أن هذا الانفعال الذى لا يمكن إخضاعه هو دم الحياة للعالم، فهو لايعترف بقانون غير ذاته، ولذلك ينتصر. من أجل هذ السبب كثيرًا ما استسلمن ليجرفهن مدّ انفعالى، غير مباليات إن قادهن إلى الحياة أو إلى الموت . إن القوة التى تستحوذ على هؤلاء النساء هى قوة الرجال الأشداء ، هى القوة التى تستحوذ على عالم الواقع.

إن الذين يتخيلون مزيداً من الصلاح فى عالم آخر أولئك إنما ينقلون رغباتهم من الأرض إلى السماء. فلننتظر لنرى إلى أى مدى يعلو ينبوعهم المتدفق، وحتام يستمر. أما الذى لاشك فيه، فهو أن النساء لم يخلقن لهذه المخلوقات الشاحبة آكلى اللوتس المثاليين.

« الوفاق ! » كثيراً ما قلت، حين كنت فى حاجة إلى هذا القول، إن الله خلق أزواجا معينة من الرجال والنساء، وإن اتحاد مثل هؤلاء الأزواج هو الاتحاد الوحيد المشروع، وإنه فوق كل اتحاد يصنعه

القانون. وسبب قولى هذا أن الإنسان وإن أراد اتباع الطبيعة فإنه لايُسر بذلك إلا أن يستتر خلف عبارة ما، لهذا يمتلىء العالم بالأكاذيب.

« الوفاق ! » ولماذا يكون هناك وفاق واحد فقط؟ قد يوجد وفاق مع الألوف. وما دخل قط فى عهدى مع الطبيعة أن أنسى كل موافقاتى التى لا تحصى من أجل وفاق واحد فقط. وقد اكتشفت كثيرا من الموافقات فى حياتى حتى الآن، ولكن ذلك لم يغلق الباب دون المزيد - وذلك الوفاق يلوح واضحا لعينى. وهى أيضا قد اكتشفت وفاقها معى.

وإذن:

وإذن فإنى جبان إن لم أكسب.

الفصل الثالث

حكاية بيمالا

(٦)

عجبًا. أين ذهب حيائى؟ الحق أنى لم أجد وقتًا لأفكر فى أمرى. كانت أيامى وليالّى تمر خاطفة كدوامة أنا فى مركزها، ولم يكن ثمة منفذ ليدخل منه التردد أو التلطف.

وذات يوم، قالت سلفتى لزوجى: كان البكاء حظ النساء فى هذا المنزل حتى الآن. وها قد جاء دور الرجال.

ومضت تقول، والتفتت إلىّ: علينا ألا نضيّع عليهم نصيبهم. إنى أراك قد برزت للمعركة يا « تشوتا رانى »[1]! فصوبى سهامك إلى قلوبهم.

---

(١) بيمالا هى زوجة الأخ الأصغر، فهى « التشوتا رانى » أو الأميرة الصغيرة . (المترجم).

وفحصتني عيناها الحادتان من فرعي إلى قدمي، فلم يفتنها لون من الألوان التي ازدهرت في زينتي وثيابي وشارتي وكلامي. إني أخجل إذ أتحدث اليوم عن هذا، ولكن لم أشعر بخجل آنذاك. فقد كان يعتمل في باطني شيء لا أعيه مجرد وعي. حقًا لقد كنت أبالغ في العناية بملابسي، ولكني كنت أفعل ذلك وأنا أشبه بالآلة، لا أرمي إلى قصد معين.

ولاشك أني كنت أعرف ما الذي سيستحسنه سنديب بابو بمن جهودي، ولكن ذلك لم يكن يحتاج إلى حدس؛ فكان يتحدث عنه في صراحة أمام الجميع.

ذات يوم، قال لزوجي: أتدري يانيكهيل... عندما رأيت ملكتنا المرة الأولى كانت جالسة هناك ساكنة الطائر في ساريها ذي الحاشية الذهبية، وكانت عيناها تحدقان في الفراغ مستفهمتين كنجمتين ضلتا طريقهما، وكأنها قضت عصوراً وهي واقفة على حافة ظلام تنظر، ترتقب شيئًا مجهولا. ولكني حين رأيتها شعرت بهزة تشملني، وخيل إليّ أن الحاشية الذهبية لساريها كانت هي نارها الباطنة تتلهب وتلتف حولها. تلك هي الشعلة التي نريدها، النار المنظورة! بالله ياملكةُ إلا أحسنت إلينا بأن تلبسي مرة أخرى كشعلة حية.

كنت قبلُ كنهر صغير على حافة قرية. كان إيقاعي ولغتي غير ماهما الآن. ولكن المد جاء من البحر، وجاش صدري، وتداعى شاطئاي،

وتجاوبت أمواج البحر تقرع قرع الطبول فى تيارى المجنون. لم أستطع أن أفهم معنى ذلك الصوت فى دمى. أين كانت نفسى الأولى؟ من أين جاء هذا السيل الآتىّ من المجد يزبد فى باطنى؟ كانت عينا سنديب الجائعتان تشتعلان كمصباحين للعبادة أمام هيكلى. كانت كل رنوته تعلن أنى المحبوبة فى الجمال والقوة، وعلوّ مديحه المنطوق وغير المنطوق يفرق كل الأصوات الأخرى فى عالمى. وتساءلت: هل خلقنى الخالق من جديد؟ وهل أراد أن يعوضنى الآن عن طول ما نبذنى؟ أنا التى كنت خلواً من الجمال أصبحت فجأة جميلة. أنا التى كنت ولاشأن لى أصبحت الآن أشعر فى نفسى بكل بهاء البنغال.

فإن سنديب بابو لم يكن فرداً مجرداً . لقد التقت فيه ملايين النفوس فى البلاد، وعندما سمّانى ملكة الخليّة ردد كل رجالنا الوطنيين آيات الثناء. وبعد ذلك لم أعد آبه لِلمَزات سلفتنى الجهيرة، فقد تغيرت علاقاتى بالعالم بأسره، وأوضح لى سنديب بابو أن الوطن كله فى حاجة إلىّ، ولم أجد صعوبة فى تصديق ذلك، فقد شعرت بأن لدى القوة لأفعل كل شىء. لقد جاءتنى قوة إلهية، كانت شيئًا لم أشعر به قط من قبل، شيئًا أكبر منى، لم يتسع لى الوقت لأتبين طبيعته. كان يبدو أنها لى، ولكنها تعوقنى، لقد كانت تشمل البنغال كلها.

وكان سنديب بابو يحب أن يستشيرنى فى كل صغيرة وكبيرة مما يتصل بالحركة، وكنت فى أول الأمر أشعر بالحرج وأميل إلى التوارى،

ولكن سرعان مازال عني ذلك، وكنت كلما أشرت بشيء بدت عليه الدهشة، وطار من البهجة، وقال : الرجال لايحسنون إلا أن يفكروا، أما أنتن معشر النساء فلكن طريقة فى الفهم دون أن تفكرن. إن الله خلق المرأة من خيال، أما الرجل فقد طرقه كى تعتدل صورته.

وكانت الرسائل ترد إلى سنديب بابو من أنحاء البلاد؛ فيعرضها علىّ لأبدى رأيى فيها. وربما اختلفنا دون أن أحاول مجادلته، فيبعث فى طلبى بعد يوم أو يومين وكأنما لاحت له فجأة فكرة جديدة، ويقول: لقد كنت مخطئًا . كان رأيك هو الصواب. وكثيراً ما يعترف لى بأنه حيثما عمل بخلاف نصيحتى كان الخطأ رائده. وهكذا تكوّن عندى اليقين بأن سنديب بابو وراء كل مايحدث، وأن وراء سنديب بابو بداهة عادية لا امرأة وامتلأ كيانى بمجد مسئولية عظيمة.

ولم يكن لزوجى مكان فى مشاوراتنا. فقد كان سنديب بابو يعامله كأخ أصغر، قد يكون المرء شديد الحب له ولكنه لا يأخذ برأيه فى الأمور. وربما تكلم بحنان وابتسام عن براءة زوجى التى تشبه براءة الطفل، قائلا: إن مذهبه الغريب وأفكاره الشاذة لا يخلوان من فكاهة تزيدهما ظرفا، وكأنما كان عطفه على نيكهيل هو نفسه الذى يمنع سنديب بابو من أن يحمّله أعباء البلاد.

إن فى صيدلية الطبيعة مسكنات كثيرة تقدمها خفية حين تُقطع الروابط الحية على غير انتظار، فلا يدرى أحد بالجراحة حتى يصحو

المرء أخيراً ليعلم بما أحدث من شق كبير. فبينما كان المشرط يعمل جاهداً في أمسّ حياتي، كانت ترين على عقلي أبخرة غاز مسكر، فلم أشعر أدنى شعور بقسوة مايحدث. لعل هذه هي طبيعة المرأة. فحين تثور عاطفتها تفقد القدرة على إدراك كل ما عداها. عندما نبقى نحن النساء كالنهر داخل شطآنه، نغدو بكل مالدينا، فإذا فضنا على الشطآن دمّرنا بكل ما فينا.

حكاية سنديب

(٢)

يبدو لى أن ثمة خطأ ما. وقد شعرت بهذا الخطأ منذ يومين.

فمنذ قدومى أصبحت حجرة جلوس نيكهيل شيئًا خلاسيًا، بين جناح للنساء وجناح للرجال. فكانت بيمالا تدخلها من «الزينانا»، ولم تكن مقفلة دونى من الجانب الآخر. ولو أننا أبطأنا فى السير وآثرنا القصد فى الاستفادة من امتيازاتنا لما اصطدمنا بأناس آخرين. ولكنا، مضينا مندفعين فلم نفكر فى العواقب.

فكلما كانت «الملكة» تدخل حجرة نيكهيل كنت أعرف ذلك بطريقة ما وأنا فى حجرتى. فهناك رنين الخلاخيل ووسوسات أخرى، وقد يصفق الباب بقوة غير ضرورية، ولخزانة الكتب صرير حين تفتح لأن مصاريعها غير ناعمة. وحين أدخل أجد الملكة وظهرها إلى الباب عاكفة على اختيار كتاب من بين الأرفف، فإذا تطوعت لمساعدتها فى هذه المهمة الصعبة نفرت وأبت، ثم ننتقل دون تعمد إلى موضوعات أخرى.

وأمس الأول، وكان يوم خميس منحوساً[1]، انطلقت بعد الظهر من حجرتى على نداء الأصوات نفسها، فوجدت حارسًا فى الممر؟ فمضيت فى سيرى دون أن أعيره نظرة ، ولكنه اعترض طريقى حين اقتربت من الباب قائلا: ليس هذا هو الطريق ياسيدى.

– ليس هذا هو الطريق؟ لماذا؟

– أمنا الرانى هناك.

– أوه، حسنًا، قل لأمك الرانى إن سنديب بابو يريد أن يراها.

– هذا لايكون ياسيدى، إنه مخالف للأوامر.

واستبد بى الغضب، فقلت بصوت عالٍ: إنى آمرك. اذهب وأعلنها بقدومى!

وأجفل الرجل شيئًا ما إزاء مسلكى؟ وكنت قد دنوت من الباب وأوشكت أن أبلغه حين تبعنى وأمسك بذراعى قائلا: لا ياسيدى، يجب ألا تفعل!

ماذا! خادم يلمسنى! جذبت ذراعى؟! وصفعت الرجل صفعة رنانة، وفى هذه اللحظة خرجت الملكة من الحجرة لتجد الرجل موشكا أن يعنف بى.

---

(١) وفقًا للتقويم الهندى. (المترجم).

ولن أنسى صورة غضبها! إننى أنا الذى اكتشفت جمال الملكة، ولعل معظم قومنا لايرون فيها شيئًا، فقوامها الطويل المشوق يسميه هؤلاء الأجلاف « نحيلا »، ولكن هذه اللدونة فيها هى التى تعجبنى، كينبوع حياة متوثب، صادر من أعماق قلب الخلق. وبشرتها سمراء ولكنها سمرة الفرند اللامعة فى حدة ولألاء.

أشارت بإصبعها وهى واقفة بالوصيد وأمرت: نانكو! اتركنا! فقلت: لاتغضبى عليه، إن كان هذا مخالفًا للأوامر فأنا الذى يجب أن أذهب.

وكان صوت الملكة لايزال مرتعشًا وهى تجيب: يجب ألا تذهب ادخل!

لم يكن ذلك رجاء بل أمرًا جديدًا! وتبعتها داخلا، وجلست على كرسىٍّ وأخذت أروِّح عن نفسى بمروحة وجدتها على المنضدة. وحطت الملكة شيئًا بقلم رصاص على قطعة من الورق ونادت خادمًا سلمتها إليه قائلة: خذ هذه إلى المهراجا.

فعدت أقول: معذرة ؛ لم أستطع أن أملك نفسى، فضربت رجلك هذا.

قالت الملكة : إنه يستحق.

– ولكن ذلك لم يكن خطأ المسكين. إنما كان يطيع أوامره.

وهنا دخل نيكهيل، وفى أثناء دخوله تركت كرسىَّ مسرعًا ووقفت قرب النافذة وظهرى إلى الحجرة. قالت الملكة لنيكهيل:

– لقد أهان الحارس نانكو سنديب بابو.

وبدت دهشة نيكهيل صادقة حتى أنى لم أتمالك أن التفتُّ وحدقت فيه. حتى الرجلُ الفاضلُ فوق مايُتصور يعجز أن يحافظ على عزة الصدق أمام زوجته – إن كانت حقًا امرأة – ومضت الملكة تقول:

– لقد اعترض طريق سنديب بابو بوقاحة وهو قادم إلى هنا. قال إن لديه أوامر...

فسأل نيكهيل: أوامر من ؟

وصاحت الملكة بصبر ناقد وعيناها تطفحان غضباً وقهراً: كيف إلى أن أعلم؟

فبعث نيكهيل فى طلب الرجل وسأله، فأجاب نانكو عابسًا: لم يكن هذا خطئى. كانت لدَّى أوامر.

– من أمرك؟

– أمنا البارا رانى.

وصمتنا جميعًا برهة. وبعد أن انصرف الرجل قالت الملكة: يجب أن يذهب نانكو!

فظل نيكهيل صامتًا. وكان بوسعى أن أرى أن عدله لايسمح بهذا، فقد كانت الشكوك تتلجلج دائمًا فى صدره، ولكنه كان إزاء

مشكلة عنيدة هذه المرة، فلم تكن الملكة بالمرأة التى تلاين أو تخضع، وكان لابد لها أن تكيل لسلفتها مثل كيلها بأن تعاقب هذا الرجل، وكانت عيناها تقدحان شرراً، ونيكهيل ملازم لصمته، وهى لاتدرى كيف تصب احتقارها على خور زوجها. وترك نيكهيل الحجرة بعد لحظة دون أن يضيف كلمة.

وفى اليوم التالى اختفى نانكو، وحين استفسرت علمت أنه أُرسل إلى مكان آخر فى الإمارة، وأن راتبه لم يخفض لهذا النقل.

واستطعت أن ألمح - خلف المناظر - آثاراً مما خربته العاصفة التى أثارها هذا العمل. كل ما أستطيع قوله أن نيكهيل كائن غريب خارج عن المألوف.

وكانت النتيجة أن أصبحت الملكة تستدعينى إلى حجرة الجلوس للحديث دون احتيال لذلك أو زعم بأنه مصادفة. وهكذا خرجنا من الإيماء إلى التلميح الواضح، فأصبح المفهوم منطوقاً. إن الكنة فى بيت الإمارة تعيش فى حجرة نائية عن الأجنبى العادى حتى إنه لايوجد طريق معلوم ليقترب منها. فما كان أعظمه من تقدم ظافر للحقيقة ألقى قناعاً للتقاليد المضللة بعد قناع ، متدرجاً ولكن فى إصدار ، حتى تجلت الطبيعة نفسها آخر الأمر.

الحقيقة؟ أجل، إنها كانت الحقيقة؛ فتجاذبُ الرجل والمرأة أصل راسخ، يؤكده عالم المادة كله من ذرة الغبار إلى ما فوقها. ولكن

الرجال يريدون أن يحجبوه عن الأنظار خلف قناع من الكلمات، ويجعلوا منه أداة منزلية بما يُصنع في البيت من المقدسات والمحظورات. إن هذا ليس أقل سخفًا من صهر النظام الشمسي لصنع سلسلة ساعة لزوج البنت![1].

فإذا استيقظ الواقع - رغم كل شيء - لنداء مالا يعدو أن يكون حقيقة عارية؛ فيالصرير الأسنان ويالصك الصدور! ولكن هل يستطيع المرء أن ينازع عاصفة؟ إنها لن تعنِّي نفسها بالرد بل ترجه رّجا.

وإنى لأستمتع بمرأى هذه الحقيقة وهى تتكشف رويداً رويداً. هذه الارتجافات فى الخطى وهذه الإشاحات من الوجه أجدها حلوة؛ وحلوة هى الخدع التى لا تخدع الآخرين فحسب بل الملكة نفسها. فحين يضطر الواقع إلى أن يَلقى الزيف يكون الخداع سلاحه الرئيسى، لأن أعداء الواقع يحاولون دائماً إخزاءه إذ ينعتونه بالفظاظة، فلابد له أن يختفى أو يتنكر، والمقام لايسمح له أن يعلن فى صراحة. نعم إننى فظ، لأنى حق. أنا الجسم أنا العاطفة. أنا الجوع الذى لايخجل ولا يرحم.

كل شيء واضح لى الآن. الستارة تهتز، ومن خلالها أستطيع أن أرى الإعداد للفاجعة. الشريط الأحمر الصغير الذى يطل من خصل شعرها الأثيث متضرجًا بشوقه الدفين هو اللسان الذى يتدلى من

---

(١) زوج البنت هو الشخص المدلل فى البيت الهندى. (المترجم).

سحابة العاصفة الحمراء. إنى أحس الدفء فى كل ثنية من ساريها، وكل إيماءة فى ملابسها ولعل اللابسة نفسها لاتشعر بذلك شعوراً جلياً.

إن الملكة لم تشعر، لأنها خجلة من الواقع الذى نبزه الناس بلقب الشيطان، فاضطر أن يتسلل إلى جنة النعيم فى صورة ثعبان، ويهمس بالأسرار فى أذن رفيقة الرجل المختارة ، وإذا هى تثور، فسلاماً على كل راحة، وبعد ذلك يأتى الموت!

إن ملكتى الصغيرة المسكينة تعيش فى حلم. هى لا تدرى فى أى طريق تسير، وإيقاظها قبل الأوان غير مأمون، فخير لى أن أدّعى من عدم الوعى مثل ما عندها.

منذ أيام، كانت تتأملنى على الغداء بنظرات غريبة، جاهلة معنى هذه النظرات. وحين التقت عيناى عينيها أشاحت بوجهها الذى تضرج خجلا. فقلت : أتدهشك شهيتى؟ إننى أستطيع أن أخفى كل شىء إلا نهمى. وعلى كل حال لماذا يحمر وجهك من أجلى وأنا لا أستحى؟

فلم يزد ذلك وجهها إلا احمراراً، وتمتمتْ: كلا، كلا. لقد كنت فقط...

فقاطعتُها قائلاً : إنى أعلم . النساء يملن إلى الرجال النهمين، فنهمنا هذا هو الذى يجعل لهن اليد العليا. وقد تلقيت من أيديهن إكراماً زاد فى عدم حياء، فلست أبالى ألبتة أن تنظرى إلى الطيبات تختفى، فإنى عازم على أن أستمتع بكل واحدة منها.

ومنذ أيام، كنت أقرأ كتابًا إنجليزيًا يعالج مشكلات الجنس بطريقة واقعية جريئة. فتركته فى حجرة الجلوس. وحين دخلتها بعد ظهر اليوم التالى لبعض الشأن وجدت الملكة جالسة وهذا الكتب فى يدها، فحين سمعت خطواتى ألقته مسرعة ووضعت فوقه كتابًا آخر - مجلدًا من أشعار مسز هيمان.

وبدأت الحديث قائلاً: لست أدرى لماذا تخجل النساء إذا ضبطن يقرأن الشعر. قد يكون لنا نحن الرجال - محامين أو مهندسين أو غير ذلك - أن نخجل من هذا، وإذا لم يكن لنا من قراءة الشعر بد فينبغى أن يكون ذلك فى هدوء الليل خلف أبواب مغلقة. أما أنتن معشر النساء فبينكن وبين الشعر نسب قريب. إن الخالق نفسه شاعر، ولابد أن جايايديفا[1] قد تعلم الفن القدسى جالسًا عند قدميه.

فلم تحر الملكة جوابًا، غير أن وجهها احمر فى قلق، وهمت بمغادرة الحجرة، فقلت مستنكرًا: كلا، كلا، أرجوك أن تمضى فى قراءتك. أنا لا أبغى إلا كتابًا تركته هنا، وسأنطلق من فورى - وأخذت الكتاب من على المنضدة - من حسن الحظ أنك لم تفكرى فى تصفحه فيدعوك ذلك إلى معاقبتى.

---

(١) شاعر غنائى تصلح قصائده فى تمجيد الله للتعبير عن مختلف العواطف الإنسانية . (المترجم).

فسألت الملكة: حقّا! لماذا؟

قلت : لأنه ليس شعراً، بل أشياء صريحة، فهى لغة صريحة ، لا تتحرز ولا تتحرج. وددت لو يقرؤه نيكهيل.

فعبست الملكة قليلا وهى تتمتم: وما الذى يجعلك تود ذلك؟

– ألا ترين أنه رجل، واحد منا ؟ كل الخلاف بينى وبينه أنه يحب أن ينظر إلى هذا العالم نظرة مغلفة بالضباب. ألم تلاحظى أن هذه الصفة فيه تجعله ينظر إلى «السواديشى» كأنها قصيدة شعر يجب أن يسلم وزنها فى كل خطوة؟ أما نحن فإنا محطِّمو الوزن بهراواتنا النثرية.

– وما شأن كتابك بالسواديشى؟

– ستعلمين متى قرأته. إن نيكهيل يريد أن يتبع مبادئ موضوعة يريد ذلك فى السواديشى كما يريده فى كل شىء آخر، ولهذا يصطدم بالطبيعة البشرية عند كل منعرج، ثم يأخذ فى ذمها، ولا يريد أن يدرك أبداً أن الطبيعة البشرية قد خلقت قبل أن تخلق العبارات بوقت طويل، وستعيش بعدها أيضاً.

فصمتت الملكة لحظة ثم قالت برزانة: أليس من الطبيعة البشرية أنها تحاول السمو على نفسها؟

وابتسمت فى باطنى ، وقلت لنفسى: ليست هذه كلماتك، لقد حفظتها من نيكهيل، « أنت » بشر سوى. لقد استجاب لحمك ودمك لنداء الواقع . كل عروقك تشتعل بنار الحياة - ألست أعلم ذلك؟ فحتام يبقونك باردة بهذه المنشفة المبللة، المبادئ الخلقية؟

وقلت بصوت مرتفع : إن الضعفاء أغلبية، وهم دائمًا يسممّون آذان الناس بترديد هذه المزاعم . لقد حرمتهم الطبيعة من القوة، ولهذا يحاولون أن يضعفوا الآخرين.

فردت بيمالا : نحن النساء ضعيفات ، وأحسبنا يجب أن ننضم إلى مؤامرة الضعفاء.

فصحت ضاحكا: النساء ضعيفات! إن الرجال يمتدحونكن بالنعومة والرقة حتى يوهموكن أنكن ضعيفات. ولكن القوة فيكن معشر النساء. إن الرجال يبالغون فى التظاهر بما يسمونه حريتهم، ولكن الذين يعرفون تفكيرهم الباطنى يدركون عبوديتهم. لقد كتبوا الكتب بأيديهم ليقيدوا أنفسهم، وبمثاليتهم صنعوا أغلالا ذهبية للنساء يلفونها حول أجسامهن وعقولهن. ولو لم تكن للرجال هذه القدرة العجيبة على إيقاع أنفسهم فى أشراك من صنعهم لما استطاع شىء أن يبقيهم فى القيد. أما أنتن معشر النساء فقد رغبتن أن تحتوين الواقع. بالجسم والروح، لقد ولدتن الواقع وأرضعتن الواقع أثداءكن.

وكانت الملكة واسعة الاطلاع بالنسبة إلى غيرها من النساء ، ولم يكن من اليسير أن تسلم بحججى. فقالت تناقضنى : لو صح ذلك لما وجد الرجال جاذبية فى النساء.

فأجبتها: إن النساء يدركن الخطر. هن يعلمن أن الرجال يحبون الأوهام، لذلك يعطينهم كفايتهم منها بأن يستعرن عباراتهم نفسها. هن يعلمن أن الرجل - ذلك السكير - يفضل النشوة على الطعام. ولذلك يحاولن أن يبدون فى مظهر شىء يثير النشوة. والواقع أنه لولا الرجال لما احتاجت المرأة إلى التمثيل.

- إذن لماذا تعنِّى نفسك بتحطيم هذا الوهم؟

من أجل الحرية. إننى أريد الحرية للبلاد، وأريد الحرية للعلاقات الإنسانية.

(٣)

كنت أعلم أن مفاجأة من يمشى فى النوم بإيقاظه أمر غير محمود العاقبة، ولكن فى طبعى اندفاعًا ينفرنى من المشية المتئدة. وقد علمت أنى مسرف فى الجسارة ذلك اليوم، وعلمت أن صدمة مثل هذه الأفكار توشك أن تكون غير محتملة، ولكن الجسارة هى التى تكسب دائمًا مع النساء.

بينما كنا نتقدم بخطى حثيثة إذ بأستاذ نيكهيل الشيخ - تشاندرانات بابو - يدخل علينا. إن العالم ليذهب منه أكثر من نصف رداءته مكانًا للعيش لو خلا من هؤلاء المعلمين الذين يجعلون المرء يود أن يغادره فى اشمئزاز. وأمثال نيكهيل يريدون أن يبقى العالم أبدًا مدرسة. وقد ظهرت هذه المدرسة المتجسدة عصر ذلك اليوم فى لحظة سيكولوجية.

نحن جميعًا نظل تلاميذ صغارًا فى ركن ما من قلوبنا. وحتى أنا شعرت بشىء من الارتباك. أما الملكة المسكينة فقد انتظمت فى مكانها على الفور كأول الصف على المقعد الأول، وكأنها تذكرت فجأة أن عليها أن تواجه الامتحان.

إن بعض الناس أشبه « بعمال تحويل » دائمين ينتظرون بجانب الخط الحديدى ليحولوا قطار أفكار المرء من قضيب إلى قضيب .

ما كاد تشاندرانات بابو يدخل حتى أخذ يتلمس عذرًا للانصراف متمتمًا : معذرة ... إننى ...

ولكن الملكة أسرعت إليه قبل أن يتم، وانحنت فى خشوع قائلة: أتوسل إليك ألا تتركنا ياسيدى. ألا تتفضل بالجلوس؟

كانت كفريق يتعلق به طالبًا النجاة الرعديدة الصغيرة!

ولكن من الجائز أنى أخطأت الفهم، فلعل دعوتها إياه كانت تنطوى على شيء من مكر النساء، لعلها كانت تريد أن ترفع قيمتها فى عينى. لعلها كانت تقول لى فى وضوح وإيجاز : لا يخطرن ببالك لحظة أنى خضعت لك. بل إن احترامى لتشاندرانات بابو لأكثر من ذلك.

حسنًا ، أسبغى احترامك كما تشائين. فالمعلمون يعيشون عليه، ولكنى لست معلمًا، ولا حاجة لى بتلك التحية الفارغة.

وبدأ تشاندرانات بابو يتكلم عن « السواديشى » ، فظننت أنى أستطيع أن أدعه يتكلم وحده، فلا شيء يعدل أن تترك شيخًا عجوزًا يفرغ ماعنده فى الكلام، يخال أنه يربط العالم فى حزمة ، وينسى طول الوقت كم يبعد العالم الواقعى عن لسانه الثرثار.

ولكن أعدى أعدائى لايستطيع أن يتهمنى بالصبر. وحين بدأ تشاندرانات بابو يقول: « إذا كنا ننتظر أن نجنى الثمار من حيث لم نضع بذورًا ... » اضطررت أن أقاطعه. فصحت: من الذى يريد الثمار؟

نحن نتبع صاحب « الجيتا » الذى يقول : إن علينا أن نسعى وليس علينا أن ننتظر ثمار أعمالنا .

فسأل تشاندرانات بابو : إذًا فما الذى تريدونه حقا ؟

فصمت: الأشواك ! الأشواك التى لا تكلف شيئًا لتزرع.

فأجاب : الأشواك لا تعوق الآخرين فحسب، بل إن من شأنها أن تجرح أقدام من يزرعها.

فرددت عليه قائلا: هذا حق ليكتب فى مشق. ولكن الشىء الواقعى هو أن لدينا هذه الأكله في قلوبنا. ليس علينا الآن إلا أن نزرع الشوك لأقدام غيرنا، وعندما يؤلمنا فيما بعد سيكون لدينا من الفراغ ما يسمح لنا بأن نندم. ومع ذلك فلماذا نخاف حتى إن حدث هذا؟ عندما يكون علينا أن نموت أخيرًا سنجد متسعًا من الوقت لنبرد، أما والنار تلهبنا فدعنا نحتدم ونغلى.

فابتسم تشاندرانات بابو قائلا : لك أن تحتدم كما تشاء، ولكن على ألا تحسب هذا عملا أو بطولة، فالأمم المتقدمة فى العالم قد تقدمت بالعمل لا بالغليان . وأولئك الذين رقدوا دائمًا في خوف من العمل إذا استيقظوا فجأة لحالهم المحزنة بحثوا عن خلاصهم فى اختصار الطرق ولهوجة الأعمال.

وكنت أتحفز لإلقاء رد قاطع حين عاد نيكهيل . فنهض تشاندرانات بابو ونظر إلى الملكة قائلا : دعينى أذهب الآن ياأمى الصغيرة لأعنى ببعض شأنى.

ولما خرج أريت نيكهيل الكتاب الذى بيدى وقلت له: لقد كنت أحدث الملكة عن هذا الكتاب.

إن تسعة وتسعين فى المائة من البشر يجب خداعهم بالأكاذيب، ولكن الطريق الأسهل مع هذا التلميذ الأبدى لمعلم المدرسة هو خداعه بالحقيقة. فأفضل ما يغش به هو الصراحة. ولهذا كانت أيسر الطرق حين أقامره أن أضع أوراقى على المائدة.

قرأ نيكهيل العنوان على الغلاف ولم يقل شيئًا. فمضيت أقول : هؤلاء الكتاب يُعملون مكانسهم بهمة، مزيحين تراب النعوت التى غطى بها الناس عالمنا هذا. لذلك كنت أقول إنى أود لو تقرؤه.

فقال نيكهيل : لقد قرأته.

– حسنًا ، وما رأيك ؟

– إنه نافع لمن يريدون حقًا أن يفكروا ، ولكنه سم لمن يفزعون من التفكير.

– ما الذى تعنيه ؟

– أولئك الذين يدعون إلى « المساواة فى حقوق الملكية » يجب ألا يكونوا لصوصًا، لأنهم إن كانوا لصوصًا فما يُعلّمونه أكاذيب. وعندما يتغلّب الانفعال لا يفهم مثل هذا الكتاب على وجهه.

فأجبت: الانفعال هو مصباح الشارع الذى يرشدنا، وتسميته باطلا عبث، كتوقع أن تحسن الرؤية باقتلاع العينين الطبيعيين.

وكان واضحًا أن نيكهيل قد أخذته الحماسة. قال : إننى لا أسلّم بحقيقة الانفعال إلا حين أسلم بحقيقة التحكم فيه. وحين ندفع ما نريد رؤيته داخل عيوننا لا نرى وإنما نؤذى عيوننا، وكذلك عنف العاطفة الذى لا يترك مسافة بين العقل وموضوعه يؤدى إلى عكس المقصود.

فأجبت: إنما هو تأنقك الفكرى الذى يجعلك تسترسل فى لطائف أخلاقية، متجاهلاً الجانب الوحشى للحقيقة. وهذا لا يساعدك إلا على إخفاء غلالة من الإبهام على الأشياء فلا تستطيع أن تعمل بشىء من القوة.

فقال نيكهيل نافد الصبر: إن إقحام القوة فى غير محلها لايساعدك فى عملك ... ولكن لماذا تجادل فى هذه الأمور؟ إن الجدل الفارغ لا يذهب إلا نضارة الحقيقة.

وكنت أريد أن تشترك الملكة فى المناقشة، ولكنها لم تنطق بكلمة إلى تلك اللحظة . فهل صدمتها صدمة عنيفة تركتْها نهبًا للريب ، راغبة فى أن تحفظ درسها من جديد على يدى معلم المدرسة؟ بيد أن الهزة

الكبيرة كانت لازمة . فيجب أن يبدأ المرء بإدراك أن الأمور التى تُظن راسخة يمكن أن تهتز.

قلت لنيكهيل: يسرنى أنى تحدثت معك؟ فقد كنت موشكا أن أعير هذا الكتاب للملكة كى تقرأه.

فقال نيكهيل : وأى بأس فى ذلك ، إذا كنت أستطيع قراءة الكتاب فلماذا لا تقرؤه بيمالا أيضًا؟ كل ما أريد قوله هو أن الناس فى أوربا ينظرون إلى كل شىء من وجهة العلم. ولكن الإنسان ليس علم وظائف الأعضاء فحسب ولا علم الأحياء، ولا علم النفس، بل ولا علم الاجتماع. بربك لا تنس هذا. إن الإنسان أكبر كثيرًا من العلم الطبيعى عن نفسه. أنت تضحك منى، تسمينى تلميذ معلم المدرسة، ولكنك أنت هذا التلميذ لا أنا. فأنت تريد أن تعرف حقيقة الإنسان من مدرس العلوم لا من وجودك الداخلى.

فقلت ساخرًا : ولكن لماذا كل هذه الحماسة؟

– لأنى أراك عاكفًا على تحقير الإنسان وإذلاله.

– وفيم بالله ترى كل هذا؟

فى الهواء. فى مشاعرى المهانة. إنك دائب على جَرْح ماهو عظيم وغيرىٌّ وجميل فى الإنسان.

– أى فكرة مجنونة هذه التى تزعم؟

فهبّ نيكهيل فجأة وقال : أصارحك القول ياسنديب إن الإنسان قد يجرح حتى الموت ويأبى مع ذلك أن يموت. لهذا السبب أنا مستعد لأن أحتمل كل شىء . وأنا أعلم كل شىء، وعيناى مفتوحتان.

قال هذه الكلمات وغادر الحجرة مسرعًا.

وكنت أحملق زائغ البصر فى شخصه المتباعد عندما سمعت صوت كتاب يسقط عن المنضدة، فالتفت لأرى الملكة تتبعه بخطى سريعة عصبية وقد خطت طريقًا دائريًا لتتجنب المرور بقربى.

مخلوق عجيب نيكهيل هذا ! إنه يشعر بالخطر يتهدد بيته، ولكن لماذا لا يطردنى منه؟ أنا أعلم السبب. إنه ينتظر بيمالا أن تعطيه الإشارة . فإن قالت له بيمالا: إن زواجهما كان خطأ فسيحنى رأسه ويسلم بأنه ربما كان خطأ! فليست لديه الصلابة ليدرك أن الاعتراف بالخطأ هو أفدح الأخطاء، وإنه لمثل واضح يبين كيف تورث الأفكار ضعفًا. ما رأيت أحدًا مثله أعجوبة من بدوات الطبيعة! إنه لا يكاد يصلح شخصية فى رواية أو مسرحية ، بله واقع الحياة.

والملكة ؟ أخشى أن تكون حياتها الحالمة قد انتهت منذ اليوم. فقد فهمتْ أخيرًا حقيقة التيار الذى يحملها معه. وعليها الآن أن تتقدم أو تتأخر مفتوحة العينين. ولعل الأقرب إلى الظن أنها ستتقدم خطوة ثم تتأخر خطوة، ولكن ذلك لا يقلقنى. فعندما تشتعل النار بإنسان يكون اندفاعه ذهابًا وجيئة سببًا لاحتدامها، ولن يكون الخوف الذى شعرت به إلا مذكيًا لانفعالها.

لعل الأحجى ألا أكلمها كثيراً ، بل أكتفى بأن اختار لها بعض الكتب الحديثة لتقرأها. فلتصل رويدا رويداً إلى الإيمان بأن الإنسان يكون عصرياً حين يعترف بالانفعال ويحترمه على أنه الواقع الأسمى، لا حين يخجل منه ويمجد السيطرة عليه. وإذا وجدت ملاذاً فى كلمة مثل « العصرية » فسوف تجد قوة .

ومهما يكن من شىء فيجب أن أرى هذا الأمر إلى نهاية الفصل الخامس. على أننى لا أستطيع – وياللأسف ! – أن أزهو بكونى متفرجاً وحسب، أجلس فى المقصورة الملكية وأصفق من حين لآخر. إن فى قلبى عصرة، وفى كل عصب وخزة. عندما أطفىء النور وأرقد فى فراش ترف حوالى وتملأ الظلام لمسات ونظرات وكلمات صغيرة، وعندما أصحو فى الصباح تعرونى هزة إذ أستبق الزمن، ويخيل إلى أن الدم يجرى فى عروقى على نغمات الموسيقى...

كان على المنضدة إطار مزدوج فيه صورة الملكة إلى جانب نيكهيل. فنزعت صورتها. وأمس أريتها الجانب الخالى وقلت لها: السرقة لا تصبح ضرورية إلا بسبب البخل، فيجب أن يُقسم إثمها بين البخيل والسارق. ألا ترين ذلك؟

فلم تزد على أن قالت وابتسمت ابتسامة صغيرة : إنها لم تكن جميلة.

قلت : وما العمل؟ لن تكون الصورة أفضل من صورة، وعلىّ أن أقنع بها مهما كانت.

فأخذت الملكة كتاباً وراحت تقلب صفحاته، ومضيت أقول : إن كان هذا يضايقك فعلىَّ أن أحتال لملء الفراغ.

وقد ملأته اليوم. إن صورتى هذه أخذت وأنا فى ريق الشباب، وكان وجهى آنذاك أنضر، وكذلك كانت نفسى. ثم كانت لدىّ بعدُ أوهام عن هذا العالم والعالم الآخر. والإيمان يخدع الرجال، ولكن له فضيلة واحدة عظيمة: أنه يضفى على القسمات بهاء.

صورتى ترقد الآن بجانب صورة نيكهيل. ألسنا صديقين قديمين؟

الفصل الرابع

حكاية نيكهيل

(٣)

ما كنت قط عاكفًا على ذاتي، ولكني كثيرًا ما أحاول في هذه الأيام أن أنظر إلى نفسي من الخارج - أن أرى نفسي كما تراني بيمالا. ويالها من صورة قاتمة كئيبة، تلك التي تصنعها عادتي في تناول الأمور تناولا مسرفًا في الجد!

لخيرٌ لك أن تصرف الدنيا بالضحك من أن تغرقها بالدموع. هكذا - في الحق - تسير الدنيا. فنحن لانلذ طعامنا وراحتنا إلا لأننا نطرد الأحزان المنتشرة في كل مكان، في البيت وفي العالم الخارجي، كما لو كانت أشباحًا خاوية، ترى، أين كانت تذهب شهيتنا ونومنا لو أننا نظرنا إلى تلك الأحزان ، ولا مرة واحدة، على أنها حقائق؟

ولكني لا أستطيع أن أطرد نفسي كما لو كانت واحدًا من تلك الأشباح. ولهذا يرقد حمل حزني ثقيلا ثقل الأبد على قلب عالمي.

لماذا لا تقف متفرداً متباعداً على جادة العالم، وتشعر أنك جزء من الكل؟ ما بيمالا بالنسبة إليك وسط تيار البشرية الضخم الممتد عبر العصور؟ زوجك وما الزوجة ؟ فقاعة اسم ، ينفخها نفسك حتى تكبر، تحرسها حذراً بالليل وبالنهار، ولكنها توشك أن تنفجر لأى شكة دبوس من الخارج.

زوجتى .. إذن فهى – ولاريب – ملكى ! فإن قالت: « لا، إننى ملك نفسى»، فهل لى أن أجيب: « كيف يكون ذلك؟ ألست لى؟».

زوجتى .. وهل تصلح هذه الكلمة حجة، بله أن تكون حقيقة؛ هل يستطيع امرؤ أن يسجن شخصية كاملة فى ذلك الاسم؟

زوجتى! .. ألم أودع ذلك العالم الصغير أنقى مافى حياتى وأحلاه، كل ماهو أنقى وأحلى، ولم أدعه لحظة يسقط من حضنى إلى التراب؟ أى بخور للعبادة، وموسيقى للعاطفة، وزهور لربيعى وخريفى لم أقدم عند هيكله؟ فإن جرفتها مياه البالوعة العكره كزورق ورقىٍ صغير – ألستُ أيضاً... ؟

مرة أخرى هذه النظرة القاتمة التى لا أستطيع الخلاص منها! لماذا هى بالوعة ولماذا هى عكرة؟ إن أسماء تقال فى نوبة غيرة لن تغير حقائق العالم. إن لم تكن بيمالا لى فليست لى، ولن يثبت الغضب والغيظ والجدل أنها لى. وإن كان قلبى ينصدع فلينصدع! فلن يغدو العالم مفلساً بسبب ذلك – ولا أنا نفسى، فالإنسان أكبر كثيراً مما يفقده فى

هذه الحياة . حتى بحر الدموع له شاطئه الآخر، ولولا ذلك ما بكى إنسان.

ولكننا يجب أن ننظر إلى رأى المجتمع ... فلندع المجتمع يرى. إن كنت أبكى فعلى نفسى أبكى لا على المجتمع. وهل أبالى - إن قالت بيمالا إنها ليست لى - أين تكون زوجتى التى يعرفها المجتمع؟

لابد من بلاء. ولكننى يجب أن أنقذ نفسى - بكل وسيلة فى يدى - من أحد أنواع تعذيب النفس، يجب ألا أفكر أبداً أن حياتى تفقد قيمتها لأنها ابتليت بإهمال ما. إن القيمة الكاملة لحياتى لا تذهب كلها ثمناً لعالمى البيتى الضيق، فتجارتها العظيمة لا تنتعش ولا تهبط لنجاح تافه أو خيبة تافهة فى مقايضة مسراتى وأحزانى الشخصية.

لقد حان الوقت لأجرد بيمالا من كل زينة مثالية خلعْتُها عليها. لقد كان إفراطى فى هذه العبادة ناشئًا عن ضعفى. كنت شديد الطمع. فخلقت من بيمالا ملاكًا لأضاعف سعادتى، ولكن بيمالا هى كما هى، وليس بمعقول أن تلبس لبوس ملاك لترضينى. ولا يلزم أن يمدنى الخالق بملائكة لأنى ظامىء إلى الكمال الخيالى.

يجب أن أعترف بأنى لم أكن إلا مصادفة فى حياة بيمالا. ولعل طبيعتها لاتستطيع أن تعرف الاتحاد الحقيقى إلا مع رجل مثل سنديب. على أنى لا أستطيع باسم التواضع الزائف أن أعد رفضى جزاء أستحقه. إن لسنديب ولا شك صفات جذابة كان لها سلطان على أيضًا.

ولكنني أشعر يقيناً أنه ليس رجلا أفضل مني. وإذا كان غار النصر نصيبه اليوم والإهمال لي. فسوف يُدعى مانح الغار ليوم حساب.

إنني لا أقول هذا مفاخراً. لقد ألجأتني الضرورة نفسها إلى حيث يجب أن أقرر كل قيمتي الحقيقية لأنقذ نفسي من الدمار الكامل- فلتقبل علي من خلال تجربة العذاب المخيفة فرحة الخلاص - الخلاص من شكي في نفسي.

لقد وصلت إلى التمييز بين ماهو حقيقة فيّ وما كنت أتوهم غفلة مني أنه في، وسُوِّي حساب الربح والخسارة وأصبح الباقي هو نفسي- لا نفساً كسيحة مكسوة بالخرق والمزق، ولانفساً مريضة تغذى بطعام المرضى، بل روحاً خاضت أشد البلاء واستطاعت أن تعيش.

مر أستاذي بحجرتي منذ لحظة، وقال ويده على كتفي: قم إلى فراشك يانيكهيل فقد تقدم الليل.

والواقع أنه أصبح من العسير عليّ أن آوى قبل أن يتأخر الوقت - أي قبل أن تستغرق بيمالا في النوم. فنحن نتلاقى في النهار، وربما تحادثنا، ولكن ماذا عساى قائلاً لها حين ننفرد في سكون الليل، وبنفسي وجسمي ما بهما من الخجل؟

سألت بدوري: وكيف بقيت ساهراً حتى الآن ياسيدي؟ فابتسم شيخي قليلا وهو يتركني قائلا : لقد انتهت أيام نومي، وبلغت سن اليقظة .

كنت قد بلغت من الكتابة هذا الحد وهممت بالقيام لأذهب إلى الفراش حين رأيت سحاب تموز ينفرج غطاؤه الثقيل فجأة: فرجة صغيرة لمع فيها نجم كبير، وكأنه يقول لي : مواثيق أرض الأحلام تبرم، ومواثيق أرض الأحلام تنقضي، ولكنني هنا أبداً، المصباح الخالد لليلة العرس.

وامتلأ قلبي فجأة بفكرة أن حبي الخالد ينتظرني صابراً خلال العصور، خلف حجاب الأشياء المادية، خلال حيوات كثيرة. في مرايا كثيرة رأيت صورتها – مرايا مكسورة، مرايا معوجة، مرايا مغبرة.

وكلما حاولت أن أجعل المرآة مرآتي أنا، وأغلق عليها صندوقي، غابت الصورة عن ناظري. ولكن ماذا في ذلك؟ ماذا أصنع بالمرآة، بل بالصورة نفسها؟

ياحبيبتي، إن بسمتك لن تغيب أبدا، وفي كل فجر سيظهر لي الطابع القاني بكراً على جبينك!

يهزأ شيطان من ركنه المظلم: ياله من ملق صبياني لخداع النفس! ثرثرة حمقاء تبقي الأطفال هادئين!

قد يكون ذلك صحيحاً. ولكن ملايين وملايين من الأطفال بملايين من الصيحات يجب أن يبقوا هادئين. فهل يمكن أن يكون مايهدئ هذا الجمع كله كذبة؟ كلا، إن حبي الخالد لا يمكن أن تخدعني، لأنها حق!

إنها حق، ولهذا رأيتها وسأراها كثيراً حتى فى أخطائى، حتى فى أكثف غمامة من الدمع. لقد رأيتها وفقدتها فى زحمة سوق الحياة، ووجدتها ثانية، وسأجدها مرة أخرى عندما أنجو خلال ثغرة الموت.

آه ياحبيبتى القاسية، لاتمضى فى لعبك بى! إن كنت قد عجزت عن الاهتداء إليك بآثار خطاك على الطريق، وعبق جدائلك فى الهواء، فلا تجعلينى أبكى ذلك أبداً. النجمة المسفرة تأمرنى ألا أخاف؛ فما هو أبدى لابد أن يكون موجوداً دائماً.

فلأذهب الآن ولأر بيمالا. لابد أنها قد مدت أعضاءها المتعبة على السرير، مسترخية بعد طول جهادها، واستغرقت فى النوم، سأترك قبلة على جبينها دون أن أوقظها، لتكون قربان الزهر لعبادتى. أعتقد أننى أستطيع نسيان كل شىء بعد الموت، كلَّ أخطائى وكل عذاباتى، ولكنّ صدىً لذكرى هذه القبلة سوف يبقى؛ فإن الإكليل الذى نسج من قبلاتٍ ولاداتٍ كثيرة متعاقبة سيتوج المحبوبة الخالدة.

عندما دقت الساعة الثانية دخلت زوجة أخى الحجرة، وصاحت: «ماذا تصنع ياأخى العزيز[١] بالله قم إلى سريرك ولاتشغل بالك. إننى

(١) عندما تقوم رابطة بين شخصين بطريق الزواج أو التفاهم المشترك الناشىء عن صداقة أو مودة خاصة فإنهما لا يناديان أحدهما الآخر بالاسم بل باللفظ الذى يدل على تلك العلاقة (المترجم).

لا أطيق النظر إلى ذلك الظل المخيف من الألم على وجهك.» وفاضت الدموع من عينيها وهى تدعونى هذا الدعاء.

فلم أستطع أن أنبس بكلمة، ولكنى مسحت التراب عن قدميها ومضيت لأنام.

حكاية بيمالا

(٧)

فى مبدأ الأمر لم أكن أرتاب فى شىء ولا أخاف شيئًا؛ إنما كنت أشعر أنى منذورة لبلادى. وكم كان فى ذلك التسليم المطلق من فرح عظيم! ثم عرفت كيف يمكن أن يجد الإنسان السعادة القصوى فى تمام تدميره لذاته.

مهما يكن من شىء فقد كان يمكن أن تنتهى لوثنى هذه نهاية تدريجية طبيعية. ولكن سنديب بابو لم يشأ ذلك. بل أصر على أن يكشف نفسه. أصبحت نبرة صوته حميمة كلمسة، وكل نظرة تركع على ركبتيها مستجدية، وفى ثنايا ذلك كله يتلهب شو كأنه يوشك من حدته أن يقتلعنى من الجذور، ويجرنى من الذوائب.

لن أروغ من الحقيقة. إن هذه الرغبة الجارفة كانت تجذبنى نهاراً وليلا، وكان ذلك التخريب لنفسى يبدو مغريًا مهلك الإغراء. كم كان يبدو مخجلا ومروعًا، وحلواً على الرغم من ذلك! ثم كان هناك تطلعى المستبد كأنه لا يقف عند حد. ذلك الرجل الذى لا أعلم عنه إلا القليل، الذى

لايمكن أبداً أن يكون خالصًا لى، الذى يفور شبابه بمائة شعلة من اللهب... آه، أى سر فى عواطفه الجياشة العريضة الصاخبة!

بدأت بشعور بالعبادة، ولكن ذلك سرعان ماذهب. حتى إننى لم أعد أحترم سنديب، بل بدأت أحتقره. ولكن قيثارتى هذه المصنوعة من لحم ودم، والمشكلة بوجدانى وخيالى، وجدت فيه عازفها البارع. ومع أننى كنت أنفر من لمسه، بل أصبحت أكره القيثارة نفسها ، فقد ظلت أنغامها تستثار.

يجب أن أعترف بأنه كان فىّ شىء ... ماذا أقول؟ ... شىء يجعلنى أتمنى لو استطعت أن أموت!

إن تشاندرانات بابو يجيئنى حين يتسع وقته لذلك. وله من القوة مايرفع نفسى إلى قمة أستطيع منها أن أبصر حدود حياتى فى لحظة واحدة، وقد امتدت من كل جانب، فأدرك أن الخطوط التى حسبتها حدوداً لم تكن إلا أوهاماً.

ولكن مافائدة ذلك كله؟ هل أرغب فى التحرير حقًا ؟ لكأنى أدعو: ليأت الشقاء إلى بيتنا؟ لينكمش أفضل مافىّ ويسودّ، على ألا تتركنى هذه الفتنة.

عندما كنت أرى سلفًا لى قبل زواجى – وقد مات الآن – مخموراً يضرب زوجته بجنون ثم يبكى ويجأر فى ندم السكارى، مقسماً ألا يمس

الشراب ثانية، ولكنه يجلس فى ليلة ليعب الخمر عبًا - كانت نفسى تمتلئ تقززًا. بيد أن نشوتى اليوم أفظع، والخمر لاتشترى ولا تسكب، بل تنبع من عروقى ولا أستطيع لها صمودا.

هل يجب أن يستمر هذا إلى آخر أيامى؟ إننى أنتبه مرة بعد مرة وأنظر إلى نفسى، وأفكر أن حياتى كابوس سيختفى فجأة بكل ما فيه من مجافاة للحقيقة. لقد أصبحت متناقضة تناقضًا مخيفًا، لا ارتباط لها بماضيها. أما ماذا تكون، وكيف صارت إلى هذا المأزق؟! فذلك مالا أستطيع أن أفهمه.

ذات يوم قالت سلفتى بضحكة لاذعة. يا ما أكرم تشوتا رانى التى عندنا! إن ضيفها لا يريد أن يتزحزح. فى أيامنا كان هناك ضيوف أيضًا، ولكنهم كانوا لايجدون مثل هذا السخاء، فقد كنا - يالحمقنا! - مشغولات بأزواجنا، إن أخى المسكين نيكهيل يغرم ثمن ميوله العصرية المسرفة. كان يحب أن يأتى ضيفًا إن كان يريد البقاء، أما الآن فالظاهر أنه قد آن الأوان ليرحل ... أيتها الشيطانة الصغيرة! ألا تخزين مرة حين تقع عيناك على وجهه المعذب؟

لم تنل منى هذه السخرية، لعلمى أن هؤلاء النسوة لا يملكن القدرة على فهم كنه عبادتى. وكنت وقتئذ فى درع واق من نشوة التضحية، لا تستطيع مثل هذه السهام أن تنفذ منه لتخجلنى.

(٨)

انتهى كل كلام عن قضية البلاد منذ بعض الوقت، وأصبح حديثنا فى هذه الأيام حافلا بمشكلات الجنس العصرية، وشتى أمور أخرى مع شىء من الشعر فيه الفياشنا فى القديم والإنجليزى الحديث، يتخلله لحن خفى أجش الطبقة لم أسمع مثله فى حياتى من قبل، وكأنه يصور نغمة الرجولة الحقة نغمة السلطان.

لقد جاء اليوم الذى انكشف فيه كل غطاء، ولم يبق سبب ولا تعلة لبقاء سنديب، أو انفرادى وإياه فى الحديث كل حين. وشعرت بالسخط الشديد على نفسى وعلى سلفتى وعلى أحوال الدنيا، وآليت ألا أذهب إلى الجناح الخارجى أبداً، ولو كان فى ذلك موتى.

وأمضيت يومين كاملين دون أن أغادر مكانى. ثم تبينت للمرة الأولى إلى أى مدى أبعدت فى السير. فقد شعرت أن حياتى لا طعم لها. كنت كلما لمست شيئًا أود أن أطرحه بعيداً، وكنت أشعر بأنى أنتظر – من قمة رأسى إلى أطراف أصابعى – شيئًا ما، إنسانًا ما، ودمى لاينى ينبض بالتوقع.

حاولت أن أشغل نفسى بعمل زائد. كانت أرضية غرفة النوم نظيفة، ولكنى أصررت على أن تغسل ثانية أمام عينى. وكانت الأشياء مرتبة فى الخزائن بنظام معين، فأخرجتها جميعًا وأعدت ترتيبها بنظام آخر. ولم أجد وقتًا عصر ذلك اليوم حتى لتمشيط شعرى، فعقدته دون

أن أضفره، ورحت أزعج الجميع، وأثير المشكلات حول حجرة الخزين. وبدا أن ثمة نقصًا فى المخزن، وأن السرقة لابد كانت جارية على قدم وساق، ولكنى لم أستطع أن أستجمع الشجاعة لمحاسبة شخص معين، فقد كان يمكن أن تخطر هذه الفكرة فى عقل إنسان ما: « وأين كانت عيناك طوال هذه الأيام!».

خلاصة القول : إنى تصرفت كالمجنونة فى ذلك اليوم. وفى اليوم التالى حاولت أن أقرأ. ولست أدرى ماذا قرأت، ولكنى شعرت بعد نوبة من الذهول أنى شردت. والكتاب فى يدى، عابرة الدهليز المؤدى إلى الجناح الخارجى، وأصبحت واقفة إلى جانب نافذة تطل على الشرفة الملاصقة لصف الحجرات على الجانب المقابل من المستطيل، وشعرت أن واحدة من هذه الحجرات قد عبرت إلى شاطئ آخر، وقارب التعدية لم يعد يعمل. وشعرت أنى شبحٌ لنفسى التى كنتها قبل يومين، مقضىٌ على أن أظل حيث أنا ولست هناك فى الحقيقة، ناظرة أبدًا إلى بعيد نظرة فارغة.

وفيما أنا واقفة هناك رأيت سنديب يخرج من حجرته إلى الشرفة وفى يده صحيفة. واستطعت أن أرى على سيماه قلقًا غير عادى وكأنما كان الفناء والحاجز الحديدى أمامه يثيران غضبه، فألقى الصحيفة بعيدًا فى حركة كأنها تريد أن تمزق الفضاء أمامه.

وشعرت أنى لم أعد أستطيع البر بقسمى. وكنت موشكة أن أمضى نحو حجرة الجلوس حين وجدت سلفتى خلفى. صاحت وهى

تدلف مبتعدة : «رباه! لم يبق إلا هذا! » ولم أستطع أن أتقدم إلى الجناح الخارجي.

وعندما جاءت وصيفتي تنادي في الصباح التالي : « ياأمنا الراني، لقد حان الوقت لإخراج المئونة » ألقيت إليها بالمفاتيح قائلة قولي لها : « ريماتي تتولى الأمر» ، ومضيت أعمل في قطعة من التطريز إنجليزية الرسم كنت متشاغلة بها، وأنا جالسة قرب النافذة.

ثم جاء خادمٌ برسالة. قال : من «سنديب بابو» . ياللجسارة ! ماذا عسى أن يظن الرسول ؟ كانت في صدرى رعشة وأنا أفض الغلاف. لم يكن على الرسالة عنوان، ولم يكن فيها إلا هذه الكلمات : « أمر عاجل - يتعلق بالقضية . سنديب.».

ألقيت بالتطريز جانبًا، وفي لحظة كنت على قدمي، أسوى شعرى في المرآة بلمسة أو لمستين . وأبقيت « الساري » الذى كان عليّ، ولم أغير إلا مئزري - فقد كان لأحد مآزري ذكريات.

وكان طريقي على شرفة تعوَّدت سلفتي أن تجلس فيها صباحًا تشقق جوز «التنبول»[1] فلم أتهيّب، وصاحتْ : إلى أين ياتشوتا راني؛

- إلى حجرة الجلوس في الخارج.

- في هذا الوقت المبكر؟ «ماتينيه»؟ هه؟

وبينما كنت أمر دون أن أرد ثانية، دندنت من ورائي بأغنية خليعة.

---

(١) نوع من الأفاويه. (المترجم).

(٩)

بينما كنت مقبلة على حجرة الجلوس رأيت سنديب عاكفًا على دليل مصور للوحات الأكاديمية البريطانية، وظهره إلى الباب، وكان يعد نفسه خبيرًا في أمور الفن.

وذات يوم، قال له زوجي: « إذا احتاج الفنانون إلى معلم فلن يعوزهم وأنت موجود». ولم يكن من عادة زوجي أن يسخر، ولكنه تغير في الأيام الأخيرة، ولم يعد يتجاوز لسنديب عن شيء.

ورد سنديب: ما الذي يجعلك تظن أن الفنانين غير محتاجين إلى معلمين ؟

فأجاب زوجي: الفن خلق. فينبغي أن نقنع شاكرين بتلقي دروسنا عن الفن من عمل الفنانين.

فضحك سنديب من هذا التواضع قائلا: أنت تحسب الخشوع رأس مال يزيد ثروتك كلما استعملته. ويقيني أن من تعوزهم الكبرياء يطفون كأعشاب الماء التي لا جذور لها في الأرض.

وكانت نفسي تحفل بالمتناقضات حين يتكلمان على هذا النحو. فأنا شديدة الرغبة في أن يفوز زوجي في المناقشة وتستخزي كبرياء سنديب، ولكن كبرياء سنديب هي التي تجتذبني مع ذلك أيما اجتذاب. كانت تنير كماسة ثمينة لا تعرف الخجل، بل تتألق في وجه الشمس نفسها.

دخلتُ الحجرة. وكنت أعلم أن سنديب يستطيع أن يسمع وقع خطاى وأنا أتقدم، ولكنه تظاهر بأنه لم يسمع، وأبقى عينيه على الكتاب.

وكنت أخاف أحاديثه عن الفن. لأنى لا أستطيع التغلب على حساسيتى نحو الصور التى يتحدث عنها، والأشياء التى يقولها، وكان يشق علىّ أن أتكلف الجمود لأخفى ألمى. لهذا كنت موشكة أن أعود أدراجى حين رفع سنديب عينيه وهو يزفر زفرة عميقة، وتظاهر بالدهشة لرؤيتى وقال : آه لقد جئت!

كان فى كلماته ونبرته وعينيه عالم من اللوم المكتوم، وكأن حقوقه التى اكتسبها على جعلت غيابى- ولو يومين أو ثلاثة - ظلمًا بليغًا.

وعرفت أن فى هذا المسلك إهانة لى، ولكنى - ويالالأسف! - لم أجد القوة لأستنكره.

لم أجب ، ولكنى وإن نظرت إلى جهة أخرى لم أستطع أن أفر من الشعور بأن نظرة سنديب الشاكية لاتبرح وجهى، ولن تقبل حرمانًا. وتمنيت لو يقول شيئًا ما، حتى أستطيع الإحتماء خلف كلماته. ولست أدرى كم استمر ذلك، ولكنى أخيرًا لم أطق احتماله، فسألت: ما هذا الأمر الذى تريد أن تحدثنى عنه؟

وتظاهر سنديب بالدهشة مرة أخرى وهو يقول: أمن اللازم أن يكون هناك دائمًا أمرٌ ما؟ هل الصداقة بذاتها جريمة؟ أوه ياملكتى!

كيف تستخفين بأعظم ما على الأرض! هل تطرد عبادة القلب وكأنها كلب ضال؟

ومرة أخرى شعرت بتلك الرعشة في باطني. كان في استطاعتي أن أحس باقتراب الأزمة، ملحة بحيث يمكن إرجاؤها. تتازع السيادة! فرح وخوف. سألت نفسي هل تستطيع كتفاى ! احتمال صدمتها، أم تتركني طريحة ووجهي في التراب؟

كان جسمي كله يرتعد. وتماسكت بجهد وكررت: لقد دعوتني لأمر يتعلق بالقضية، فتركت واجبات بيتي لأنظر فيه.

قال بضحكة جافة: هذا ما كنت أحاول شرحه. ألا تعلمين أني أجيء لأعبد؟ ألم أخبرك أني أتمثل فيك روح بلادنا؟ إن جغرافية بلد ما ليست كل الحقيقة؛ لا أحد يمكنه أن يهب حياته لخريطة ! عندما أراك أمامي، هنالك فقط أدرك كم أن بلادي جميلة. عندما تمسحينني بيديك سوف أعلم أن بلادي باركتني، فإذا سقطت في الصراع وهذه البركة في قلبي فلن يتلقاني تراب أرض تصورها الخرائط. بل ثوب نسائي منشور بحب. أتعلمين أي ثوب؟ كذلك الساري الداكن الحمرة الذي كنت تلبسينه بالأمس، ذي الحاشية الحمراء بلون الدم. هل أستطيع نسيانه أبدًا؟ مثل هذه الرؤى تمنح الحياة قوة، والموت فرحًا!.

اشتعلت عينا سنديب وهو يتكلم ، ولكننى لم أر أكانت نار العبادة أم نار الانفعال. وتذكرت يوم سمعته يتكلم لأول مرة فلم أستطع أن أحكم أشخص هو أم شعلة حية.

لم أجد القوة لأنطق بكلمة واحدة. إنك لاتستطيع أن تحتمى بأسوار الاحتشام حين تثب النار فى لحظة لتدمر كل خزائن البخيل بلمعان سيفها وزئير ضحكها. وخفت أن ينسى نفسه ويمسك يدى، فقد كان يهتز كلسان مرتعش من نار، وعيناه تمطراننى بشواظ محرق.

صاح بعد وقفة: أعازمة أنت أبداً أن تتخذى واجبات بيتك التافهة آلهة، وأنت التى فى يدك أن تبعثينا إلى الحياة أو إلى الموت؟ هل يجب أن تحجب قوتك هذه فى «زينانا» ؟ أضرع إليك أن تطرحى كل ادعاء للخجل بعيداً ، وتهزئى بالهمس "الذى يحيط بنا وتقتحمى اليوم حرية العالم الخارجى.

عندما تمتزج فى دعوات سنديب عبادته للوطن بعبادته لى – هنالك يرقص دمى حقا، وتترنح أسوار ترددى. إن أحاديثه عن الفن والجنس وتمييزه بين الواقع والزيف، لم تكن إلا أقذاء منعت – بقبحها الكريه – ماهممت به من الاستجابة. ولكن هذه العبادة تشتعل الآن مرة أخرى بوهج يذوب أمامه اشمئزازى. شعرت أن طبيعتى النسائية المتألقة

تجعلنى إلهة حقًا. فلماذا لايشرق مجدها من جبينى بلألاء تجتليه العيون؟ لماذا لا يجد صوتى كلمة، صيحة مسموعة، تكون رقية مقدسة لبلادى وهى تقتحم نار التطهير؟

فجأة! اندفعت وصيفتى «خيما» إلى الحجرة مشعثة صائحة: أعطينى أجرتى ودعينى أذهب . أبدًا فى حياتى مارأيت ...

وغرق باقى كلامها فى الدموع.

– ماذا جرى؟

فظهر أن «ثاكو» وصيفة البارارانى قد سبتها سبًا قبيحًا بدون سبب. وعبثًا حاولت تهدئتها بقولى: إنى سأنظر فى الأمر فيما بعد.

لقد طفا وحل الحياة البيتية الراقد تحت شط اللوتس، وكان لا بد أن أسرع داخلة حتى لا يطيل سنديب النظر إليه.

(١٠)

كانت سلفتى عاكفة على جوزها، يحوم حول شفتيها شبح ابتسامة، وكأن شيئًا لم يكن. وكانت لا تزال تدندن نفس الأغنية: فانفجرتُ صائحة: لماذا شتمت خادمتك ثاكو خيما المسكينة؟

– حقًا؛ الملعونة! سأجعلهم يكنسونها من المنزل بمكنسة. ياللخجل؟ تفسد عليك زيارتك الصباحية هكذا؟ وخيما؟ أين أدب هذه البنت حين تذهب وتزعجك وأنت مشغولة؟ على كل حال لا تشغلى نفسك بمشاجرات الخدم ياتشوتا رانى، دعيها لى، وعودى إلى صديقك.

ما أسرع ماتتحول الرياح فى قلوع عقولنا! لقد بدا خروجى لمقابلة سنديب فى ضوء قانون «الزينانا» أمرًا شاذًا خارقًا للعادة، حتى إننى ذهبت إلى حجرتى وأنا لا أدرى بماذا أجيب. وأدركت أن سلفتى هى التى دبرت الأمر، وحرضت خادمتها لتثير هذه المشاجرة، ولكننى كنت فى حالة من الاضطراب لم أجرؤ معها على الرد.

أجل، لقد تبينت منذ أيام قليلة أنى لا أستطيع المضى إلى النهاية فى كبريائى العنيدة حين طلبت من زوجى أن يفصل الرجل نانكو. وشعرت بالخجل فجأة حين جاءت البارا رانى وقالت : « إننى أنا المخطئة ياأخى العزيز. نحن ناس من النوع القديم وأحوال صديقك سنديب بابو لم تعجبنى ، فأمرت الحارس ... ولكن من أين أعلم أن

تشـوتا رانـى سـتـعـد هذا إهانـة – كنت أظن العكس! هـى بلاهتى التى لايمكن إصلاحها!».

إن الشىء الذى يبدو مجيداً مجيداً حين ينظر إليه من قمم القضية الوطنية ، يبدو موحلا حين ينظر إليه من القاع . فى أول الأمر نغضب وبعد ذلك نشمئز .

حبست نفسى فى حجرتى، وجلست إلى النافذة أفكر كم تغدو الحياة سهلة لو استطاع الإنسان أن يعيش فى تناغم مع ما يحيط به. بأى يسر تجلس الرانى الكبرى فى شرفتها مع جوزها، وكم أصبح مقعدى الطبيعى بجانب واجباتى اليومية عسيراً على! وسألت نفسى: إلام ينتهى كل هذا، هل أفيق يوماً وأنسى كل شىء، كما لو كنت فى بحران؛ أم أسحب إلى أعماق لانجاة منها فى هذه الحياة؟ وأنى استطعت أن أضيع طالعى الحسن، وأفسد حياتى هذا الفساد؟ إن كل حائط فى مخدعى هذا الذى دخلته عروساً منذ تسع سنين يحدق فى مذعوراً.

عندما عاد زوجى إلى البيت بعد امتحان الماجستير أحضر لى شجرة «الأوركيد» هذه التى تنتسب إلى بلد بعيد وراء البحار. ومن تحت هذه الأوراق الصغيرة القليلة نبع شلال من الزهر كأنما كان يصب من كأس جمال مقلوبة، وقررنا معا أن نعلقها هنا فوق هذه النافذة. إنها لم تزهر غير تلك المرة، ولكننا ظللنا نأمل أن تزهر مرة أخرى. والعجيب

أنى واظبت على سقيها فى هذه الأيام بحكم العادة وأنها لاتزال خضراء. مضت أربع سنوات منذ صنعت إطاراً من العاج لصورة زوجى ووضعته فى تلك الفجوة. إذا حانت منى نظرة إلى تلك الناحية فلا بد أن أنكس عينى. حتى الأسبوع الماضى كنت أضع هناك زهور عبادتى دائما كل صباح بعد الحمام، وكثيراً ماوبخنى زوجى على هذا، ويوماً قال لى: إنى أخجل إذ أراك ترفعيننى إلى مكان لا أستحقه.

– هذا غير صحيح.

– لست خجلا فقط، بل أنا أيضاً غيران!

– ماذا تقول؟ وممن تراك غيران؟

– من هذه الصورة الكاذبة لى. إنها لاتدل إلا على أنى أتفه مما ينبغى لك، وأنك تريدين رجلا خارقًا يستحوذ عليك بسطوته، ولهذا لابد لك أن تلجئى إلى اصطناع صورة أخرى منى:

قلت : مثل هذا الكلام يغضبنى.

فأجاب : ولماذا تغضبين منى؟ لومى نصيبك الذى لم يدع لك خياراً، بل جعلك تأخذيننى مغمضة العينين. فهذا مايجعلك تدأبين على إصلاح غلطته بأن تصنعى منى مثالاً للكمال.

وساءتنى هذه الفكرة وحدها حتى أن الدموع جالت فى عينى ذلك اليوم. وكلما فكرت فى ذلك الآن لم أستطع أن أرفع عينى إلى الفجوة.

فثمة الآن صورة أخرى فى صندوق حليى. منذ أيام كنت أرتب حجرة الجلوس فأخذت ذلك الإطار المزدوج الذى يضم صورة سنديب وصورة زوجى. إننى لا أقدم لهذه الصورة زهور العبادة ولكنها تبقى مخبوءة تحت جواهرى، ولها مزيد من السحر لأنها تبقى سراً. إننى أنظر إليها بين الحين والحين والأبواب مغلقة. وبالليل أضىء المصباح، وأجلس وهى فى يدى أنظر وأنظر، وكل ليلة أفكر أن أحرقها فى شعلة المصباح لأخلص منها إلى الأبد، ولكنى كل ليلة أتنهد وأكتمها ثانية بين لآلئى وماساتى.

يالك من امرأة تعيسة! أى ثروة من الحب لفت حول كل واحدة من هذه الجواهر! أوه، لماذا لا أموت؟

لقد أوحى إلى سنديب أن التردد ليس من طبيعة المرأة. ليس لليمين ولا للشمال وجود عندها. فهى إنما تتحرك إلى الأمام. وكان يكرر ويلح أن نساء بلادنا متى استيقظن؛ فسوف يكون صوتهن ثابتًا واثقًا إذ يصيح. «أريد».

ومضى سنديب يقول ذات يوم : « أريد! » هذه كانت الكلمة الأولى عند بدء الخليقة. لم يكن لديها حكمة تسترشد بها. ولكنها أصبحت ناراً وصنعت من نفسها شموساً ونجوماً. إنها مخيفة إذ تحابى فلرغبتها فى الإنسان لم تبال أن ضحت بملايين الوحوش ملايين السنين لتحقق تلك الرغبة. هذه الكلمة المخيفة «أريد» قد تجسمت فى المرأة؛ ولهذا يحاول

الرجال الجبناء بكل قوتهم أن يحجزوا هذا الفيضان الأبدى بسدودهم الطينية، فهم يخافون أن يكسح فى طريقه الضاحك الراقص كل سياج وعماد فى حقل القرع الذى زرعوه. يقول رجال كل عصر لأنفسهم راضين. إنهم قد كبحوا هذه القوة داخل حدود منافعهم ولكنها تتجمع وتنمو . إنها الآن ساكنة عميقة كالبحيرة، ولكن ضغطها سيزداد شيئًا فشيئًا، وستنهار السدود، وتندفع القوة التى ظلت خرساء هذا الأمد الطويل صائحة ، زائرة. « أريد! ».

إن كلمات سنديب هذه ليتردد صداها فى دقات قلبى كطبلة حرب إنها لتفحم كل صراعاتى مع نفسى. ماذا على مما يقوله الناس عنى؟ ماقيمة تلك الأوركيدة وتلك الفجوة فى مخدعى؛ أى سلطان لها حتى تحقّرنى وتزدرينى؟ إن نار الخلق الأبدية تشتعل فىَ.

شعرت برغبة عاتية فى أن أنتزع الأوركيدة وأرميها من النافذة، وأجرد الفجوة من صورتها، وأكشف عن روح التدمير الجسور التى هاجت فى باطنى. وارتفعت ذراعى لأفعل ذلك، ولكن شكة مفاجئة اخترقت صدرى، وجالت الدموع فى عينىّ ، فارتميت منتحبة: ما آخر كل هذا ؟ ما آخر كل هذا؟ ».

حكاية سنديب

(٤)

حين أقرأ هذه الصفحات من قصة حياتى أسأل نفسى جادا: أهذا سنديب؟ أمجبول أنا من كلمات؟ أما أنا غير كتاب له جلد من لحم ودم؟

إن الأرض ليست شيئًا ميتًا كالقمر. إنها تتنفس. أنهارها ومحيطاتها تبعث الأبخرة التى تكتسى بها. وعليها عباءة من غبارها الذى يطير فى الهواء. والناظر إلى الأرض من خارج لايمكنه أن يرى إلا النور الذى يعكسه هذا البخار وهذا الغبار فُجددُ القارات العظائم لاتبين.

والإنسان الحىّ كهذه الأرض مغلَّف مثلها أبدًا بضبابة الأفكار التى يتنفسها. فأرضه وماؤه الحقيقيان يبقيان محجوبين، ويبدو أنه لم يُصنع إلا من أضواء وظلال.

لكأننى فى قصة حياتى هذه كوكب حى، أبدى صورة عالم مثالى. ولكننى لست ما أريده وما أفكر فيه فحسب - بل أنا أيضًا مالا أحبه ولا

أريد أن أكونه. وقد بدأ خلقى قبل أن أولد ، ولم يكن لى خيار فيما يحيط بى، ولهذا يجب أن أحسن الانتفاع بما يقع فى يدى.

إن نظريتى فى الحياة تجعلنى على يقين أن العظيم قاس. أن تكون عادلا فذلك ما يصلح للرجال العاديين، أما العظماء فقد خصوا بالظلم. كان سطح الأرض مستويًا؛ فضربه البركان بقرنه النارى وبرز بروزه – لم يكن عادلا مع ما عاقه ولكنه كان عادلاً مع نفسه. والظلم الناجح والقسوة الأصلية هما القوتان الوحيدتان اللتان يصبح بفضلهما الفرد أو المجموع مليونيرا أو ملكًا.

لهذا أدعو إلى المبدأ العظيم، مبدأ الظلم. وأقول لكل أحد: الخلاص قائم على الظلم. الظلم هو النار التى يجب أن تكون دائمًا فى إحراق شىء حتى تنقذ نفسها من أن تصير رمادًا. وكلما عجز فرد أو أمة عن ارتكاب الظلم جرفًا إلى مزبلة العالم.

على أن هذه لاتزال فكرتى فقط. فهى ليست نفسى كاملة. وهناك شقوق فى الدرع يطل منها شىء شديد الطراوة، شديد الحساسية. لأن الجزء الأكبر من نفسى– كما قلت – مخلوق من قبل أن آتى إلى هذا الطور من أطوار الوجود.

إننى أختبر أتباعى، من حين إلى حين، فى درس القسوة الذى تعلموه، ذات يوم خرجنا فى رحلة. وكانت ثمة عنزة ترعى. فسألتهم: من منكم يقدر أن يقطع ساقًا من هذه العنزة وهى حية بهذا

السكين ويحضرها إليّ ، ولما ترددوا جميعاً ذهبت أنا وفعلت ذلك فغشى على أحدهم ، ولكنهم حين رأونى لم أتأثر مسحوا التراب عن قدمى قائلين: إننى فوق كل ضعف بشرى، ومعنى ذلك أنهم رأوا فى ذلك اليوم غلاف البخار الذى هو فكرتى، ولكنهم لم يستطيعوا أن يلمحوا نفسى الباطنة، التى شاءت نزوة غريبة من نزوات القدر أن تخلق رقيقة رحيمة.

هناك أيضًا أشياء كثيرة لاتزال ترقد مختفية فى هذا الفصل الحاضر من قصة حياتى، حيث يزداد الاهتمام كل يوم ببيمالا ونيكهيل. إن مرض الأفكار الذى أعانيه يُشَكل حياتى الباطنة، غير أن قسمًا كبيراً من حياتى لايزال خارجًا عن تأثيرها: ولذلك يقوم نوع من التنافر بين حياتى الخارجية وشكلها الداخلى الذى أحاول جهدى أن أبقيه مختفيًا عن نفسى، حتى لايحطم خططى بل حياتى نفسها.

إن الحياة غير محدودة - إنها حزمة من المتناقضات. ونحن البشر نجاهد بأفكارنا لنعطيها شكلاً معينًا بأن نصهرها فى قالب معين، هو قالب النجاح المحدود. فكل غزاة العالم من الإسكندر إلى أصحاب الملايين الأمريكيين يَطبْعون من أنفسهم سيفًا أو داراً لسك النقود، وبذلك يجدون تلك الصورة الواضحة من أنفسهم، التى هى مصدر نجاحهم.

والخلاف الرئيسي بيني وبين نيكهيل ينبع من هذا: أنه وإن قلت « اعرف نفسك » كما يقول نيكهيل « اعرف نفسك »، فتفسيره يجعل هذه « المعرفة » مساوية « لعدم المعرفة ».

اعترض عليّ نيكهيل مرة قائلا : إن كسب النجاح الذى تريده لنجاحٌ تغرم الروح ثمنه. ولكن الروح أعظم من النجاح.

فلم أزد فى جوابه على أن قلت : إن كلماتك مسرفة الغموض.

فأجاب نيكهيل: لاحيلة لى فى ذلك. إن الآلة واضحة، ولا كذلك الحياة . إن أردت أن تعرف الحياة على أنها آلة لتنال الوضوح؛ فمثل هذا الوضوح المجرد لايقوم مقام الحقيقة. إن الروح ليست واضحة كوضوح النجاح، ولذلك فأنت لاتزيد على أن تخسر روحك حتى تلتمسها فى نجاحك.

- وأين إذاً هذه الروح العجيبة ؟

- حيث تعرف نفسها فى اللا محدود، وتسمو فوق نجاحها.

- ولكن ماعلاقة هذا كله بعملنا من أجل البلاد؟

- إن الأمر واحد. حيث نجعل بلادنا نفسها هى الغرض النهائى نكسب النجاح على حساب الروح. وحيث تعترف بالأكبر على أنه أكبر من كل شيء فهناك قد لا تصيب النجاح ولكنها تكسب روحها.

- أفى التاريخ مثل على هذا؟

- إن عظمة الإنسان تجعل فى مقدوره أن يزدرى لا التاريخ وحده بل المثل أيضًا. لعل المثل غير موجود كما أنه لامثل للزهرة الكامنة فى البذرة. ولكن اندفاع الزهرة قائم فى البذرة على كل حال.

ليست القضية أنى لاأستطيع أن أفهم وجهة نظر نيكهيل فهمًا مّا:

بل إن الخطر يكمن هنا. لقد ولدتُ فى الهند، وإن سم روحانيتها ليجرى فى دمى؛ ومهما أرفع صوتى معلنًا جنون السير فى طريق إنكار الذات فإنى لا أستطيع أن أبتعد عنه كل الابتعاد.

هكذا تحدث مثل تلك الشواذ الغريبة فى بلادنا اليوم، يجب أن يكون لنا ديننا ووطنيتنا فى الوقت نفسه. « بهاجا فادجيتا» و«باندى ماترم». والنتيجة هى الضرر لكليهما. كما تعزف فرقة موسيقى عسكرية إنجليزية بجانب أنابيبنا الهندية. يجب أن أجعل غرض حياتى هو القضاء على هذا الخلط الفظيع.

أريد أن يسود الطراز العسكرى الغربى لا الطراز الهندى. وإذن لا نخجل من راية انفعالنا التى أرسلتها معنا أمنا الطبيعة لتكون علمنا فى معركة الحياة. الانفعال جميل ونقى. نقى كالزنبقة التى تطلع فى الوحل. إنها تستعلى على أوضارها ولا تحتاج إلى صابون لتنظيفها.

(٥)

كان يقلقنى فى الأيام القليلة الماضية سؤال، لماذا أدع حياتى تتشابك مع حياة بيمالا؟ أخشبة تائهة أنا ليستوقفنى كل عائق؟

ليس الأمر أمر خجل زائف أن تكون بيمالا هدفًا لرغبتى. إنها تريدنى ولاخفاء بذلك، ولذا أعدها لى حقًا مشروعًا. إن الثمرة تتدلى لى غصن بجانب الجذع، ولكن ذلك لا يصلح سببا لأن يدعيها الجذع لنفسه أبدًا. ولن تبقى الثمرة الناضجة إلى الأبد تقسم بقبضة جذعها المتراخية. لقد تجمعت كل حلاوتها من أجلى، واستسلامها ليدى هو علة وجودها وكنه طبيعتها، وصريح خليقتها. وإذن فيجب أن أقطفها، لأنه لا يجدر بى أن أجعلها تذهب عبثًا.

على أن الذى يغيظنى هو أنى بدأت أتخبط. ألم أولد لأحكم؟ لأركب جوادى الحقيقى، الجماهير، وأسوقه كيف أريد، العنان فى يدى، والغاية معروفة لى وحدى، وله الشوك والوحل على الطريق؟ هذا الجواد ينتظرنى الآن عند الباب، يفحص بقدميه ويعلك لجامه، وصهيله يملأ السماء ولكن أين أنا، وبم أشتغل، تاركًا الفرصة الذهبية تمر يومًا بعد يوم؟

كنت أفكر أنى أشبه عاصفة ، وأن الزهور الممزقة التى نثرتها على طريقى لن تعوق تقدمى. ولكننى لا أنفك أدور حول زهرة واحدة كأنى نحلة لا عاصفة . إذن فلون الأفكار الذى يعطيه المرء لنفسه ليس إلا شيئًا ظاهريًا كما قلت من قبل. والإنسان الجوانى يظل عاديًا كشأنه

أبداً. ولو جاء إنسان ليكتب سيرتى، وعرف دخيلة نفسى، لجعلنى لا أختلف عن ذلك الأحمق بانشو، بل ولا عن نيكهيل.

كنت فى الليلة البارحة أقلب صفحات يومياتى القديمة ... إننى حديث عهد بالتخرج . رأسى يوشك أن ينفجر من الفلسفة. وحتى فى ذلك العهد المبكر كنت قد آليت على نفسى ألا أستسلم لوهم من الأوهام، سواء أكان من صنعى أم من صنع غيرى، بل أبنى حياتى على أساس مكين من الواقع. ولكن ماذا كانت قصتها الحقيقية من بعد؟ أين بناؤها المكين؟ لقد كانت أقرب إلى شبكة، إن اتصلت خيوطهما فمعظم مساحتها ثقوب. ومهما أحارب فلن تعرف هذه بالهزيمة . هأنذا قد وقعت فى شرك ثقب بينما كنت أهيىء نفسى بأن أسير مستقيما على الخيط! لقد أصبحت عرضة لتأنيب الضمير.

« أنا أريد هذا الشىء، وهو هنا، فلآخذه ». إن هذه سياسة صريحة محددة، من يتبعها بهمة؛ فلابد أن يكسب أخيراً. ولكن الآلهة لا يريدون أن تكون مثل هذه الرحلة سهلة، ولذلك أوقدوا حورية البحر « الشفقة » لتضل المسافر ، لتغشى بصره بضبابها الباكى.

لا يغيب عنى أن بيمالا تصارع كظبية فى الحبائل. أى خوف يستدر العطف فى عينيها! وكم يمزقها الجهد إذ تحاول التخلص من قيودها! نعم. إن هذا المنظر ينبغى أن يسر قلب الصياد الحقيقى؛ وإنى لمسرور ، ولكنى أشعر بالإشفاق أيضاً، ولهذا أضيع الوقت، وأقف على الحافة متردداً فى أن أجذب الأنشوطة لتزداد إطباقاً.

أعلم أن لحظات مرت كان يمكنني فيها أن أهجم عليها وأمسك يديها وأضمها إلى صدرى دون أن تقاوم. ولو فعلت ذلك لما قالت كلمة واحدة . فقد كانت تعلم أن ثمة أزمة تقترب لتغير معنى العالم كله فى لحظة . وكان وجهها يشحب وعيناها تومضان بنشوة مخيفة وهى واقفة أمام ذلك الكهف، كهف المجهول الذى لايمكن تقديره وإن كان منتظراً . حين تجىء تلك اللحظة يتشكل فيها أبد، ينتظر مصيرنا ممسكًا أنفاسه.

ولكننى تركت تلك اللحظة تمر، لم أحول، بقوة نافذة ، مايوشك أن يكون يقينًا إلى قضاء مبرم، وإنى لا أرى الآن فى وضوح أن ثمة عناصر خفية فى طبيعتى قد احتشدت جهرة لتعوق طريقى.

هكذا لقى «رافانا» حتفه، وهو فى نظرى البطل الحقيقى «للرامايانا»، فقد استبقى «سيتا» فى جنة أسوكا منتظراً آية رضاها ولم يأخذها على الفور إلى حريمه. إن هذا المغمز الوحيد فى شخصيته العظيمة يجعل قصة الاختطاف كلها عبثًا . ومثل هذا التورع جعله يغمض عن أخيه الخائن بيبهب يسان، ويظهر الرأفة به، ليجد نفسه مقتولا جزاء له على مجهوده.

وهكذا تأتى المأساة فى الحياة من تلقاء نفسها . فى أول الأمر ترقد كالشىء الصغير فى قبو مظلم، وفى آخر الأمر تهدم البناء كله . إن المأساة الحقيقية هى أن الإنسان لايعرف نفسه على حقيقتها.

(٦)

ثم هناك نيكهيل، فمهما يكن من بلاهته ومهما أسخر منه فإني لا أستطيع التخلص من فكرة أنه صديقي. وقد كنت لا أبالي بوجهة نظره في أول الأمر ولكنها بدأت تخجلني وتؤذيني أخيراً . لهذا أحاول أن أكلمه وأناقشه بحماستي القديمة ولكنني لا أجد فيها رنة الصدق، بل إنها تقودني أحياناً إلى مدى من التكلف أتظاهر معه بأني أوافقه . ولكن مثل هذا التكلف ليس في طبيعتي ولا في طبيعة نيكهيل. فبيننا اشتراك في هذه الناحية على الأقل، ولذلك أصبحت أفضل - في هذه الأيام - ألا ألتقي به، وتعودت أن أتجنب محضره.

وهذه كلها آيات ضعف، فإنك لاتكاد تسلم بإمكان الخطأ حتى يصبح قائماً ويمسك بتلابيبك مهما تحاول أن تنفض عنك كل إيمان به. والشيء الذي أتمنى لو أستطيع قوله لنيكهيل في صراحة هو أن مثل هذه الحوادث يجب أن تواجه دون مواربة - على أنها أمور واقعية عظيمة - وأن ماهو حق ينبغي ألا يسمح له بأن يقف بين صديقين.

لاريب أني قد ضعفت. ولم يكن هذا الضعف هو الذي استمال بيمالا. لقد أحرقت جناحيها في لهب عنفوان رجولتي التي لا تتردد . وكلما حجب الدخان وهجها اضطربت هي وتراجعت. ثم يأتي انقلاب تام في الشعور حتى لتود لو تسترد العقد الذي طوقت به عنقي، ولكنها لاتستطيع ، فتكتفي بأن تغمض عينيها لكيلا تراه.

ولكننى يجب ألا أحيد عن الطريق الذى رسمته. لا يجوز أن أتخلى عن قضية البلاد أبداً، لاسيما في الوقت الحاضر. فلتكن بيمالا وبلادى شيئًا واحداً. إن الريح الغربية العاتية التى أزالت برقع الضمير عن بلادى ستزيل أيضاً برقع الزوجة عن وجه بيمالا، وأن يكون ثمة خجل فى ذلك الكشف . وستهتز السفينة وهى تحمل الجمع الكبير على المحيط رافعة راية « باندى ماترم » وستكون مهداً لقوتى وحبى جميعاً .

سترى بيمالا صورة للخلاص فيها من الجلال مايجعل قيودها تنزلق عنها بلا خجل ، بل دون أن تشعر بها. سيسحرها جمال هذه القوة المخربة المخيفة فلا تتردد لحظة فى أن تكون قاسية. لقد رأيت فى طبيعة بيمالا تلك القسوة التى هى القوة الكامنة فى الوجود، تلك القسوة التى تبقى على الحياة جمالها بمالها من قوة لاتلين.

لو حررت النساء من الأغلال المصنوعة التى وضعها الرجال حولهن لرأينا على الأرض الصورة الحية « لكالى » تلك الإلهة التى لا تخجل ولا ترحم. إنى من عبدة كالى، وسأتعبد لها حقاً فى يوم من الأيام واضعاً بيمالا على مذبح تخريبها. فلأ تأهب لذلك.

إن طريق التراجع مسدود أمام كلينا. سنتناهب ونتباغض ولكننا أبداً لن نعود أحراراً.

الفصل الخامس

حكاية نيكهيل

(٤)

كل شيء يرتكض ويتموج فى فيض آب. شطء الأرز له نضرة أطراف طفل رضيع، والماء قد غزا الحديقة المجاورة لمنزلنا، ونور الصباح يهراق على الأرض كأنه حب السماء الزرقاء، فلماذا لا أقدر أن أغنى؟ ماء النهر البعيد يرعش النور، وأوراق الأشجار تتلألأ، وحقول الأرز تنتابها رعدات فيندلع منها لمعان الذهب، وفى سمفونية الخريف هذه لايبقى صامتٌ إلا أنا. إن إشراق العالم يصيب قلبى ولكنه لاينعكس منه.

وحين أدرك عجزى عن الإفصاح أعلم سبب حرمانى. فمنذا الذى يستطيع أن يتحمل صحبتى ليل نهار بغير انقطاع؟ إن بيمالا منعمة بطاقة الحياة، ولهذا لم أجدها تافهة قط فى لحظة واحدة طوال هذه السنوات التسع من زواجنا. أما حياتى فليس لها إلا أعماقها الخرس ولكن دون همهمة الجريان. فى مقدورى أن أتلقى الحركة لا أن أبعثها،

ولهذا فإن صحبتى كالصوم. وإنى لأدرك اليوم فى وضوح أن بيمالا كانت تذوى لجوعها إلى الصحبة.

إذاً فمن ألوم؟ إننى مثل فديا باتى لا أستطيع إلا أن أندب:

« آبُ آتي والسماء تنهلُ،

واحسرتاه ! منزلى خالى . »

وإنى لأرى أن منزلى قد بنى ليبقى خاليًا، فأبوابه لايمكن أن تفتح. ولكننى لم أعلم قط قبل اليوم أن معبودته كانت تجلس فى خارجه. لقد هدهدت اليقين بأنها قبلت قربانى، وكافأتنى بنعمتها . لكن واحسرتاه! إن منزلى كان خاليًا أبداً .

كان من عادتنا فى مثل هذا الوقت من كل عام أن نذهب فى عوامة إلى بحيرة ساملدا . وكنت أقول لبيمالا إنه لابد لكل أغنية من «مذهب» يتردد كل حين، والمذهب الأصيل لكل أغنية هو فى الطبيعة حيث تمر الريح المحملة بالمطر على النهر المرتكض، وتسبغ الأرض الخضراء قناعها المنمنم على وجهها لتصغى إلى حديث الماء. هناك فى مطلع الزمان التقى رجل وامرأة، لمن تحجبهما جدران. وهناك يجب أن نرجع نحن الاثنان إلى الطبيعة، على الأقل مرة كل عام، لنوقع حبنا من جديد على النغمة الصافية الأولى لالتقاء قلبين.

لقد قضيت العيدين الأولين لذكرى زواجنا فى كلكتا حيث كنت أؤدى امتحانى. ولكننا لم ننقطع طوال السنوات السبع التالية عن الاحتفال بقراننا بين زهور النيلوفر المتفتحة . والآن يبدأ المقطع التالى فى حياتى.

كان من العسير علىّ أن أتجاهل أن شهر آب نفسه قد عاد من جديد هذا العام. ترى هل تذكره بيمالا؟ إنها لم تذكرنى به. وكل شيء حولى صامت.

« آبُ آتى والسماء تنهلُّ،

واحسرتاه ! منزلى خالى . »

إن المنزل الذى خلا بافتراق الحبيبين تظل فى قلب فراغه موسيقى. ولكن المنزل الذى خلا لأن القلبين انقسما يكون مخيفًا فى صمته. حتى صرخة الألم لا مكان لهما هناك.

صرخة الألم هذه يجب أن أسكتها فىّ ، فلن تعرف بيمالا الحرية الحقيقية مابقيت أتعذب، ويجب أن أحررها تمامًا وإلا فلن أنال أنا حريتى من الزيف...

أحسبنى قد أوشكت أن أفهم شيئًا واحدًا؛ إن الإنسان قد أذكى شعلة الحب بين الرجال والنساء حتى جعلها تتجاوز مجالها الحق، وهو

الآن عاجز عن أن يعيدها إلى سيطرته ولو باسم الإنسانية نفسها. إن عبادة الإنسان قد جعلت من عاطفته صنمًا، ولكن يجب ألا نقدم قرابين إنسانية جديدة على مذبح ذلك الصنم ...

دخلت مخدعي هذا الصباح لأحضر كتابًا. ولم أكن قد دخلته بالنهار منذ زمن طويل، فسرت في وخزة ألم وأنا أجيل النظر فيه اليوم في ضوء الصبح. كان على رف الملابس « ساري » لبيمالا ، « مهيأ للبس » وعلى منضدة الزينة عطورها ومشطها ودبابيس شعرها، ومعها – لايزال صندوق الدهان القاني! وأسفل منها كوثها الصغير الموشى بالذهب.

وكنت في الأيام الخالية قد أحضرت هذا الكوث لبيمالا من لكنو لأغريها به حين لم تكن قد تغلبت بعد على كرهها للأحذية : وفي المرة الأولى كادت تهوى خجلا أن تخرج به ولو من الحجرة إلى الشرفة . وقد أبلت بعد ذلك أحذية كثيرة، ولكنها حافظت على هذا الزوج؛ وحين أريتها الكوث لأول مرة قلت لها مازحًا: « لقد ضبطتك تمسحين التراب عن قدمي وأنت تحسبينني نائمًا ! إليك قربان عبادتي ليمنع التراب قدمي معبودتي الساحرة ».

فقالت مستنكرة. : « يجب ألا تقول مثل هذا الكلام. وإلا فلن ألبس أحذيتك..! ».

إن مخدعي هذا له جو خفي ينفذ إلى قلبي. وماشعرت قط مثلما أشعر اليوم كيف يبعث قلبي الظامئ جذوره لتلتف حول كل قطعة مألوفة، وإني لأرى قطع الجذر الأصلي غير كاف لأن يطلق للحياة حريتها، فحتى هذاالكوث الصغير يشد المرء إلى الوراء.

وتقع عيناى السائحتان على الفجوة. صورتى هناك تنتظر كما كانت تنتظر دائمًا، وإن كانت الزهور المنثورة حولها قد ذبلت واسودت؛ أشعر بالصدق فى تحيتها وحدها دون سائر الأشياء التى فى الحجرة، إنها لم تبق هنا إلا إهمالا لأمر إزالتها. لا بأس، فلأرحب بالصدق وإن جاء فى هذا الرداء الكالح الكئيب، ولأتطلع إلى الوقت الذى أستطيع فيه أن أرحب ولا أهتز. كما ترحب صورتى.

بينما كنت واقفًا هناك جاءت بيمالا من خلفى. فحولت عينى من الكوة إلى الرفوف مسرعًا وأنا أتمتم . « جئت لأخذ يوميات آميل.» فيم التطوع بتفسير؟ لقد أحسست أنى مذنب واغل ، أتدسس إلى سر لايراد أن أطلع عليه. ولم أستطع أن أنظر إلى وجه بيمالا بل أسرعت خارجًا .

(٧)

كنت قد اكتشفت أن تظاهرى بالقراءة فى حجرتى الخارجية عبث وأنه فى غير مقدورى كذلك أن أشغل نفسى بشىء ما - وبدا أن أيامى المستقبلة كلها سوف تتجمد فى كتلة واحدة صلبة وترزح على صدرى إلى الأبد - عندما قدم إلى بانشو الذى يعمل مزارعًا عند أحد ملاك الأراضى القريبين .، ومعه سلة من جوز الهند، وحيانى بانحناءة عميقة فقلت : حسنًا يابانشو، لم كل هذا ؟

وكان أستاذى هو الذى عرفنى ببانشو. كان شديد الفقر، ولم أكن أستطيع له شيئًا، فحسبته أراد بهذه الهدية أن أمنحه ما يستعين به على الحياة، وأخرجت من كيسى شيئًا من النقود مددتها إليه ولكنه أطبق يديه مستنكرا : « لا أقدر أن آخذ هذه النقود ياسيدى!».

- كيف ؟ ما الأمر؟

- فلأصرح لك بالحق ياسيدى. مرة كنت فى ضائقة، فسرقت بعض ثمار الجوز من الحديقة هنا. إنى كبرت، وقد يأتينى الموت فى أى يوم، ولهذا جئت أردها.

لم أحظ بطائل من يوميات آميل فى ذلك اليوم، ولكن كلمات بانشو أنعشت قلبى. إن فى الحياة أشياء كثيرة غير اجتماع رجل وامرأة أو افتراقهما. فالعالم الكبير يمتد بعيداً وراء ذلك، ولا يستطيع المرء أن يقيس مسراته وأحزانه حقًا إلا حين يقف فى وسطه.

كان بانشو شديد الولاء لأستاذى. وإنى لأعلم كيف يكدح ليحصل على رزقه. إنه يستيقظ كل يوم قبل الفجر ويخوض فى مياه المستنقع التى تبلغ الركبتين حاملا سلة مليئة بأوراق «البان» وقطع التبغ وخيوط القطن الملونة والأمشاط والمرايا وسائر الطرف التى تحبها نساء القرى، ويذهب إلى أحياء «الناماسودرا»[١] حيث يقايض بضائعه بأرز فيحصل على مقدار أزيد قليلا من ثمنها نقوداً. وإذا أمكنه الرجوع مبكراً فإنه يخرج ثانية بعد أن يتناول وجبة سريعة ليذهب إلى بائع الحلوى، حيث يساعد فى دق السكر للكعك.

ولا يكاد يعود إلى داره حتى يجلس لصنع أساور الصدف. وربما استمر فى ذلك حتى منتصف الليل. وهو لا يكسب لنفسه وأسرته من كل هذا الجهد الشاق وجبتين فى اليوم إلا لمدة لا تكاد تتجاوز نصف العام. وطريقته فى الأكل أن يبدأ بشربة ماء كبيرة، وطعامه الأساسى هو أرخص أنواع الموز الهزيل، ومع ذلك فلابد للأسرة أن تكتفى وجبة واحدة فى اليوم بقية العام.

وفكرت مرة أن أجرى عليه راتبًا من الصدقات، فقال أستاذى: « إن هبتك قد تقضى على الرجل دون أن تقضى على شقاء حظه.

(١) طائفة من الطوائف الهندية : الدنيا، مساكنهم شرقى البنغال. (المترجم).

فأمنا البنغال ليس فيها بانشو واحد فقط، وإذا كان درها قد جف فإنه لا يمكن اجتلابه من الخارج».

هذه أفكار تستوقف المرء، وقد عزمت أن أعكف على درسها، فقلت لبيمالا فى ذلك اليوم نفسه: لنهب حياتينا لإزالة أسباب الشقاء فى بلادنا.

فأجابت باسمة، أرى أنك أميرى سيد هارتا[1]، ولكن لا تدع فيض مشاعرك يجرفنى معك.

– لقد نذر سيد هارتا نذره وحيداً، وأريد أن يكون ميثاقنا مشتركا.

وذابت الفكرة فى الحديث. والحق أن بيمالا هى فى صميمها «سيدة» كما يقولون، وإن يكن أهلها غير أثرياء فقد ولدت «رانى» ، وليس يخالجها شك فى أن هناك وحدة أدنى لقياس شدائد «الطبقات الدنيا» ومتاعبهم. فالحاجة ، ولاريب ، صفة ملازم لحياتهم، لكن لا يلزم أن يكون معناها «الحاجة» بالنسبة لهم. وإن فى صغرهم لحماية لهم، كما تحمى الشواطىء البركة، ولو اتسعت حدودها لما ظهر إلا الوحل.

---

(١) الاسم الذى عرف به بوذا وهو أمير قبل أن يتنسك (المترجم).

والأمر الثابت أن بيمالا إنما جاءت إلى بيتى لا إلى حياتى . وقد عظمتها وتركت لها مكانًا كبيرًا حتى إنى لما فقدتها أصبحت طريقة حياتى كلها ضيقة محصورة. لقد ألقيت كل الأشياء الأخرى فى ركن لأفسح المكان لبيمالا ، إذ كنت عليها عاكفًا أزينها وألبسها وأعلمها وأدور حولها ليل نهار ناسيًا أن البشرية عظيمة، عظيمة وحياة الإنسان ثمينة ثمينة.

وعندما تستولى وقائع الأشياء اليومية على الرجل يحتجب الحق وتضيع الحرية. وقد جعلت بيمالا للوقائع المجردة قيمة بلغ من ضررها أن الحق بقى محجوبًا عنى، ولهذا السبب لا أجد ثغرة فى شقائى، بل أبسط نقطة الخلو الصغيرة هذه على العالم كله، وتظل الكلمات تدندن فى أذنى ساعات فى هذا الصباح الخريفى :

« آبُ آتى والسماء تنهلُ،

واحسرتاه ! منزلى خالى. »

حكاية بيمالا

(١١)

كان التغير الذى طرأ على عقل البنغال فى لحظة تغيراً عظيماً. وكأن مياه الكنج لمست رفات أبناء «ساجار»[١] الستين ألفاً، التى لم تكن لتشعلها نار ولا ليحيلها ماء آخر إلى صلصال حى. وفجأة نطق رفات البنغال: « إنى هنا ».

لقد قرأت فى بعض الكتب أن مثالا فى بلاد الإغريق أتيح له أن يمنح الحياة لتمثال صنعته يداه. فى تلك المعجزة نفسها كان التشكيل سابقًا للحياة، ولكن أين كانت الوحدة فى تلك الكومة من الرماد العقيم؟ لو كانت صلدة كالحجارة لكان لنا أن نأمل فى شكل ما ينشأ منها، كما استردت «أهاليا» إنسانيتها بعد أن مسخت حجراً، ولكن هذا الرماد المتناثر قد تساقط ولاشك حين الخلق لتذروه الرياح هنا وهناك. وتكوم

---

(١) قضت اللعنة التى أحالتهم رماداً ؟ ألا يعودوا إلى الحياة إلا إذا أجرى إليهم نهر الكنج (المترجم).

ولم يتـوحـد قط من قـبل. لكن فـى هذا اليـوم الذى أتى على البنغـال اكتسبت تلك المجموعة المفككة شكلا، وأعلنت عند بـابنا بصوت قاصف: «إنى هنا».

كيف لانظن أن هذا كله كان خارقًا للطبيعة؟ لكأن هذه اللحظة من تاريخنا وقعت فى يدنا مثل جوهرة من السماء. لم تكن تشبه ماضينا فى شىء، فحسبنا أن كل فاقتنا وشقائنا سيختفيان بسحر ساحر، وأنه لم تبق بالنسبة لنا ثمة حدود بين الممكن والمستحيل. بدا أن كل شىء يقول لنا: « إنه آت ! لقد جاء! ».

وهكذا دخل فى روعنا أن تاريخنا لا يحتاج إلى جواد بل سيتحرك بقوته الداخلية كعربة السماء. على الأقل لن يلزمنا أن ندفع أجرًا لسائق العربة، فحسبنا أن نملأ كأسه بالنبيذ مرة بعد مرة، ثم نصل إلى هدف آمالنا فى جنة مستحيلة.

يــخل زوجــى من تأثر بذلك ، ولكن نغـمـة حـزنه هى التى ظلت تعمق وتعمق خلال حماستنا كلها. وكان يبدو أنه يرى شيئًا وراء الحاضر الفوار.

وأذكر أنه قال يومًا فى أثناء مناقشاته المستمرة مع سنديب: إن الحظ يأتى إلى بابنا ويعلن عن نفسه فيثبت عجزنا عن استقباله – إننا لم نهيىء ما عندنا لنكون قادرين على دعوته إلى منزلنا .

فكان جواب سنديب: كلا. إن حديثك حديث ملحد؛ لأنك لا تؤمن بآلهتنا. لنا قد تبين أن الآلهة جاءت بنعمتها، ولكنك تنكر آيات حضورها.

قال زوجى : لأنى قوى الإيمان بإلهى أعتقد أن استعدادنا لعبادته ناقص. الله قادر على الإنعام ولكننا يجب أن نكون قادرين على تلقى النعمة.

ماكان هذا الحديث من زوجى إلا ليضجرنى. فما تمالكت أن أدليت بقولى: إنك تحسب هذه الحماسة نار السكر فقط. أفلا يمنح بعض السكر قوة؟

فأجاب زوجى : نعم، قد يمنح قوة ولكنه لايعطى سلاحاً.

فمضيت قائلة : ولكن القوة منحة من الله، أما الأسلحة فيمكن أن تقدمها الميكانيكا وحدها.

وابتسم زوجى قائلا: ستطالب الميكانيكا بأجرها قبل أن تقدم بضاعتها.

ونفخ سنديب صدره وهو يرد : لا تشغل بالك بذلك. إن أجرها سيدفع.

فأجاب زوجى : سأعد موسيقي الفرح عند الدفع لا قبله.

فقال ستديب بازدراء: لاتحسبن أننا نعتمد على كرمك لنحصل على الموسيقى، إن عندنا فوق كل ما تدفعه النقود.

وبدأ يغنى بصوته الأجش:

«حبيبى بحبه الغالى يزدرى المال .

«وبلا شيء اشترى الناى الذى يعزف ألحانه .

«فيسلب قلبى» .

ثم التفت إلى مبتسمًا وقال : إذا غنيت ياملكتى فلأثبت أن فقد الصوت الجميل ليس بشيء متى دخلت الموسيقى حياة المرء، عندما نغنى معتمدين على انسجام الصوت وحده نحقر الأغنية، الآن إذ غمر بلادنا فيض من الموسيقى فليتدرب نيكهيل على سلامه بينما نوقظ البلاد بأصواتنا المشفقة:

«يصيح بى منزلى : لماذا تخرج لتفقد كل شيء؟

«وتقول حياتى : ألق كل ماعندك للرياح !

«إن كان لابد أن نفقد كل شيء ، فلنفقده ، فما قيمته آخر الأمر ؟

« إن طلبتى هى جرعة الموت التى تمنح الخلود» .

الحق يانيكهيل أننا كلنا فقدنا قلوبنا . ولا يمكن أن يمسكنا شىء داخل حدود الممكن اليسير، ونحن نتقدم مسرعين إلى المستحيل الذى لا أمل فيه.

« من يريدون أن يجذبونا إلى الخلف

« لايعرفون فرحة الاندفاع المخيفة ،

« لايعرفون أننا سمعنا النداء.

«من آخر الطريق المعوج.

« كل ما كان طيبا معتدلا مهذبًا.

« فليهو في التراب».

وظننت أن زوجى سيمضى فى النقاش، ولكنه نهض عن كرسيه صامتًا وتركنا.

إن الشىء الذى كان يضطرب فى باطنى لم يكن إلا صورة من الانفعال الذى يعصف فى الخارج جارفًا البلاد من أقصاها إلى أقصاها . كانت عربة صانع مصيرى تقترب مسرعة، وصوت عجلاتها يتردد صداه فى كيانى، وكنت أشعر دائمًا أن شيئًا غير عادى يمكن أن يحدث فى أية لحظة، ولن أكون - مع ذلك - مسئولة عنه. ألم أنقل من المستوى الذى يجب فيه اعتبار الصواب والخطأ ومشاعر الآخرين؟

وهل كنت أريد ذلك قط - هل انتظرت قط مثل هذا الأمر أو رجوته؟ انظر إلى حياتى كلها وأخبرنى إن كان على من شىء!

خلال ماضى كله كنت ثابتة على ولائى - حتى إذا حان الوقت لتلقى النعمة ظهر إله آخر! وكما تهتز البلاد المستيقظة محيية أمامها المستقبل الذى لم يتحقق : «باندى ماترم»، كذلك تبعث كل عروقى وأعصابى نبضات الترحيب للغريب الطارئ المجهول الملحاح.

ذات ليلة تركت فراشى ودلفت من حجرتى إلى الشرفة المكشوفة . إن حقول الأرز الناضج تمتد وراء أسوار حديقتنا، ولمحات من النهر تبدو خلال بساتين القرية إلى الشمال. وكان المنظر كله ينام فى الظلام كجنين مبهم لمخلوق مقبل.

فى ذلك المستقبل رأيت بلادى، امرأة مثلى، تقف منتظرة. أخرجها من كسر بيتها نداء مفاجىء من مجهول. لم تجد وقتا لتتلبث أو تتأمل، أو لتشعل لنفسها مصباحاً وهى مندفعة فى الظلام الممتد. أنا أدرى كيف تستجيب روحها الانغام الناى البعيدةالتى تناديها، كيف يعلو صدرها ويهبط، كيف تشعر أنها تقترب منه، بل إنه ملكها فعلا، فلا بأس أن جرت معصوبة العينين. إنها ليست أما. لايناديها أطفال جياع، ولا بيت توقد مصابيحه فى المساء، ولاعمل تدبره فى المنزل. لا، إنها عجلى إلى ميعادها ، فهذه أرض شعراء « الفياشتافا» . لقد تركت بيتها،

ونسيت واجبات منزلها، وليس فيها إلا حنين لايسبر غوره، يدفعها قدما - في أي طريق ؟ ولأي هدف؟ إنها لا تبالي.

أنا أيضًا يتملكني مثل ذاك الحنين. أنا أيضا فقدت بيتي وضللت طريقي. الغاية والوسيلة كلتاهما غمضتا علي. لم يبق إلا الحنين الإسراع. آه ! أيتها الجوابة التعسة بالليل، حين يحمر الفجر لن تبصري أثرًا لطريق الرجوع. و لكن لم الرجوع؟ في الموت غناء عنه. إن كان الظلام الذي عزف على الناي قائدًا إلى الهلاك ففيم الشغل بالآخرة؟ عندما يغمرني السواد لن أكون، لا أنا، ولا الخير ولا الشر، ولا الضحك ولا الدموع.

(١٢)

حين أديرت آلة الزمن فى البنغال - هكذا فجأة - بأقصى قوتها، سهلت الأشياء العسيرة، وتتابعت واحدا بعد واحد. لم يعد فى الإمكان أن يكبح جماح شىء ما، حتى فى ركننا من البلاد. وكان إقليمنا فى المؤخرة أول الأمر. لأن زوجى أبى أن يجبر أهل القرى على شىء، وكان يقول: « حقًا إن الذين يضحون فى سبيل بلادهم هم خدامها، ولكن الذين يجبرون غيرهم على التضحية باسمها هم أعداؤها. إنهم يقطعون الحرية عند الجذور لينالوها فى القمة».

لكن لما جاء سنديب وأقام هنا، وبدأ أتباعه يتجولون فى البلاد، ويخطبون فى المدن والأسواق، امتدت موجات الحماسة إلينا نحن أيضًا، والتف حوله طائفة من شباب الإقليم، ومنهم من كانوا يعدون معرة للقرية، لكن وهج حماستهم الصادقة أضاءهم ظاهرًا وباطنًا ، وتبين أنه حين تنتظم البلاد أنسام نقية من فرح عظيم وأمل كبير، تطهر من كل درن وعفن. نعم، إنه لعسير على الناس أن يكونوا صرحاء مستقيمين أصحاء وبلادهم تعانى آلام البأس.

وهنا تحولت كل العيون إلى زوجى؛ إذ كانت ولاياته وحدها هى التى لم يمنع فيها السكر والملح والمنسوجات الأجنبية. وبدأ موظفو الإمارة أنفسهم يشعرون بالقلق والخجل من ذلك، مع أن زوجى حين بدأ - منذ زمن - يستورد البضائع الوطنية إلى قريتنا لامه الشيوخ

والشباب على جنونه، سراً وعلانية. فقد كنا نحتقر « السواديشي » من كل قلوبنا قبل أن تصبح دعوة يستمد منها الفخر.

وما زال زوجي يبرى أقلامه الهندية بمبراة هندية، ويكتب بأقلام «البسط» ويشرب الماء فى طاس ، ويعمل بالليل فى ضوء مصباح زيتى قديم. ولكن أسلوبه «السواديشى» الراكد البارد لم يستهونا قط، بل إننا كنا نخجل دائماً من الأثاث الخشن العتيق الطراز فى حجرات استقباله، وبخاصة حين يزوره قاضى التحقيق أو غيره من الأوروبيين.

وكان زوجي يستخف بمآخذى، فيقول باسماً : لماذا تسمحين لهذه التفاهات أن تزعجك؟

– سيظنوننا همجاً، أو على الأقل غير متمدنين.

– إن فعلوا فسوف أكافئهم بالظن أن مدنيتهم ليست أعمق من جلودهم البيضاء.

وكان عند زوجي وعاء نحاسى عادى على مكتبه، يتخذه زهرية . وكثيراً ما حدث أن تسللت إلى حجرته عند سماعى بقدوم زائر أوربى لأضع فى مكانه زهرية بلورية أوروبية الصنع.

وأخيراً أنكر فعلى بقوله : انظرى يا بيمالا . إن هذا الوعاء النحاسى لا يشعر بنفسه، كما لا تشعر تلك الأزهار. أما ذلك الشىء فإنه يعلن عن غرضه بصوت عال، ولا يصلح إلا للأزهار الصناعية.

وكانت « البارارانى » هى وحدها التى تتملق نزوات زوجى. فمرة تجىء لاهثة لتقول: « أوه يا أخى ! هل سمعت؟ لقد ظهر صابون هندى بديع! إن أيام ترفي قد ذهبت، لكن إذا لم يكن فى هذا الصابون شحم حيوانى فإنى أود أن أجربه ».

ومثل هذا يجعل زوجى يتهلل فرحًا. فإذا بالمنزل يغرق فى العطور الهندية والصابون الهندى. وأى صابون : إنه أشبه بقطع الصودا الكاوية. ويعد فأنا أعلم أن سلفتى لا تستعمل غير الصابون الأوربى المعهود، أما هذه الأنواع الهندية فإنها تسلم إلى الخادمات لغسل الملابس.

ومرة ثانية تقول: «أوه يا أخى العزيز! أحضر لى شيئًا من أيدى الأقلام الهندية هذه !».

فيتحمس « أخوها » كعادته ، وتمتلئ حجرات البارارانى بكل صنف من العصى القبيحة التى تسمى أيدى أقلام « سواديشى» . وهى لا تبالى بذلك لأن القراءة والكتابة ليستا من شغلها . ومع ذلك فإن اليد العاجية لا تزال فى صندوق أدواتها الكتابية، وهى اليد الوحيدة التى تستعملها ، حين تستعمل يد قلم على الإطلاق.

وحقيقة الأمر أن هذا كله كان ضربة موجهة إلىّ لأنى لا أجارى زوجى فى بداوته. وكان من العبث أن أظهر زيف سلفتى، فزوجى

يتصلب وجهه إذا أشرت إلى ذلك مجرد إشارة . إننا لا نجنى غير التعب إذ نحاول إنقاذ مثل هؤلاء الناس ممن يحتالون عليهم!

والباراراني تحب الخياطة. وذات يوم لم أتمالك أن انفجرت قائلة : يا لك من كذوب يا أختى! عندما يكون « أخوك » حاضراً يجرى لعابك إذا ذكرت المقصات « السواديشى » ولكنك لا تستعملين إلا المقص الإنجليزى حين تخيطين.

فأجابت ، وما الضر؟ ألا ترين سروره بذلك؟ لقد كبرنا معًا فى هذا المنزل منذ كان صبيًا . وأنا لا أطيق مثلك، أن تبرح الابتسامة وجهه. هذا العزيز المسكين! إنه لا يجد تسلية إلا هذا اللعب بأشياء الدكاكين. أنت وحدك التى يضيع عليك ماله، ومع ذلك تريدين أن تهلكيه؟

فأجبت: مهما تقولى فإن النفاق لا يجوز.

فضحكت سلفتى فى وجهى: ياللتشوتا رانى الصغيرة الصريحة ! مستقيمة كعصا المعلم، أهو هذا ؟ ولكن المرأة لم تخلق كذلك. إنها ناعمة مرنة، بحيث تنحنى دون تعوج.

لم أستطع أن أنسى تلك الكلمات: «يضيع عليك ماله، وتريدين أن تهلكيه! » واليوم أشعر أن الرجل إن كان لا بد له من مسكر فيحسن ألا يكون امرأة.

(١٣)

« سكسار » التى تقع فى إمارتنا هى من أكبر المراكز التجارية فى الإقليم فهناك مجرى ماء تعقد على أحد جانبيه سوق يومية وعلى الجانب الآخر سوق أسبوعية، وحين يتصل هذا المجرى بالنهر فى وقت الأمطار وتستطيع القوارب أن تبلغه، تجلب للبيع مقادير كبيرة من الخيوط القطنية والمنسوجات الصوفية للشتاء المقبل.

وفى قمة حماستنا قرر سنديب أن جميع البضائع الأجنبية يجب أن تطرد من بلادنا مع شبح النفوذ الأجنبى.

وقلت وأنا أتأهب للصراع : أجل !

فقال سنديب: لقد تحدثت مع نيكهيل وهو يقول لى: إنه يقبل الدعوة إلى ذلك ولكنه لا يقر حمل الناس عليه.

فقلت مزهوة بقوتى: سأتولى هذا الأمر.

لقد كنت أعلم عمق محبة زوجى لى، ولو كنت فى رشدى لرضيت أن أمزق إربًا ولا أتخذ لنفسى هذا الحق، فى مثل ذلك الوقت، ولكن كان يجب أن يقتنع سنديب بقوة « الروح » تتمثل فى :

وكان سنديب قد أوحى إلىّ، بطريقته التى لا تقاوم، أن الطاقة الكونية تتجلى لكل فرد فى شكل جاذبية خاصة. وقال: إن فلسفة

الفيـاشنافـا تتـحـدث عن « روح » المسرة التى تسكن فـى قلب الوجـود، وتجذب دائماً حبيبها الخالد.

والنـاس يتـوقـون أبداً أن يخـرجـوا هذه « الروح » من الأعـمـاق المستوردة فى طبيعتهم ، فمن استطاع منا أن يفعل ذلك فإنه يفهم على الفور فى وضوح معنى الموسيقى التى تأتينا من الظلام. وانطلق يغنى:

« نايي الذى كان مشغولا بأغنيته .

الآن يصمت حين التقينا وجهاً لوجه .

ندائى ذهب يبحث عنك من سماء إلى سماء .

وأنت ترقدين مختفية ،

ولكن صحبتى كلها تلقى بسمتها الآن .

فى وجه محبوبتى » .

ونسيت وأنا أصغى إلى استعاراته أننى بيمالا العادية البسيطة. لقد كنت « روحاً » وكنت تجسيداً لفرحة الكون، لم يكن شىء ليغللنى، ولا كان شىء مستحيلاً علىّ؛ فكل ما ألمسه يكتسب حياة جديدة . لقد كانت الحياة من حولى مخلوقة جديدة لى. ألا ترى أن سماء الخريف لم تكن تحتوى هذه الثروة من الذهب قبل أن تلمسها استجابة قلبى؟ وهذا البطل، هذا الخادم للوطن، هذا العابد لى - هذا الذكاء المتوقد . هذه

الطاقة المشتعلة، هذه العبقرية المتألقة - إننى أخلقه أيضًا من لحظة اللحظة. ألم أر كيف يسكب فيه حضورى حياة جديدة مرة بعد مرة؟

منذ أيام قليلة رجانى سنديب أن أستقبل شابًا صغيراً من حوارييه المخلصين اسمه أمـوليـا. وفى لحظة استطعت أن أرى نوراً جديداً يومض فى عينى الفتى، وعرفت أنه هو أيضًا قد تجلت له آية « الروح » ، وأن قوتى الخالقة قد بدأت تعمل فى دمائه. وفى اليوم التالى قال لى سنديب متعجبًا: « ما هذا السحر الذى لك ! إن أموليا لم يعد صبيًا ، إن فتيلة حياته تسطع اشتعالا. من ذا الذى يقدر أن يخفى نارك تحت سقف بيتك؟ كل واحد منهم يجب أن تمسه تلك النار إن قريبًا وإن بعيداً، وعندما يشتعل كل مصباح فستشهد البلاد احتفالا رائعًا بتجلى الروح.

حين أعمانى بريق مجدى عزمت على أن أمنح عبادى تلك النعمة. وكنت واثقة ثقة ملؤها الكبرياء أن أحداً لن يستطيع منعى مما أريده حقًا. فلما عدت إلى حجرتى بعد حديثى مع سنديب أرسلت شعرى وعقصته ثانية من فوق، وكانت مس جلبى قد علمتنى طريقة لتمشيطه من العنق وجمعه فى عقدة على رأسى. وكان زوجى يحب هذا النمط ، وقد قال مرة : « خسارة أن السماء اختارتنى أنا بدلا من الشاعر كاليداس لأذيع كل محاسن جيد المرأة لعل الشاعر لو رآه لشبهه ، بعنق زهرة. ولكنى أشعر أنه مشعل يرفع شعلة شعرك السوداء.» قال ذلك و ... ولكن لماذا ، أوه، لماذا أعود إلى ذلك كله.

أرسلت فى طلب زوجى . لقد كان فى وسعى قديما أن أخترع مائة علة وعلة، مقبولة ، أو غير مقبولة لأجعله يأتى إلى. أما الآن وقد انقطع ذلك أياماً كثيرة فإنى فقدت فن الاختراع.

حكاية نيكهيل

(٦)

توفيت زوجة بانشو منذ قليل بعد أن لازمها مرض ذات الرئة مدة طويلة. وكان على بانشو أن يدخل فى مراسم التطهير ليخلص من الإثم ويرضى طائفته. وقد حسبت الطائفة تكاليف ذلك وأخبرته أنها ثلاث وعشرون ومائة روبية.

وصحت غاضبًا: ماهذا السخف ! لا تخضع لهم يا بانشو! ما الذى يستطيعون أن يفعلوه بك؟

فرفع إلىّ عينيه الصابرتين كعينى دابة مجهدة ، وقال : هناك بنتى الكبرى ياسيدتى، يجب أن تتزوج، ولابد من إتمام المراسم الأخيرة لزوجتى المسكينة .

فرفعت صوتى بما كان يجرى فى ذهنى: حتى لو كان الذنب ذنبك يا بانشو لقد كفرت عنه بما يكفى فيما سلف.

فوافق بسذاجة : هذا صحيح ياسيدى . لقد اضطررت أن أبيع جزءاً من أرضى وأرهن الباقى لأدفع ما يطلبه الطبيب . ولكن لا مهرب من الهبات التى يجب أن أقدمها إلى البراهمة.

مافائدة الجدل؟ وسألت نفسى : متى يحين الوقت لتطهير البراهمة أنفسهم وهم الذين يقبلون مثل هذه الهبات؟

وأسقط فى يد بانشو بعد موت زوجته ودفنها، وكان من قبل يعيش على شفا الجوع. وحاول يائساً أن ينال شيئًا من السلوان بأن تعود الجلوس عند قدمى زاهد جواب آفاق، واستطاع أن يكتسب قدراً من الفلسفة مكنه من نسيان أن أطفاله جياع. وأغرق نفسه زمنًا فى فكرة أن الدنيا غرور ، وأنها إن كانت خالية من المتاع فالألم أيضًا وهم. وأخيراً ترك صغاره ذات ليلة فى كوخهم المتداعى وانطلق يجوب الآفاق مستقلا.

لم أعرف شيئًا عن ذلك الأمر فى حينه . ففى ذلك الوقت كان الآلهة والشياطين يمخضون المحيط فى عقلى، ولم يخبرنى أستاذى أنه حمل أطفال بانشو الضائعين إلى داره وتولى أمرهم، وإن كان وحيداً فى المنزل، وملزمًا أن يرعى مدرسته طول النهار.

وبعد شهر، عاد بانشو وقد ذهب الكثير من حميته الصوفية ، فالتصق به ابنه الأكبر وبنته الكبرى صائحين : « أين كنت كل هذا الوقت يا أبتاه؟ « وتربع صغيره على حجره ، وانحنت بنته الثانية على

ظهره، وقد طوقت عنقه بذراعها، وبكوا جميعًا . وأخيرًا قال بانشو لأستاذى منتحبًا : « آه ياسيدى ! إننى غير قادر على إشباع هؤلاء الصغار، ولست حرًا لأهرب منهم. ماذا كان ذنبى حتى أعذب هذا العذاب، ويداى مغلولتان وقدماى ؟».

وكان خيط علاقات بانشو التجارية الصغيرة قد انقطع، ولم يعد فى استطاعته أن يصله. فظل ملتجئًا إلى منزل أستاذى حيث وجد المأوى عند عودته ، ولم يقل كلمة واحدة عن رجوعه إلى منزله. وأخيرًا اضطر أستاذى لأن يقول له : « انظر ياپانشو ! إن لم تعن بكوخك فإنه سوف يتهدم. سأقرضك بعض النقود لتبيع بها وتشترى، وتردها إلىّ شيئًا فشيئا ».

لم يسر پانشو كثيرًا بذلك : أما بقى على الأرض شىء اسمه الإحسان؟ وعندما سأله أستاذى أن يكتب صكًا بالمال شعر أن هذه العطية التى يلزم ردها لاتستحق أن تؤخذ . ولكن أستاذى لم يرد أن يقدم منحة ظاهرة تستتبع دينًا باطنًا ، فقد كان يرى أن تحطيم احترام المرء نفسه تحطيم للكرامة التى يستمدها من مكانه فى المجتمع.

وبعد أن وقع پانشو الصك؛ فقدت تحيته لأستاذى كثيرًا من مظهرها الخاشع، فلم يعد يمسح التراب عن قدميه، وكان أستاذى يبتسم لذلك، فإنه ما كان يريد شيئًا خيرًا من الاقتصاد فى التبجيل، وكان يعبر عن ذلك بقوله « الاحترام معطى ومردودًا يسوى الحساب بين الرجلين ، أما التبجيل فمغالاة ».

وبدأپانشو يشترى المنسوجات فى السوق ويقايض بها فى القرية . ومع أنه لم يحصل على كثير من النقود فإن مااستطاع جمعه من السلع كالأرز والقنب وغيرها من المنتجات الزراعية قد ساعده على سداد حسابه، فاستطاع بعد شهرين أن يرد قسطًا من دين أستاذى ، وصاحب ذلك نقص مقابل فى عمق انحناءته. ولعله بدأ يشعر بأنه كان يقدس رجلاً عادياً لم يتسام حتى عن إغراء المال.

وبينما كانت هذه حال پانشو صدمه تيار « السواديشى » بكل قوته.

(٧)

كان الوقت عطلة، وقد عاد كثير من الشباب فى قريتنا وجيرتها من منازلهم وكلياتهم. والتفوا حول زعامة سنديب متحمسين، وانقطع بعضهم عن الدراسة لفرط غيرتهم. وكان كثير من الفتيان تلاميذ بالمجان فى مدرستى التى أنشأتها هنا، وبعضهم يتلقون منى معونات ليدرسوا فى كلكتا . جاءنى هؤلاء جميعًا مطالبين بأن أمنع البضائع الأجنبية من سوق سكسار.

فقلت لهم : إنى لا أستطيع ذلك.

قالوا ساخرين : لماذا يا مهراجا؟ هل تشق عليك الخسارة؟

فلم أبال بما فى نبرتهم من الإهانة، وكدت أرد بأن الخسارة لن تصيبنى بل سوف تصيب التجار الفقراء وزبائنهم، حين أدلى أستاذى – وكان حاضرًا – بقوله : نعم ، إنه هو الذى سيخسر لا أنتم. هذا واضح جلى.

– ولكن الوطن ....

فقاطعهم أستاذى مرة أخرى : الوطن ليس معناه الأرض بل الناس الذين عليها. هل أنفقتم قبل اليوم ولو نظرة على ما يحدث لهم؟ ولكنكم تريدون الآن أن تقرروا أى ملح يأكلون وأى ثياب يلبسون، لماذا يتحملون مثل هذا الاستبداد، لماذا ندعهم يتحملونه.

- ولكننا نحن قد ألفنا الملح الهندى والسكر الهندى.

- لكم أن تفعلوا ما تشاءون لتذهبوا ضجركم وتبقوا تعصبكم، فأنتم ميسرو الحال، ولا حاجة بكم لأن تفكروا فى الثمن. إن الفقراء لا يعارضونكم ولكنكم مصرون على أن يخضعوا لما تفرضونه. إن كل لحظة من لحظاتهم - على ماهم الآن - لهى صراع حياة أو موت فى سبيل حفظ الرمق، وليس بوسعكم أن تتخيلوا الفرق الذى يمكن أن تحدثه لهم دوانق قليلة ، فإنكم لا تكادون تشاركونهم فى شىء. لقد قضيتم ماضيكم كله فى طبقة عليا، والآن تهبطون لتتخذوا منهم أدوات لإنزال غضبكم . إنى أسمى هذا جبنًا.

وكانوا جميعًا من تلاميذ أستاذى السابقين ، فلم يجرءوا على أن يسيئوا أدبهم ، وإن ارتعدوا من الغضب والتفتوا إلىّ : إذا فهل تكون الوحيد الذى يضع العقبات أمام سعى البلاد يامهراجا؟

- ومن أكون حتى أجرؤ على مثل هذا الفعل ؟ أم إننى غير مستعد لأن أهب حياتى فى سبيل تحقيقه؟

وابتسم طالب الماجستير ابتسامة شوهاء وهو يسأل : هل لنا أن نعلم ماذا تقوم به فعلا فى هذا السبيل؟

- لقد استوردت غزلا مصنوعًا فى الهند وعرضته فى سوق سكسار، وأرسلت بالات منه إلى الأسواق التابعة للملاك المجاورين.

فصاح الطالب نفسه : ولكننا ذهبنا إلى سوقك يا مهراجا ولم نجد أحداً يبيع ذلك الغزل.

ليس هذا خطئى ولا خطأ سوقى ، إنما هو دليل على أن البلاد لم تدخل جميعها فى ميثاقك .

ومضى أستاذى يقول : ليس هذا كل شىء. إنه يدل على أنكم ما تعاهدتم إلا على مضايقة غيركم. أنتم تريدون التجار الذين لم يدخلوا فى ميثاقكم أن يشتروا ذلك الغزل. والنساجين الذين لم يدخلوا فى ميثاقكم أن ينسجوه، ثم أن تعرض بضائعكم آخر الأمر على مستهلكين لم يدخلوا فى ميثاقكم أيضا. أما الطريقة فهى الصياح منكم والاضطهاد من ملاك الأراضى . وأما النتيجة فهى أن لكم كل الفضل ولهم كل الحرمان!

فعقب طالب علوم: وهل لنا أن نسأل ماذا كان نصيبكم من الحرمان؟

فأجاب أستاذى : أتريد أن تعلم؟ إن على نيكهيل نفسه أن يشترى هذا الغزل الهندى، وقد لجأ إلى إنشاء مدرسة نسيج لحياكته، وإذا حكمنا بأعماله الباهرة السابقة فى هذا الميدان فإن ثمن منسوجاته القطنية عند خروجها من النول سيكون كثمن نسيج الذهب ، ولذلك فلن تكون لها فائدة إلا أن تتخذ ستائر فى حجرة جلوسه، ولو كانت أرق

من أن تستره. عندما تتعبون من ميثاقكم ستضحكون بأعلى صوت عن تأثيرها الفنى. وإن أعجبت صناعتها أحدا فإنها لن تعجب غير الأجانب.

لقد عرفت أستاذى طيلة حياتى، ولكن لم أره قط فى مثل هذه الثورة، ولاح لى أن الألم ظل يتجمع فى قلبه زمنًا وهو صامت ، لفرط حبه لى وأن ما تعوده من امتلاك زمام نفسه قد نيل منه حتى كاد يتداعى .

قال طالب الطب: أنتم أكبر منا سنًا، ولا يليق بنا أن نجادلكم. ولكننا نود أن نعلم أخيراً هل أنتم عازمون على ألا تخلوا سوقكم من البضائع الأجنبية؟

قلت : لن أفعل. لأنى لا أملك هذه البضائع.

فقال طالب الماجستير مبتسماً : لأن ذلك يسبب لك غرما!

فرد أستاذى : لأن الذى سيغرم هو أولى الناس بأن يحكم.

فتركونا هاتفين : باندى ماترم؟

الفصل السادس

حكاية نيكهيل

(٨)

بعد أيام جاءنى أستاذى مصاحبا بانشو. وظهر أن مالك الأرض التى يقيم فيها غرمه مائة روبية وهدده بالطرد.

سألت : وبأى ذنب؟

فقيل لى : لأنه وجد يبيع منسوجات أجنبية، وقد رجا «هاريش كوندو» مالك الأرض وتضرع إليه أن يتركه حتى يبيع ماعنده من بضاعة اشتراها بالدين، وحلف ألا يعود إلى ذلك العمل مرة أخرى، ولكنّ صاحب الأرض لم يصغ إليه، وأصر على إحراق البضائع الأجنبية فى الحال إن أراد إطلاق سراحه. وصاح بانشو متحدياً فى غيظه: أنا لا أتحمل هذا أنت مقتدر، فلماذا لاتشتريها كلها وتحرقها؟ فما كان من هاريش كوندو إلا أنه صاح وقد احمر وجهه : يجب تأديب هذا اللعين . اضربوه بالأحذية ! وهكذا لقى بانشو المسكين فوق الغرامة إهانة.

– وماذا جرى للقماش.

– لقد أحرقت البالة جميعا.

– ومن كان هناك غيره.

– عدد كبير من الناس كانوا كلهم يصيحون . « باندى ماترم».

وكان فيهم سنديب أيضًا، فتناول بعض الرماد صائحًا : أيها الأخوة؟ إن هذا أول حريق جنزى توقده قريتكم محيية المراسم الأخيرة للتجارة الأجنبية. هذا رماد مقدس، فامسحوا أنفسكم به آية على أنكم أخذتم عهد «السواديشى».

فالتفت إلى بانشو قائلا : يجب أن تقدم شكوى يا بانشو.

فأجاب: لن يشهد لى أحد.

– لن يشهد أحد؟ ... سنديب! سنديب!

فجاء سنديب من حجرته حين سمع ندائى، وسأل : ماذا جرى؟

– ألا تشهد على إحراق قماش هذا الرجل؟

فابتسم سنديب قائلا: سأكون لا شك شاهدًا فى القضية. ولكنى سأشهد عليه لا له.

فصحت. ماذا تعنى بشهادتك عليه؟ ألا تشهد بالحقيقة؟

- هل الشيء الذى يحدث هو الحقيقة الوحيدة؟

- وأى حقائق أخرى يمكن أن توجد؟

- الأشياء التى ينبغى أن تحدث! إن الحقيقة التى يجب أن نبنيها ستحتاج فى سبيل ذلك إلى كثير مما يخالف الحقيقة. إن أولئك الذين شقوا طريقهم فى الحياة قد خلقوا الحقيقة ولم يسروا وراءها سيراً أعمى.

- وإذن ... ؟

- وإذن فسأدلى بما يلذ لكم أن تسموه شهادة الزور، كما فعل أولئك الذين أوجدوا الإمبراطوريات، وأقاموا النظم الاجتماعية وأنشأوا المنظمات الدينية. الذين يريدون أن يحكموا لايخشون مخالفة الحقيقة! أما قيود الحقيقة فلأولئك الذين يقعون تحت حكمهم. ألم تقرأ التاريخ؟ ألا تعلم أن الأكاذيب هى المكونات الرئيسة فى داخل تلك الصهاريج الضخمة التى تغتلى فيها التطورات السياسية العظيمة؟

- لاشك أن ثمة طبخاً سياسياً يجرى على نطاق واسع . ولكن ...

- أوه، أنا أعلم. أنك لن تشترك فى شىء من الطبخ، فأنت تفضل أن تكون واحداً من أولئك الذين تدفع الخلطة المطبوخة فى حلاقيمهم. سيقسمون البنغال ويقولون: إن ذلك لمصلحتك. سيوصدون أبواب التعليم ويسمون ذلك رفعاً للمستوى ولكنكم ستبقون أبداً أولاداً طيبين، تبكون

فى أركانكم. أما نحن الرجال الأشرار فعلينا أن ننظر فى وسيلة لإقامة حصون دفاعية من مخالفة الحقيقة.

فتدخل أستاذى قائلا: لا فائدة من الجدال فى هذه الأمور يانيكهيل، أنّى لمن لايشعرون بالحقيقة فى داخلهم أن يدركوا أن إخراجها من الظلام إلى النور هو أسمى هدف للإنسان لا المواظبة على تكديس المادة فى الخارج؟

فضحك سنديب قائلا: أحسنت ياسيدى! هذه خطبة تليق بمعلم. هذا كلام قرأت مثله فى الكتب، ولكن رأيت فى العالم الواقعى أن هم الإنسان هو جمع المادة الخارجية. وأساتذة هذا الفن يروجون أكبر الأكاذيب فى أعمالهم ، ويدخلون الحسابات الزائفة فى سجلاتهم السياسية بأعرض أسنة أقلامهم ويطلقون صحفهم كل يوم محملة بالمغالطات، ويبعثون الوعاظ إلى الخارج لينشروا الإفك، كالذباب الذى يحمل جراثيم الوباء. إننى تابع متواضع لهؤلاء العظماء. وعندما كنت متصلا بحزب المؤتمر لم أتردد قط فى أن أخلط عشرة فى المائة من الحقيقة بتسعين فى المائة من الإفك. وإذا كنت قد أصبحت غير منتسب لهذا الحزب؛ فإن ذلك لم ينسنى الأصل الواقعى الثابت الذى يقول: إن هدف الإنسان ليس الحقيقة بل النجاح.

فصحح أستاذى قوله : النجاح الحقيقى.

فأجاب سنديب : ربما . ولكن ثمرة النجاح الحقيقى لاتنضج إلا بزرع حقل الإفك، بعد تمزيق الأرض وطحنها ترابا. إن الحقيقة تنمو وحدها كالأعشاب والأشواك ، ولا ينتظر الثمار منها غير الديدان!

قال ذلك واندفع خارجًا من الحجرة ، ونظر أستاذى إلىّ بابتسام . قال: أتدرى يانيكهيل ... أنا لا أعتقد أن سنديب غير مؤمن. إن دينه هو الوجه الآخر للحقيقة . كالقمر المظلم ، لا يزال قمراً وإن ذهب نوره إلى الجانب الآخر.

فقلت موافقًا. لهذا كنت دائما أميل إليه وإن لم نستطع قط أن نتفق. وليس فى وسعى أن أدينه الآن أيضًا. وإن كان قد أساء إلىّ إساءة بليغة، ولعله سيزداد إيذاء لى.

قال أستاذى : قد بدأت أتبين ذلك. وكثيراً ما سألت نفسى: كيف تستطيع احتماله، بل إننى نسبتك إلى الضعف أحيانا. والآن أرى أنكما وإن لم تتفقا فى الرؤى فأنتما من بحر واحد.

فقلت متابعا فكرته : كأن القدر صمم على أن يكتب لى « فردوسًا مفقوداً » بالشعر المرسل، فلم ير حاجة إلى صديق موافق.

وتابع أستاذى حديثه الأول سائلا : ولكن ماذا عن بانشو؟

– تقول: إن هاريش كوندو يريد أن يطرده من مقر أجداده . فإن اشتريت المكان وأبقيته مستأجراً عندى ؟

– وغرامته ؟

– كيف يحصلها صاحب الأرض إن أصبح مستأجرًا عندى؟

– وبالة القماش التى حرقت؟

– سأشترى له بالة أخرى . ولعل أحدًا يتدخل فى شأن مؤاجر من مؤاجرى لأنه يتاجر كما يريد!

فقال بانشو بانكسار : أخشى ياسيدى أن يجتمع نسور الشرطة والقانون ويستمتع الجمهور بالمنظر وأنتم تتحاربون معشر الكبراء، فإذا وصل الأمر إلى القتل جاء دورى أنا المسكين!

– لماذا ؟ أى ضرر يمكن أن يصيبك ؟

– سيحرقون منزلى ياسيدى ، ولن يبقوا على الأطفال !

فقال أستاذى : حسنًا ، سأعنى بأطفالك . ولك أن تتاجر كما تريد، فلن يمسوك بأذى.

وفى ذلك اليوم نفسه اشتريت مسكن بانشو وأصبحت المالك الرسمى له، ثم بدأت المتاعب.

كان بانشو قد ورث المسكن عن جده على أنه وريثه الوحيد الباقى على قيد الحياة، وكان كل امرئ يعلم ذلك، ولكن فى هذه اللحظة ظهرت زوجة عمه من مكان ما ، ومعها صناديقها وحزمها وسبحتها، وابنة أخ مترملة، وتربعت فى منزل بانشو وطالبت بنصيبها – مدى الحياة – فى ريع جميع ما يملك.

وذهل بانشو . واحتج بقوله : ولكن زوجة عمي ماتت منذ أمد بعيد!

فأجيب بأنه يعني زوجة عمه الأولى ، ولكن العم لم ينتظر طويلا حتى اتخذ زوجة ثانية .

وصاح بانشو وقد زادت دهشته : ولكن عمي مات قبل عمتي فكيف تسنى له أن يتزوج ثانية؟

ولم ينكر عليه قوله، ولكنه ذكر بأنه لم يزعم قط مجيء الزوجة الثانية بعد وفاة الأولى، بل إن عمه تزوج الثانية في حياة الأولى. ولم تسترح الزوجة الثانية للعيش مع ضرة؛ فبقيت في منزل أبيها حتى وفاة زوجها، وبعد ذلك تنسكت وأقامت في أرض برندابان المباركة التي قدمت منها الآن. وكانت هذه الوقائع معروفة لموظفي هاريش كوندو وبعض مؤاجريه. ولو صمم مالك الأرض لوجد أيضًا بعض من شهدوا وليمة العرس!.

(٩)

ذات أصيل كنت مشغولا بعمل كثير، وإذا برسالة تأتيني في مكتبي أن بيمالا تطلبني . فدهشت ، وسألت الرسول : تقول من التي بعثت في طلبي؟

- أمنا الراني.

- البارا راني ؟

- لا يا سيدي بل أمنا التشوتا راني.

التشوتا راني ! كأنما مر قرن منذ بعثت تطلبني. فتركت الخلق منتظرين هناك ، وذهبت إلى الحجرات الداخلية. وعندما خطوت داخلا إلى حجرتنا أصابتني دهشة أخرى إذ وجدت بيمالا واقفة في زينة غير عادية. وكانت الحجرة التي طال إهمالها حتى اكتسبت مظهر الشرود، قد استعادت شيئًا من نظامها القديم في تلك الساعة . ووقفت صامتًا أنظر مستفهمًا إلى بيمالا.

احمر وجهها قليلاً وجعلت أصابع يمناها تلعب بالأسورة على ذراعها اليسرى . ثم قطعت الصمت فجأة : راعني! هل يجوز أن تكون سوقنا هي الوحيدة في البنغال التي تباع فيها البضائع الأجنبية؟

فسألت : وما السبيل الصحيح إذًا؟

– تأمر بإخراجها!

– ولكننى لا أملكها.

– ألست تملك السوق؟

– بل هى أولى بأن تكون ملكًا لمن يستعملونها فى التجارة.

– فليتاجروا فى البضائع الهندية إذًا.

– ليس أدعى لسرورى من هذا. ولكن ماذا إن أبوا؟

– هراء! كيف يجرءون على مثل هذه الوقاحة ؟ ألست ..

– إننى مشغول جداً هذه الساعة ، ولا أستطيع أن أستمر فى الجدل، ولكننى لن أكون مستبداً.

– لن يكون استبداداً من أجل كسب شخصى، بل من أجل مصلحة الوطن.

– الاستبداد من أجل مصلحة الوطن هو استبداد بالوطن. ولكننى أخشى ألا تفهمى هذا أبداً.

قلت ذلك وخرجت، وفجأة أضاء لى العالم بنور جديد. وكأنما أحسست فى دمى أن الأرض قد فقدت ثقل أرضيتها، وأن واجبها اليومى فى إمداد الحياة لم يعد يبدو عبئا ، وأنها تدور فى الفضاء بفيض عجيب من القوة، مسبحة بأيامها ولياليها. يا له من عمل لا ينتهى

، ويا لها من طاقة للحرية لا تحد ! لن يمنعها شيء ما، لا ولن يمكن أبداً أن يمنعها شيء! وانبعثت من أعماق وجودي دفقة فرح كأنها نافورة ، وارتفعت إلى عنان السماء.

وسألت نفسي مرة بعد مرة عن معنى هذا الانبعاث ، فلم أجد في أول الأمر جواباً مفهوماً، ثم وضح لي أن القيد الذي كنت أثور عليه في باطني ليل نهار قد انكسر، وتبينت لدهشتي أن عقلي قد تخلص من كل ضبابية ، واستطعت أن أبصر كل ما يتعلق ببيمالا في وضوح كأنه مصور على شاشة سينما. كان ظاهراً ملموساً أنها تأنقت في ملبسها عمداً لتستميلني إلى إصدار ذلك الأمر. ولم أكن حتى ذلك الحين قد نظرت قط إلى زينة بيمالا على أنها شيء مستقل عنها . ولكنها اليوم بدت مجرد زخرفة من الطريقة المصطنعة التي عقصت بها شعرها على: النمط الإنجليزي، وأصبح الشيء الذي كان محملا بسر شخصيتها، ولم أكن أقدره بثمن ، معروضاً للبيع بالثمن الرخيص.

حين خرجت من ذلك القفص المحطم – ذلك المخدع – إلى ضوء الشمس الذهبي في العراء ، كان صفا أشجار « البوهينيا » على جانبي الدرب المواجه لشرفتي يسكبان على السماء ألقاً وردياً، وكان سرب من الزرازير منطلقاً في ثرثرة عالية تحت الأشجار. وعلى بعد عربة خالية من العربات التي تجرها الثيران ، قد رفعت ذيلها في الهواء وأنفها على الأرض، وأحد ثوريها المحلولين يرعى، والآخر راقد على العشب، وعيناه

منكستان استرواحًا، بينما كانت بقرة ترقد على ظهرها عاكفة على تحريك رأسها لطرد الحشرات عن جسمها.

كأنما اقتربت من نبضات قلب الأرض العظيمة في كل بساطة حياتها اليومية. لمستني أنفاسها الدافئة بعطر أزهار البوهينيا، وبدا كأن نشيداً تدق عذوبته عن الوصف ينبعث من هذا العالم، حيث أحيا بحريتي في حرية كل شيء آخر.

نحن الرجال فرسان نبتغي تلك الحرية التي تدعونها إليها مثلنا ، والمرأة التي تصنع لنا العلم الذي نسير تحته من حق المرأة لنا . يجب أن نمزق قناع تلك التي تنسج شباك الفتنة لنا في البيت وأن نعرفها على حقيقتها. يجب أن نحاذر من إلباسها سحر أشواقنا وخيالاتنا لتضلنا عن مطلبنا الحق.

اليوم أشعر أني سأنتصر. وصلت إلى باب البساطة، وأنا الآن راض بأن أرى الأشياء كما هي. لقد كسبت الحرية لنفسي وسأفتح الحرية للآخرين وفي عملي سيكون خلاصي.

أعلم أن قلبي سيتألم مرة بعد مرة، ولكنني الآن فهمت ألمه في كل حقيقته. أستطيع ألا أراعيه . الآن وقد علمت أنني أنا وحدي مداره فماذا يمكن أن تكون قيمته آخر الأمر. سيكون عذاب البشرية كلها هو تاجي.

أنقذني ياحق ! لاتدعني أبداً يعاودني الحنين إلى فردوس الوهم الكاذب ! وإذا كان عليّ أن أسير وحيداً فاجعلني على الأقل أسلك طريقك. اجعل دقات طبول الحق قائدي إلى النصر.

حكاية سنديب

(٧)

استدعتنى بيمالا فى ذلك اليوم، ولكنها ظلت مدة لاتستطيع أن تنطق بكلمة، وعيناها تغرورقان كان وتوشكان أن تفيضا. وأدركت على الفور أنها لم توفق مع نيخيل. لقد كانت على ثقة ملؤها الكبرياء أنها ستظفر بما تريد، ولكنى لم أشاطرها قط هذه الثقة. فالمرأة تعرف الرجل معرفة حسنة حيث يكون ضعيفًا، ولكنها عاجزة كل العجز عن سبر غوره حيث يكون قويا . والحق أن الرجل لغز للمرأة كما أن المرأة لغز للرجل. ولو لم يكن ذلك صحيحًا لكان التمييز بين الجنسين مضيعة لجهد الطبيعة.

الكبرياء وما أدراك ما الكبر ياء ! لم يكن الخطب أن الأمر الضرورى قد تعذر إنجازه بل إن الرجاء الذى كلفها كل هذا الصراع قد رفض . ما أكثر اللون والحركة والإيماء والخداع حول كلمة « أنا » عند المرأة! وهنا جمالها - فهى ذاتية أكثر جدًا من الرجل. عندما خلق الرجل كان

الخالق معلمًا حقيبته مملوءة بالوصايا والمبادئ، ولكنه حين خلق المرأة ترك أستاذيته وتجول فنانًا ليس له إلا ريشته وصندوق ألوانه.

حين وقفت بيمالا هناك صامتة محمرة الوجه باكية فى كبريائها الكسيرة وكأنها سحابة عاصفة مثقلة بالمطر مشحونة بالبرق تحط على الأفق، بدت حلوة حلوة حتى أنى لم أتمالك أن أسرعت إليها وأمسكت يديها . كانت ترتعد ولكنها لم تنتزعها من يدى. فقلت: يا ملكتى، نحن الاثنان زميلان؛ لأن أهدافنا واحدة. فلنجلس ونتحدث فى الأمر.

وقدتها إلى كرسى وهى لاتقاوم. ولكن أى عجب ! فى هذه اللحظة نفسها انحبس اندفاعى دون سبب معلوم، كتيار « البادما » الجبار يزأر أتيه – ولامقاومة – وإذا بعقبة صغيرة تحت السطح تحوله عن الشاطئ المتداعى أمامه. عندما ضغطت على يد بيمالا عزفت أعصابى كأوتار مشدودة ولكن السيمفونية توقفت عن الحركة الأولى.

ما الذى اعترض الطريق؟ لاشىء بمفرده، بل خليط من أشياء كثيرة – لاشىء ملموس ولكن ذلك الشعور المبهم بالتعويق. ومهما يكن من شىء فقد وضح لى أمر، وهو أنى لا أستطيع أن أقسم على أن حقيقتى هى كذا، وما فتنتى بنفسى إلا لأننى لغز محير لعقلى ، ولو مرة عرفت نفسى كاملة لطرحتها كلها بعيداً ووصلت إلى نعيم الروح !

انتسف وجه بيمالا وهى تجلس ، ولا بد أنها هى أيضًا شعرت بالأزمة التى جاءت وذهبت تاركة إياها ولم تصب بأذى . لقد مر المذنب ، ولكن

لفحة ذنبه المشتعل هزمتها. ولكى أساعدها على استعادة جأشها قلت: لا بد من عقبات ولكن.. دعينا نحاربها حتى ننتصر، وحذار أن نقنط . ألا ترين أن ذلك أفضل يا ملكتى؟

فسعلت بيمالا سعلة صغيرة لتطلق صوتها إلا أنها لم تزد على أن قالت نعم.

ومضيت أقول، وأخرجت من جيبى قطعة من الورق وقلم رصاص: فلنرسم خطتنا للعمل.

وبدأت أكتب قائمة بأسماء المجاهدين الذين انضموا إلينا من كلكتا وأعين لكلٍ واجباته. فقاطعتنى بيمالا قبل أن أتم ذلك قائلة بملل: « دع هذا الآن؛ سألقاك ثانية هذا المساء. » ثم أسرعت خارجة من الحجرة . وكان واضحًا أنها غير قادرة على النظر فى شىء ما ، بل يجب أن تخلو إلى نفسها برهة – أو ترقد على سريرها وتبكى حتى تشتفى!

وعندما غادرتنى بدأت نشوتى تعمق، كما تغزر ألوان السحب بعد مغيب الشمس. وشعرت بأنى تركت لحظة اللحظات تفلت. أى جبان رعديد كنت! لا بد أنها تركتنى اشمئزازًا من تورعى – ولقد كانت على حق !

وبينما كنت أغلى بمثل هذه الأفكار جاء خادم وأعلن قدوم « أموليا » أحد فتياننا . وهممت أن أبعده بعض الوقت؛ ولكنه دخل قبل أن أعزم، ثم أخذنا نتناقش فى أخبار المعارك التى نشبت فى جهات مختلفة حول

القماش والسكر والملح، وسرعان ما صفا الجو من كل أبخرة النشوة وكأنما صحوت من حلم، فهببت شاعراً أتى على أتم استعداد الصراع « باندى ماترم !».

كانت الأخبار مختلفة . فمعظم التجار الذين يقيمون فى مقاطعة هاريش كوندو قد انضموا إلينا، وكثير من موظفى نيكهيل يناصروننا سراً، ويدبرون الأمور فى الخفاء لمصلحتنا، وتجار « مرورى » مستعدون لدفع غرامة إن نحن تركناهم يتخلصون من البضائع التى فى مخازنهم، إلا أن بعض التجار المسلمين كانوا لا يزالون على عنادهم.

وكان أحدهم يحمل إلى منزله بعض الشيلان الألمانية الصنع لأسرته، فصادرها أحد فتيان قريتنا وأحرقها ، وتفاقم الأمر ، فعرضنا أن نعوضه أصوافًا هندية، ولكن أين نجد أصوافًا هندية رخيصة الثمن؟ لم يكن فى وسعنا أن ننعم عليه بشيلان كشمير ! فجاء نيكهيل شاكيًا ، ونصحه هذا بأن يلجأ إلى القانون، وقد تكفل رجال نيكهيل بأن تذهب القضية سدى، بل إن محامى الرجل كان فى صفنا!

والمشكلة : هى أننا لن نستطيع أن ندبر المال إذا كان علينا فى كل مرة أن نعوض الأقمشة المحروقة بأقمشة هندية ، ثم ندخل فى قضية فوق ذلك ، وأبدع مافى الأمر أن هذا الإتلاف للبضائع الأجنبية يزيد الطلب عليها ويرفع أرباح الأجانب - كما حدث لذلك التاجر السعيد الحظ الذى أغرم «النواب» فى تحطيم شمعداناته ، لأنه كان يتلذذ برنين الزجاج المكسور؟

والمشكلة الثانية هي : هل ينبغي أن نتشدد في مقاطعة أصواف الفانلا والمورينو الأجنبية أو نستثنيها من هذه المقاطعة، ما دامت لا توجد أصواف هندية أنيقة رخيصة؟

قلت أخيرًا مجيبًا عن النقطة الأولى: اسمع! إننا لن نمضي في تقديم هدايا من المنسوجات الهندية إلى أولئك الذين صودرت بضائعهم الأجنبية. إنهم هم المقصودون بالعقوبة لا نحن .فإذا لجئوا إلى القضاء فيجب أن نرد بإحراق مخازنهم! - ما الذي يفزعك يا أموليا ؟ إن منظر النيران لايخلبني. ولكن يجب أن تعلم أن هذه حرب، فإن كنت تخاف إيقاع الأذى فاذهب لتلتمس لك حبًا فإنك لن تصلح لهذا العمل!

وحللت المشكلة الثانية بأن قررت ألا أتوسط في أمر البضائع الأجنبية مهما تكن الحال. ففي الماضي حين كانت هذه الشيلان الأجنبية الزاهية الألوان غير معروفة اعتاد فلاحونا الاكتفاء بالملاحف القطنية البسيطة - فليتعلموا ذلك ثانية. ولعلها تبدو أقل جمالا ، ولكن هذا ليس وقت التفكير في المظاهر.

وكان معظم الملاحين قد اقتنعوا بأن يرفضوا نقل البضائع الأجنبية، ولكن رئيسهم «ميرجان» بقي على عناده. فسألت مدير أعمالنا هنا: ألا تستطيع أن تدبر إغراق قاربه؟

فأجاب : ليس أسهل من ذلك ياسيدي: ولكن ماذا يكون إن اعتبرت مسئولا بعد ذلك؟

– ولماذا تسىء التدبير بحيث تترك ثغرة للمسئولية ؟ ومع ذلك فإن وجدت ثمة مسئولية فإن كاهلى يستطيع احتمالها.

كان قارب ميرجان مربوطًا قرب المرسى بعد أن نُقلت حمولته إلى السوق. ولم يكن فيه أحد ، فقد رتب وكيلنا حفلا دعى إليه الجميع . وبعد الغسق جمل القارب بالنفايات وأرسل مع التيار؛ فغرق فى وسط النهر.

وفهم ميرجان الأمر كله فجاءنى باكيًا مسترحمًا . وبدأ يقول: لقد كنت مخطئًا ياسيدى...

فسألته ساخرًا : وما يجعلك تدرك ذلك فجأة؟

فلم يجب جوابًا صريحًا . قال : لقد كان القارب يساوى ألفى روبية إننى أعرف خطئى الآن ، وإذا سومحت هذه المرة فلن .... وارتمى على قدمى.

فسألته أن يعود بعد عشرة أيام. لو أننا استطعنا أن ندفع له هذين الألفين فورًا لاشتريناه جسمًا وروحًا، فمثل هذا الرجل يستطيع أن يقدم إلينا خدمة جليلة إذا كسبناه. لن نستطيع أن نتقدم إن لم نضع أيدينا على مال كثير.

ماكادت بيمالا تدخل حجرة الجلوس فى ذلك المساء حتى قلت وأنا أنهض لاستقبالها ، ياملكتى! كل شى معد . والنجاح قريب، ولكننا يجب أن نحصل على مال.

- مال ! كم من المال؟

- ليس بالشيء الكثير. ولكننا يجب أن نحصل عليه من أى سبيل!

- ولكن كم؟

- خمسون ألف روبية تكفى فى الوقت الحاضر.

شحبت بيمالا فى باطنها حين سمعت الرقم ، ولكنها حاولت ألا تظهر ذلك. كيف تسلم بالهزيمة مرة ثانية .

قلت يا ملكتى ! أنت التى تقدرين أن تجعلى المستحيل ممكنا . بل إنك قد فعلت هذا قبل الآن، ليتنى أستطيع أن أُظهرك على مدى ما حققته كى تعلمى ذلك. ولكن ليس هذا وقته. إننا الآن نريد النقود!

فقالت : ستنالها.

وخمنت أنها فكرت فى بيع جواهرها . فقلت : جواهرك يجب أن تبقى مصونة. إننا لا ندرى متى نحتاج إليها.

وحملقت بيمالا نحوى صامتة . فأردفت : هذه النقود يجب أن تأتى من خزانة زوجك.

فزادت بيمالا إجفالا . وبعد صمت طويل قالت : ولكن كيف أحصل على هذه النقود؟

- أليس ماله مالك؟

قالت وقد مُسّت كبرياؤها الجريحة من جديد: لا!

فصحت . إن لم يكن مالك فليس بماله أيضًا : إنما هو مال بلاده الذى حرمها منه فى وقت حاجتها!

فرددت : ولكن كيف أحصل عليه؟

- ستحصلين عليه، ويجب أن تفعلى . أنت أدرى بالسبيل. يجب أن تحصلى عليه لتلك التى هى مالكته الحقة. باندى ماترم! هاتان هما الكلمتان السحريتان اللتان ستفتحان باب خزانته الحديدية وتخترقان جدران حجرته المحصنة؟ وتنزلان الرعب فى قلوب من لا يؤمن بهذا النداء. قولى يا ملكة : باندى ماترم!

- باندى ماترم!

الفصل السابع

حكاية سنديب

(٨)

نحن رجال، نحن ملوك فيجب أن نأخذ الجزية. منذ جئنا إلى الأرض ونحن نسلبها ، وكلما أمعنا فى الطلب أمعنت في الرضوخ. منذ أقدم العصور كنا نحن الرجال نقطف الثمار ونقطع الأشجار ونقلب الأرض ونقتل الوحش والطير والسمك. انتزاع ثم انتزاع - من قاع البحر، من أعماق الأرض، من بين أنياب الموت نفسه. لم يحترم صندوق مغلق فى خزانة الطبيعة ولا ترك غير منهوب.

والمسرة الوحيدة لهذه الأرض هى أن تفى بما يطلبه الرجال. لقد أخصبت وجملت وكملت خلال تضحياتها التى لا تنتهى من أجلهم ، ولولا ذلك لضاعت فى القفار ولم تعرف نفسها: أبواب قلبها مغلقة . وماساتها ولآلئها لاترى النور.

وكذلك فتحنا نحن الرجال كل مكنونات النساء بقوة مطالبنا وحدها. وفى استسلامهن لنا كسبن دائمًا عظمتهن الحقة، ولأنهن ألزمن أن يجلبن كل ماسات سعادتهن ولآلئ حزنهن إلى خزانتنا الملكية وجدن ثروتهن الحقة. فأن يتقبل الرجال هو حقًا أن يعطوا، وأن تعطى النساء هو حقًا أن يكسبن.

على أن مطلبى من بيمالا لهو مطلب كبير! وقد شعرت بشىء من التحرج أول الأمر، أليس من عادة عقل الرجل أن يكون فى صراع غير مجد مع نفسه؟ خلت أنى كلفتها أمرًا عسيرًا. وكان أول ما هممت به أن أناديها لترجع وأخبرها أننى أفضل ألاّ أشقى حياتها بجرها إلى كل هذه المتاعب، ونسيت فى تلك اللحظة أن رسالة الرجل هى أن يعتدى، أن يجعل وجود المرأة مثمرًا بإثارة القلق فى أعماق سبيتها، أن يبارك الحياة كلها إذ يمخض هاوية الألم السحيقة! لهذا كانت يدا الرجل قويتين وقبضته صلبة.

لقد كانت بيمالا تتوق من كل قلبها أن أطلب منها - أنا سنديب - تضحية عظيمة، أن أدعوها لحتفها. كيف تسعد بغير ذلك؟ وهل انتظرت كل هذه السنوات المملة إلا أن تسنح لها فرصة لتبكى حتى يشتفي قلبها، وهى التى أضجرتها رتابة سعادتها الهادئة؟ لهذه لم تكن ترانى حتى أظلم أفق قلبها بسحاب ماطر من أيام عذابها المقبل. فلأى غرض إذن ولدت رجلا إن أنا أشفقت عليها وأنقذتها من أحزانها؟

إن السبب الحقيقى لتحرجى هو أن مطلبى اتفق أن كان مالا. وفى ذلك معنى الشحاذة، فإن المال للرجل لا للمرأة ، ولهذا اضطررت أن أرفع الرقم ، فألف أو ألفان يبدوان سرقة حقيرة، أما خمسون ألفًا منها فلها كل اتساع *القرصنة الرومانسية*.

آه ، لكن الأموال كان ينبغى حقًا أن تكون لى! كم رغبة لى توقفت مرة بعد مرة وهى فى سبيل التحقيق، لا لشىء إلا حاجتى إلى المال! إن هذا لا يليق بى. ولو كان القدر ظالما فحسب لسامحته ، ولكن فساد ذوقه شىء لا يغتفر. ليس عناء فحسب أن يحار رجل مثلى فى دفع أجرة منزله، أو يضطر إلى عد نقوده لشراء تذكرة قطار فى الدرجة الثانية – إن هذا فظيع!

وواضح كذلك أن الضياع التى ورثها نيكهيل ليست بذات فائدة له. فلو كان فقيرًا لناسبه ذلك، ولشد مستبشرًا أرسان عربة السوقية الفقيرة هو وأستاذه المبجل.

أتمنى أن تتاح لى مرة واحدة فرصة الإلقاء بخمسين ألف روبية فى خدمة بلادى وإرضاء نفسي. لقد ولدت « نوابًا » وإنه لحلم من أحلامى الكبيرة أن أطرح رداء الفقر هذا ولو يومًا واحدًا وأرى نفسى على حقيقتها .

على أنى أشك كثيرًا فى أن تصل يد بيمالا إلى تلك الروبيات الخمسين ألفًا. لعلنا لا نحصل إلا على ألف أو ألفين. إن الرجل العاقل يقنع بنصف رغيف، بل بكسرة ، فذلك خير من ألا يجد خبزًا .

يجب أن أعود إلى هذه التأملات الشخصية فيما بعد، لقد جاء الخبر أنى مطلوب حالاً . هناك عثرة ما ...

يبدو أن الشرطة قد استدلت على الرجل الذى أغرق لنا قارب ميرجان. إنه مجرم عائد ، وهم يتعقبونه الآن، ولكن خبرته ينبغى أن تمنعه من إذاعة الأسرار. ومع ذلك فمن يدرى ؟ إن نيكهيل ثائر ، وقد لا يستطيع وكيله أن يدبر الأمور كما يريد.

قال الوكيل حين رأيته : إذا وقعت ياسيدى فسأضطر إلى جرك معى!

فسألته : وما الحبل الذى يمكنك أن تشدنى به؟

- لدى رسالة منك وعدة رسائل من أموليا بابو .

لم ألحظ أن الرسالة التى كانت عليها كلمة « عاجل » والتى سارعت بكتابة ردها كا يقصد بها هذا الغرض وحده على وجه الاستعجال! لقد بدأت أتعلم أشياء كثيرة .

والنقطة الآن هى أنه يجب رشوة الشرطة وإسكات ميرجان بإعطائه مبلغًا من المال عوضًا عن قاربه. وكذلك يظهر أن الجانب الأكبر من ثمن مغامرتنا الوطنية هذه سيتخذ سبيله ربحًا إلى جيوب وكيل نيكهيل. ولكننى يجب أن أغمض عينى عن ذلك فى الوقت الحاضر . ألا يهتف « باندى ماترم» بمثل حماستى؟

إن مثل هذا العمل لابد أن يسير بآنية مخروقة يتسرب منها أكثر مما تأتى به. وفينا جميعًا قدر من الحكم الأخلاقى مخبوء ومدخر فى باطننا ، ولهذا كدت أسخط على الوكيل وأدخل فى يومياتى خطبة وعظية فى أن مواطنينا غير جديرين بالثقة . ولكن يجب أن أقر بالشكر لله أن أعطانى عقلاً واضح البصيرة لا يسمح بشىء من الغموض فى داخله أو خارجه ، إننى قد أخدع غيرى ولكنى لا أخدع نفسى أبداً. ولهذا لم أستطع أن أستمر فى غضبى.

كل ما كان حقيقياً فليس بخير ولا شر ، إنما هو حقيقى فحسب، وذلك هو العلم . ليست البحيرة إلا بقية من الماء لم تتشربها الأرض، وتحت عقيدة « باندى مانرم» – وفى قرار كل عمل فى هذه الدنيا – هناك منطقة من الوحل يجب أن نحسب حساب قدرتها على الامتصاص. سينال الوكيل مطالبه، وأنا أيضًا لى مطالبى، وهذه المطالب الأقل هى جزء من مطالب القضية الكبيرة، فالحصان يجب أن يُطعم والعجلات يجب أن تُشحم إذا أريد المزيد من التقدم.

وأول الأمر وآخره أننا يجب أن نحصل على النقود سريعًا، ويجب أن نأخذ ما يصل إلى أيدينا أولا لأننا لا نملك أن ننتظر . وإنى لأعلم أن العاجلة قد تذهب بالآجلة، وأن خمسة آلاف روبية اليوم قد تضيع علينا خمسين ألفًا غداً، ولكنى يجب أن أقبل هذا الغرم. ألم آخذ على نيكهيل أن الذين يسيرون فى طريق الحكمة ناظرين إلى المستقبل لم

يعرفوا قط ما التضحية ؟ إننا نحن الطامعين الذين يجب أن تضحى بطمعنا في كل خطوة!

من كبائر الإنسان الرغبة، هذه كبيرة الرجال الذين هم رجال . أما الضلال فإنه للجبناء وحدهم، وهو للرجال معطل. لأن الضلال يبقيهم مغلفين فى الماضي والمستقبل، ولكنه هو الشيطان الذى يريك خطاهم فى الحاضر. إن أولئك الذين ينصتون دائماً لنداء البعيد مهملين نداء القريب مثلهم كمثل ساكونتالا[1] التي تستغرقها ذكريات حبيبها، ويأتى الضيف، ولا يؤبه له، وتنزل اللعنة لتحرمهم مما يرغبون فيه.

منذ أيام ضغطت على يد بيمالا. لا تزال هذه اللمسة تهز نفسها كما تتموج فى نفسي. ويجب ألا يميت هزتها التكرار، فينزل ما هو الآن موسيقى إلي محض جدال. ليس فى عقلها الآن محل للسؤال « لماذا ؟ » وبيمالا هى إحدى تلك المخلوقات التى لا تستغنى عن الوهم ، فيجب ألا أحرمها كفايتها منه.

أما أنا فعملي كثير حتي أنى يجب أن أقنع فى الوقت الحاضر بحباب كأس العاطفة . إيه ياابن الرغبة ! اكبح طمعك، ودرب يدك على مزهر الوهم حتى تبعث كل لطائف الإيماء، فليس هذا وقت اشتفاف الكأس إلى الثمالة.

---

(١) بعد أن عاد الملك حبيب ساكونتالا إلى مملكته ، على وعد أن يبعث فى طلبها، استغرقها التفكير فيه حتى أنها لم تسمع نداء ضيفها الناسك، فلعنها قائلا : إن من تحبه سينساها نسيانا . (المترجم).

(٩)

عملنا يتقدم بخطى سريعة. ولكننا وإن بححنا أصواتنا معلنين أن المسلمين إخوة لنا فقد بدأنا ندرك أننا لن نستطيع أبداً أن نحولهم إلى صفنا تماماً. فيجب إذن كبحهم كبحاً تاماً وإفهامهم أننا نحن السادة. إنهم الآن يكشرون عن نواجذهم ولكن سيأتى اليوم الذى يرقصون فيه كالدببة الأليفة على الأنغام التى نعزفها نحن.

لقد اعترض نيكهيل قائلا : إذا كانت فكرة وحدة الهند فكرة حقيقية فالمسلمون جزء ضرورى منها.

قلت : أجل . ولكننا يجب أن نعـرف مكانهم ونلزمـهم إياه، وإلا فسوف يثيرون المتاعب دائماً.

- إذن فأنت تريد أن تثير المتاعب لتمنع المتاعب!

- وما خطتك إذاً؟

فقال نيكهيل ملمحاً: ليس هناك إلا طريق واحد معروف لتجنب النزاع.

إنى أعلم أن حديث نيكهيل ينتهى دائماً بحكمة، كالحكايات التى يكتبها الناس الطيبون . وأعجب ما فى الأمر أنه لايزال يؤمن بالمبادئ الخلقية مع علمه التام بها، فهو لا يمكن أن يخرج أبداً عن حدود التلميذ،

وفضيلته الوحيدة هي إخلاصه . ومصيبة أمثاله هي أنهم لا يريدون الاعتراف بأن ثمة نهاية حتى في الموت نفسه، بل يبقون عيونهم مشدودة أبداً إلى الآخرة.

وقد كنت أفكر منذ زمن بعيد في خطة لو استطعت تنفيذها لأرسلت في البلاد كلها ضراما. فالوطنية الحقة لا يمكن أن تُبعث في أبناء بلادنا إلا إذا استطاعوا أن يتمثلوا صورة الوطن. يجب أن نتخذ من الوطن معبوداً .

وقد أدرك زملائي على الفور ما أعنيه فصاحوا : « فلنتخيل صورة مناسبة! » فوعظتهم: « لن يصلح الأمر إذا تخيلتموها. يجب أن نأخذ صورة من الصور الشائعة التي تعد ممثلة للوطن، فتتجه عبادة الشعب نحوها فائضة في مجاري العادة العميقة».

ولكن نيكهيل يأبى إلا أن يجادل حتى في هذا . قال لي منذ مدة : يجب ألا نستعين بالأوهام على ما نؤمن أنه الحق.

قلت : الأوهام لازمة للعقول المحدودة، وهذه هي الطبقة التي ينتمي إليها القسم الأكبر من العالم. لهذا تقام الآلهة في كل بلد حتى تحافظ على أوهام الشعب، فإن الناس يشعرون أتم الشعور بضعفهم.

فأجاب : كلا، بل إننا محتاجون إلى الله ليبدد أوهامنا . أما المعبودات التي تستبقي الحياة لأوهامنا فإنها آلهة باطلة.

– وأى ضير فى ذلك ؛ إن لم يكن بد فلندع الآلهة الباطلة نفسها ولا ندع عملنا يفشل. من سوء حظنا أن فى أوهامنا قدراً كافياً من الحياة، ولكننا لا نعرف كيف نستغلها. انظر إلى البراهمة . إننا نعاملهم كأنهم أنصاف آلهة ولا ننفك نمسح التراب عن أقدامهم ولكنهم قوة توشك أن تضيع.

ستبقى أبداً طبقة كبيرة من الناس دأبهم التذلل، لايمكنك أن تدفعهم إلى عمل شىء أبداً إلا إذا تلوثوا بتراب قدمى شخص ما، سواء أكان على رءوسهم أم على ظهورهم! فأى خسارة بعد أن احتفظنا بالبراهمة فى مخزن أسلحتنا طوال هذه العصور – مشحوذين صالحين للخدمة – ألا تستطاع الاستفادة منها لتحريك هذه الغوغاء فى وقت حاجتنا!

ولكن إقناع نيكهيل بهذا كله أمر محال. فإن فى نيكهيل تعصباً للحق – كأنما يمكن أن يوجد واقع موضوعى كهذا ! وكم من مرة حاولت أن أشرح له أنه حيث يوجد الباطل وجوداً حقيقياً فإنه يكون هو الحق. لقد كان هذا مفهوماً فى بلادنا فى الأزمان الماضية ، ومن ثم وجدوا الشجاعة ليعلنوا أن الباطل هو الحق لضعاف الأفهام . فالذين يمكنهم أن يؤمنوا حقاً بأن بلادهم إلهة معبودة أولئك تقوم صورتها عندهم مقام الحقيقة. إن طبيعتنا وتقاليدنا تجعلنا عاجزين عن إدراك بلادنا كما هى، ولكننا نستطيع أن نصل فى سهولة إلى الإيمان بصورتها وعلى الذين يريدون أن يعملوا عملاً صحيحاً ألا يتجاهلوا الحقيقة.

غير أن نيكهيل ثار. وصاح : لأنك فقدت القدرة على السير فى طريق التماس الحق فأنت لا تزال تترقب معجزة ، هبة تهبط عليك من السماء لهذا فإن كل ما تستطيع أن تفكر فيه حين تأخرت فى خدمة بلادك قرونًا هو أن تتخذ منها صنمًا وتمد يديك منتظرًا منه الهبات.

قلت : إننا نريد أن نصنع المستحيل ، ولهذا يجب أن تتخذ بلادنا إلهًا.

فأجاب نيكهيل : تعنى أنك مشفق من الأعمال الممكنة ، ماهو قائم فعلاً فليترك ولايمس ، لكن يجب أن تكون ثمة نتيجة خارقة للطبيعة.

قلت أخيرًا وقد استبد بى الغضب : اسمع يانيكهيل . إن ماتقوله قد يصلح دروسًا أخلاقية. هذه الأفكار قد استنفدت أغراضها فى مرحلة من تطور الإنسان، كاللبن للرضع ولكنها لا تصلح الآن وقد نبتت للإنسان أسنان.

ألسنا نرى أمام أعيننا كيف تنبثق فى كل جانب أشياء لم نحلم قط بأن نلقى بذورها؟ فبأى قوة ظهرت؟ بقوة ألوهية بلدنا التى أخذت تتجلى. وعلى عبقرى هذا العصر أن يمنح الألوهية صورتها، والعبقرية لا تجادل بل تخلق. ما أنا إلا معطى الشكل لما تتخيله البلاد.

سأذيع على الملأ أن الإلهة اصطفتنى بحلم. سأقول للبراهمة إنهم اختيروا كهنة لها ، وأن سبب سقطتهم هو إهمالهم الواجب فى رعى

عبادتها. أتقول : إنى أتفوه إذًا بأكاذيب ؟ ولكنى أقول لك : إنها الحقيقة ، بل أكثر من ذلك، إنها الحقيقة التى طالما انتظرت البلاد أن تعلمها من شفتى . لئن تمكنت من إبلاغ رسالتى لترين العجب من فعلها.

قال نيكهيل : الذى أخشاه هو أن عمرى محدود، وأن الفعل الذى تتحدث عنه ليس بالفعل الأخير، فسوف تكون له آثار لا تظهر فى الحال.
قلت : إنما أبحث عن الفعل الذى ينتمى إلى اليوم.

فأجاب نيكهيل : أما الفعل الذى أبحث عنه فينتمى إلى الزمن كله.

لعل نيكهيل نال قسطه من موهبة البنغال العظمى. أعنى الخيال ، ولكنه سمح لنوع من التحرج أجنبى عنه أن يحجبه حتى كاد يقتله. انظر إلى عبادة «درجا» التى رفعتها البنغال إلى تلك المنزلة العليا. إننى أستطيع أن أقسم على أن درجا إلهة سياسية تصورت فيها روح البطولة أيام كانت البنغال تتضرع للخلاص من سلطان المسلمين. فأى إقليم آخر فى الهند استطاع أن يعبر عن المثل الأعلى الذى ينشده كروعة هذا التعبير المنظور.

لم يكشف عن فقد نيكهيل لنعمة الخيال المقدسة مثل رده علىّ إذ قال: لقد طلب المراثا والسيخ الثمار من الأسلحة التى حملوها هم أنفسهم، أما البنغالى فإنه اكتفى بوضع الأسلحة فى يدى إلهته والتمتمة بالأدعية لها. ولأن بلاده لم تكن إلهة حقًا فقد كانت الثمرة الوحيدة التى حصل عليها هى الرءوس المقطوعة ، رءوس الماعز والجاموس المضحى

بها. أما يوم أن نطلب خير بلادنا من الطريق المستقيم فسيمنحنا الثمار الحقة من هو أكبر من بلادنا.

الشيء المؤسف هو أن كلمات نيكهيل تبدو جميلة حين توضع على الورق، ولكن كلماتي لا يراد بها أن تخط على الورق بل أن ترسم في قلب البلاد. إن البانديت يسجل « مقالته عن الزراعة» بحبر المطبعة، ولكن الزارع بسن محراثه يطبع مجهوده عميقًا في الأرض.

(١٠)

عندما رأيت بيمالا فى المرة الثانية لم أحجم عن رفع النغمة إلى طبقة عالية . فبدأت بقولى : هل استطعنا أن نؤمن من كل قلوبنا بالإله الذى ولدنا كل هذا الملايين من السنين لنعبده ، حتى تجلى لنا آخر الأمر؟

ومضيت قائلاً : طالما قلت لك: إننى لو لم أرك لما استطعت أبداً أن أعرف بلادى كلها على أنها « واحد » . لست أدرى بعد إن كنت تفهمين ما أعنيه . إن الآلهة تكون غير مرئية فى سمائها فقط - أما على الأرض ؛ فإنها تظهر نفسها للبشر.

فنظرت بيمالا إلىّ نظرة غريبة وهى تجيب بوقار: بل إننى أفهمك يا سنديب. وكانت هذه هى أول مرة تنادينى فيها « سنديب » مجرداً .

ومضيت أقول : إن كريشنا الذى لم يكن أرجونا يعرفه عادة إلا على أنه سائق عربة، كانت له أيضًا صورته الكونية ، وقد رأى أرجونا هذه الصورة أيضا ذات يوم. وفى ذلك اليوم رأى الحق. لقد رأيت صورتك الكونية فى بلادى. إن الكنج والبراهما بترا هما سلاسل الذهب التى تلتف وتلتف حول عنقك، وفى الغابات التى تحف بالشواطئ البعيدة لمياه النهر الداكنة رأيت أهدابك المكحلة، وبريق ساريك القلاب يلمع أمامى فى لعب النور والظل على أعواد القمح الأخضر المتمايلة ،

وحرارة الصيف المتقدة التى تجعل السماء كلها ترقد لاهثة كأسد أحمر اللسان فى الصحراء ما هى إلا ضياؤك القاسى.

وإذا أنعمت الآلهة على عبدها بتجليها فى هذا المظهر الرائع فعلىّ أن أعلن عبادتها في طول البلاد وعرضها، وعند ذلك سوف تكون للبلاد حياة جديدة. « فى معبد بعد معبد نصنع صورتك[١]» ولكن شعبنا لم يدرك ذلك بعد حق الإدراك . لهذا أريد أن أدعوهم باسمك وأقدم لعبادتهم صورة لا يستطيع أحد أن يضن عليها باعتقاده. امنحينى تلك النعمة، ذلك السلطان.

مالت أهداب بيمالا إلى أسفل وتصلبت فى كرسيها كتمثال من الحجر. فلو مضيت فى كلامى لأصابتها غيبوبة . وعندما سكت فتحت عينيها واسعتين وتمتمت وهى شاخصة ببصرها كأنها غائبة عن الوعى: « أيها المسافر في طريق الهلاك! منذا الذى يستطيع صدك؟ ألست أرى أن أحداً لن يقف فى سبيل رغباتك؟ سيضع الملوك تيجانهم عند قدميك، ويسارع الأغنياء بفتح خزائنهم لمرضاتك، والذين لا يملكون غير حياتهم سيضرعون أن يؤذن لهم بتقديمها . يا مليكى، يا إلهى ! أنا لا أدرى ماذا رأيت فى؟! ولكنى رأيت جلال عظمتك فى قلبى. من أنا أو ما أنا فى محضرها ؟ يا لقوة التدمير الرهيبة ! إننى لن

---

(١) بيت من النشيد الوطنى « باندى ماترم » ليانكيم تشاترجى.

أعرف الحياة الحقيقية أبداً حتى تقتلنى وتمحقنى ! إننى لم أعد أستطيع احتمالها .. قلبى ينشق.

وانزلقت بيمالا عن كرسيها وترامت عند قدمى، وعانقتهما وراحت تبكى وتبكى وتبكى.

هذه هى المغناطيسية حقا، السحر الذى يمكنه أن يخضع العالم! لا مادة ولا أسلحة بل ضلال الإيحاء الذى لايقاوم. منذا الذى يقول : « إن الحق سينتصر؟[1] » الضلال هو الظافر فى النهاية . لقد فهم البنغالى ذلك حين تخيل صورة الإلهة ذات الرءوس العشرة ممتطية صهوة أسدها، ونشر عبادتها فى البلاد. يجب أن تخلق البنغال الآن صورة جديدة لتسحرالعالم وتغزوه. باندى ما ترم!

رفعتُ بيمالا برفق إلى مقعدها، ولكيلا يظهر رد الفعل رحت أقول دون أن أضيع وقتا : يامليكتى ! لقد كلفتنى الأم المقدسة أن أؤسس عبادتها فى البلاد، ولكنى - وياللأسف فقير.

وكانت بيمالا لاتزال متضرجة الوجه، غائمة العينين غليظة النبرات، حين أجابت: أنت فقير! أليس كل ما يمتلكه كل واحد هو لك؟ لماذا تمتلىء صناديقى بالحلى ؟ خذ منى كل ذهبى وجواهرى لعبادتك. فليس لها فائدة عندى!

---

(١) اقتباس من الأوبانيشاد.

لقد عرضت بيمالا علىّ حليها من قبل ، ومع أنى لم أتعود وضع الحدود فقد وجدت من الضرورى أن أضع حداً فاصلا هنا [1] وإنى لأعلم لماذا أشعر بهذا التردد ، فالرجل هو الذى يجب أن يقدم الحلى للمرأة ، وأن يأخذها منها جرح لرجولته.

ولكننى يجب أن أنسى ذاتى. هل «أنا» الذى آخذها؟ إنها للأم المقدسة ! كى تصب عند قدميها عبادة لها. ولكن يجب أن يكون حفلا للعبادة لم تر البلاد مثيلا له من قبل. يجب أن يكون يوماً مذكوراً فى تاريخنا. ليكونن تراثى الأكبر الذى أتركه للأمة. إن الجهلاء يعبدون الآلهة، وأنا - سنديب - سأخلقها.

ولكن هذا كله شأو بعيد. فماذا عن الأمر العاجل؟ إننا بحاجة ماسة إلى ثلاثة آلاف على الأقل، ولو كانت خمسة لوفت بما نريد. ولكن كيف لى أن أذكر النقود بعد أن حلقنا هذا التحليق ؟ ومع ذلك فإن الوقت ثمين!

---

(١) هناك عالم من العواطف يرتبط بالحلى التى تلبسها المرأة فى البنغال . فهى لاتشير إلى حب المعطى واحترامه فحسب، بل إن لبسها يرمز لكل معنى عزيز فى الزوجية : لعناية الزوجة الدائمة بخير زوجها ، لقيامها بواجبات المنزل المادية والروحية الموكولة إلى رعايتها . وعندما يموت الزوج وتنتقل المسئولية عن المنزل إلى امرأة أخرى تهجر الحلى كلها علامة على ابتعاد الأرملة عن مشاغل الدنيا. والتخلى عن الحلى فى غير هذه الحالة هو دائماً علامة شقاء بالغ. ولذا يثير شهامة أى بنغالى يتفق أن يراه (المترجم).

دست كل تردد تحت قدمى حين هببت واقتحمت الموقف:

ياملكة، إن كيسنا فارغ، وعملنا يوشك أن يتوقف!

وأجفلت بيمالا. واستطعت أن أرى أنها لا تزال تفكر فى تلك الخمسين ألفًا المتعذرة، أى حمل – ولا شك – كان يثقل صدرها، ولعلها كانت تكابده خلال ليال مسهدة! وأى شىء آخر لديها لتعبر عن عبادتها التى ملؤها الحب؟

لقد حيل بينها وبين أن تقدم قلبها عند قدى، فهى تتوق إلى أن تحمّل هنا القدر من المال الذى تئودها ضخامته رسالة مشاعرها الحبيسة. إن التفكير فيما لا بد قد عانته يبعث فىّ وخزة ألم. فإنها اليوم كلها لى. لقد ذهبت شدة اقتلاع النبات من الجذور، وكل ما بقى الآن هو تعهدهُ بالرعاية والغذاء.

قلت : يامليكتى! هذه الخمسون ألفًا غير لازمة الآن. خمسة آلاف بل ثلاثة – على ما أقدر – يمكن أن تكفى فى الوقت الحاضر.

وثب قلبها من فرحة الخلاص. قالت : سأحضر لك خمسة آلاف – فى نبرات كأنها انطلاق أغرودة ، الأغرودة التى أنشدتها راديكا فى أغانى الفياشنافا:

« لحبيبى سأعقد فى شعرى

زهرة لانظير لها فى العوالم الثلاثة ! »

نفس النغمة ونفس الأغنية : خمسة آلاف سأحضر لك! تلك الزهرة سأعقد في شعرى!

ضيق الناى يجلب هذه الغنائية. يجب ألا أسمح لضغط الطمع أن يفرطح القصبة وإلا فإنى أخشى أن تحل محل الموسيقى هذه الأسئلة: لماذا؟ فيم يلزم هذا كله؟ من أين أحصل عليه ؟ - ولا كلمة واحدة من هذا تتفق قافيتها مع أغنية راديكا! لهذا أقول : إن الوهم وحده هو الواقع - إنه الناى نفسه، أما الحقيقة فليست إلا جوفه الفارغ، لقد بدأ نيكهيل أخيرا يشعر بهذا الفراغ المطلق - إنه ظاهر فى وجهه وهذا شىء مؤلم، حتى لى أنا، ولكن نيكهيل كان يفخر بأنه يطلب الحقيقة، بينما كان فخرى بأنى لن أدع الوهم يفلت من قبضتى أبداً. وكل نال مايهواه، فلم الشكوى؟

ولكى أستبقى قلب بيمالا فى هواء المثالية المنقى؛ قطعت كل حديث آخر في أمر الخمسة آلاف روبية . وعدت إلى الإلهة ماحقة الشياطين وما ينبغى لها من العبادة. متى يقام الحفل وأين؟ إن سوقًا سنوية كبيرة تعقد فى « رويمارى» داخل إمارة نيكهيل، ويجتمع فيها مئات الألوف من الحجاج، سيكون هذا مكانًا رائعًا لإدخال عبادة إلهتنا!

واشتعلت حماسة بيمالا. لم يكن هذا إحراقًا للأقمشة الأجنبية أو لبيادر الناس، فلن يكون لنيكهيل نفسه اعتراض ما. هكذا فكرت، ولكنى ابتسمت بينى وبين نفسى. ما أقل ما يعرف هذان الشخصان عن

أحدهما الأخر، هذان الشخصان اللذان عاشا معا ليل نهار، تسع سنوات كاملة! لعلهما يعرفان شيئًا عن حياتهما البيتية، ولكنهما إذا جاءا إلى المشاغل الخارجية ضلا ضلالا مبينا. لقد كانا مطمئنين إلى الاعتقاد بتمام الانسجام بين البيت والخارج، وهما اليوم يعلمان - لخسارتهما - أن الوقت قد فات بحيث لا يستطاع إصلاح إهمال السنين، وإيجاد الإنسجام بينهما الآن.

وما قيمة ذلك؟ فليعرف المخطئون خطأهم حين يصطدمون بالعالم. ماذا يعنينى أنا من ارتباكهم؟ إننى الآن أجد من الملل ترك بيمالا تحلق طويلا « كنفاخة » أسيرة فى أجواء أثيرية. الأفضل أن أفرغ تمامًا من الأمر الذى فى يدى.

حين نهضت بيمالا منصرفة وكادت تبلغ الباب قلت أشد ما أكون عدم اكتراث : إذًا فالنقود....

فتوقفت بيمالا وواجهتى مرتدة وهى تقول : عند نهاية الشهر، حين تستحق رواتبنا ...

- أخشى أن يكون الوقت قد فات.

- متى تريدها إذا؟

- غدا.

- غدا تأخذها.

الفصل الثامن

حكاية نيكهيل

(١٠)

بدأت الصحف المحلية تنشر فقرات ورسائل ضدى، وقد سمعت أن الصور الكاريكاتورية والمقطوعات الهجائية آتية على الأثر. والنكات والفكاهات تتناثر هنا وهناك، والبلاد كله ثائرة للأكاذيب التى تنشر على هذا النحو: هم يعلمون أن لديهم احتكار القذف بالوحل، ولا يمكن أن ينجو العابر البرىء دون أن يلوث.

هم يقولون إن سكان إمارتى بقضهم وقضيضهم مؤيدون «للسواديشى»، ولكنهم لا يجرءون على الظهور خوفًا منى، والقليلون الذين وجدوا الشجاعة الكافية ليتحدونى قد شعروا بوطأة اضطهادى. وثمة اتفاق سرى بينى وبين الشرطة، واتصال شخصى بينى وبين قاضى التحقيق. ويعتقد أن جهودى الجنونية لإضافة لقب أجنبى من كسبى إلى اللقب الذى ورثته لن تذهب سدى.

ولكن الصحف مملوءة بالمديح لأولئك الأبناء البررة للوطن، ملاك الأراضى من آل « كوندو» و« تشاكرافارتى » ولو كان فى البلاد - كما يقولون - عدد قليل آخر من مثل هؤلاء الوطنيين المخلصين لندبت مصانع منشستر نفسها على نغمة « باندى ماترم ».

ثم تأتى رسالة بالحبر الأحمر الدموى تسرد أسماء ملاك الأراضى الخونة الذين أحرقت خزائنهم؛ لأنهم امتنعوا عن تأييد القضية. وتمضى الرسالة لتقول : إن النار المقدسة قد بعثت لتؤدى وظيفتها السامية فى تطهير البلاد، وإن ثمة هيئات أخرى تعمل أيضًا لمنع أولئك الذين ليسوا بأبناء أوفياء للوطن من الإثقال على حجره. والتوقيع ظاهر أنه اسم مستعار.

ولم يخف على أن هذا من فعل طلاب الأقاليم. فبعثت إلى بعضهم وأريتهم الرسالة.

فأنبأنى طالب البكالوريوس عابسًا أنهم قد سمعوا أيضًا بأن عصبة من الوطنيين المستقلين قد تكونت وأنهم لن يحجموا عن شىء فى سبيل إزالة كل العقبات التى تعترض نجاح « السواديشى ».

قلت : لو خضع واحد من مواطنينا لهؤلاء المغامرين الأدعياء لتكونن هذه هزيمة للبلاد!

فقال طالب التاريخ : إننا لا نفهم ماذا تعنى يا مهراجا.

فحاولت أن أشرح : لقد أشرفت بلادنا على الموت بسبب الخوف وحده -- من خوف الآلهة إلى خوف الشرطة. وإذا أسستم باسم الحرية خوف غول جديد مهما يكن اسمه، وإذا أردتم أن ترفعوا علمكم الظافر على جبين البلاد بوسيلة القهر الصريح، فلن يستطيع محب صادق للوطن أن يخضع لقراركم.

فاستمر طالب التاريخ يقول: هل ثم بلد من البلاد ياسيدى يكون فيه الخضوع للحكومة غير ناشىء عن الخوف؟

فأجبت : إن الحرية التى توجد فى بلد ما يمكن أن تقاس بمدى سلطان الخوف هذا. فحيث يكون تهديده مقصوراً على أولئك الذين يميلون إلى الإضرار أو السلب تستطيع الحكومة أن تدعى أنها حررت الإنسان من عدوان الإنسان. ولكن إذا كان الخوف هو الذى يقرر ماذا يلبس الناس أو أين يتاجرون أو ماذا يأكلون فهنا تكون حرية إرادة الإنسان غير معترف بها على الإطلاق، ومعنى الإنسانية قد أتلف من الجذور.

وعاد طالب التاريخ يقول : ألسنا نرى مثل هذ القهر للإرادة الفردية فى البلاد الأخرى أيضاً؟

فقلت : ومن ينكر ذلك؟ ولكن الإنسان فى كل بلد قد أهلك نفسه بقدر سماحه للعبودية أن تزدهر.

وتدخل ماجستير فى الآداب قائلاً : أليس هذا أدعى إلى إثبات أن النخاسة فطرة فى الإنسان - حقيقة أساسية فى طبيعته؟

وقال أحد الخريجين: لقد أوضح سنديب بابو الأمر كله. فضرب لنا مثلا بهاريش كوندو، المالك المجاور لكم. إنك لا تستطيع أن تخرج أوقية واحدة من الملح الأجنبى من ولايته. لماذا؟ لأنه ظل يحكم دائما بيد من حديد . إن أكبر المصائب لمن هم بطبعهم عبيد هى ألا يكون لهم سيد قوى.

وجاراه فى نغمته طالب لم يتخرج بعد: ألم تسمع ياسيدى بذلك المؤاجر المزعج عند تشاكرا فارتى، المالك الآخر الغريب - كيف سلط عليه القانون حتى انتهى إلى الفقر المدقع؟ ولما لم يجد ما يأكله آخر الأمر لجأ إلى بيع حلى زوجته الفضية، ولكن أحداً لم يجرؤ على شرائها. ثم عرض عليه وكيل تشاكرا فارتى خمس روبيات فى الجميع، وكانت تساوى ثلاثين، ولكنه كان مضطراً لأن يقبل أو يموت جوعًا. وبعد أن أخذ الوكيل منه الصرة قال له ببرود: إن هذه الروبيات الخمس ستخصم من إيجاره! وقد هممنا أن نقطع كل صلاتنا بتشاكرافارتى ووكيله بعد هذا، ولكن سنديب بابو قال لنا : إننا لو أقصينا كل الأحياء فلن نجد إلا جثثا من المحارق لنواصل العمل معها!

وأوضح لنا أن هؤلاء الرجال الأحياء يعرفون ماذا يريدون وكيف يحصلون عليه. فقد ولدوا سادة . أما أولئك الذين لا يعرفون كيف تكون

لهم رغـائبـهم؛ فإنهـم يجب أن يعيشـوا وفـقًـا لرغـبات أمـثـال هؤلاء أو يموتوا من أجلها . وقارن سنديب بابو بينهما – كوندو وتشاكرا فارتى – وبينكم يا مـهـراجـا . وقـال: إنكم على نـيل مـقـاصـدكم لن تنجـحـوا فى غرس « السواديشى » فى ولايتكم.

قلت: إن رغبتى هى أن أغرس شيئًا أعظم من « السواديشى » . إننى لا أريد أخشابًا ميتة بل أشجارًا حية، وهذه تحتاج إلى وقت لتنمو.

فقـال طالب التـاريخ مـسـتـهزئًا: أخشى ياسـيـدى ألا تـحـصل على خشبة ولا شجرة. إن سنديب بابو يعلمنا – وتعليمه الحق – أن من أراد الحصول على شىء؛ فعليه أن ينتزعه. وكلنا نحتاج إلى قت لنتعلم هذا، فـهو مناقض لما لقناه فى المدرسة . لقد رأيت بعينى أن جابيًا من جباة هاريش كوندو حين لم يجد عند مؤاجر شيئًا يباع ليفى بالإجارة عمد إلى بيع زوجته الشابة! ولم يعوزه المشترون ، ونال المالك ماطلب. الحق أقول لك ياسيدى : إن منظر مصيبة هذا الرجل قد منع عنى النوم ليالى! ولكننى على الرغم من تأثرى أدركت أن من يعـرف كـيف يحـصل على النقـود التى يطلبـهـا ولو ببـيع زوجـة مـدينه هو رجل أفـضل منى. وإنى لأعترف بأن ذلك فوق طاقتى ، فإنى ضـعيف ، تمتلئ عيناى بالدموع . لئن كان فـى مـقـدور أحـد أن ينقذ بلادنا ليكونن أمـثـال كوندو وتشـاكرا فارتى وموظفيهما هم منقذيها!

لقد جزعت لما سمعته جزعًا تقصر عنه الكلمات، وصحت : إن كان ما تقوله حقًا فإني أرى جليًا أن جهد حياتي يجب ألا ينصرف لشيء غير إنقاذ البلاد من أمثال كوندو وتشاكرا فارتي وموظفيهما هؤلاء. إن العبودية التي نفذت إلى عظامنا تنطق في هذه الفرصة استبدادًا فظيعًا . لقد تعودتم الخضوع للسلطة من طريق الخوف حتى آمنتم أن إخضاع الآخرين دين. ليكونن صراعي ضد هذا الضعف، ضد هذه القسوة.

هذه الأشياء التي تبدو بسيطة للناس العاديين تلتوي في عقول أصحاب البكالوريوسات والماجستيرات عندنا، وكأن الغرض الوحيد من مناقشاتهم التاريخية هو إزهاق الحق!

(١١)

إننى حائر فى أمر زوجة عم بانشو المزيفة. فمن العسير إثبات كذب إدعائها، لأن الحادثة الحقيقية قد يكون شهودها قليلين أو معدومين، ولكن من الممكن دائمًا أن تحشد براهين لا تحصى على شىء لم يحدث. وظاهر أن الغرض من هذه الخطوة هو جعل بيع منزل بانشو إلىّ كأن لم يكن.

ولما لم أجد مخرجًا آخر فكرت أن أقطع بانشو مكانًا فى أرضى وأسمح له بإقامة كوخ عليه. ولكن أستاذى أبى علىّ ذلك، وقال: إننى يجب ألا أنهزم أمام تلك الأساليب الوضيعة بهذه السهولة، وتطوع أن يتولى الأمر بنفسه . فصحت بدهشة شديدة : أنت ياسيدى!

فأجاب : نعم أنا .

ولم أستطع أن أرى بشىء من الوضوح ماذا عسى أن يفعل أستاذى ليفسد هذه الحيل القضائية . وفى ذلك المساء، لم يظهر فى الوقت الذى تعود أن يجيئنى فيه. وحين سألت عنه قال خادمه : إنه غادر المنزل ومعه أشياء قليلة فى حقيبة صغيرة، وفراش خفيف، قائلا إنه: سيعود بعد أيام. فحسبته خرج ليبحث عن شهود فى قرية عم بانشو. ولكننى كنت موقنًا أنه إن كان هذا مطلبه فلن يظفر بطائل...

فى أثناء النهار نسيت نفسى فى عملى ، حين يكتهل نهار الخريف تربد ألوان السماء، وكذاك مشاعر نفسى . كثيرون فى هذه الدنيا تقيم

نفوسهم فى منازل مبينة بالآجر، فهم يستطيعون أن يتجاهلوا مايسمى بالخارج، ولكن نفسى تعيش فى الخلاء تحت الأشجار ، وتستقبل الرسائل التى تحملها الرياح الطليقة دون وساطة ، وتستجيب من أعماق قلبها لكل ترانيم النور والظلام.

فى إشراق النهار حين تتزاحم الدنيا سعيًا وراء أعمالها التى لاتحصى، يبدو لى أن حياتى لاتريد شيئًا آخر. لكن حين تذوى ألوان السماء وتقفل العرش على نوافذها يقول لى قلبى : إن المساء لاينزل إلا ليحجب الدنيا، ليحدد الوقت الذى يجب أن يمتلئ فيه الظلام « بالواحد». هذه هى الغاية التى تتآمر من أجلها الأرض والسماء والمياه، ولست بقادر على أن أقسى إحساسى بحيث لا أتقبل معناها. لذلك حين يعمق الغسق فوق الدنيا كرنوة عيون المحبوبة السود يقول لى وجودى كله: إن العمل لايمكن أن يكون هو وحده حقيقة الحياة ، وإن العمل ليس كل مافى الإنسان ولا كل ما ينتهى إليه الإنسان ، فالإنسان ليس عبداً فحسب، ولو كانت عبودية للحق والخير .

واحسرتاه يانيكهيل! هل فارقتِ إلى الأبد ذاتك تلك التى كانت تنطلق تحت ضوء النجوم، لتغوص فى أعماق ظلمة الليل اللانهائية بعد أن ينتهى النهار؟ ما أشد وحشة الذى يفتقد الرفيق فى زحمة الحياة!

منذ أيام وقد بلغ الأصيل نقطة التقاء النهار بالليل لم يكن لدى عمل ولاميل إليه، ولم يكن أستاذى معى ليؤنسنى. وبقلب خاوٍ تائه يتوق

إلى أن يرسو على شيء ما قادتي خطاى إلى الحدائق الداخلية. وكنت مولعا بالأقاحي، لدى صفوف منها على اختلاف أنواعها مرصوصة في أصص بحذاء حائط من سورالحديقة، وكانت حين تزهر تبدو كموجة من الخضرة تتكسر زبداً قزحيا. لقد مضى وقت لم أذهب فيه إلى ذلك الجانب من الأرض، ومنبت نفسى بلقاء أقاحى بعد فراقنا الطويل.

وحين دخلت كان البدر قد أطل – ولما يكد – من فوق السور، وأشعته المائلة تترك أسفل السور في ظل عميق، وبدا كأنه جاء من الخلف على أطراف أصابعه، ووضع كفيه على عيني الظلام وهو يبتسم بخبث ، ولما اقتربت من صفوف الأقاحى رأيت أمامها شبحًا ممدداً على العشب. ودق قلبي دقة عنيفة مفاجئة، كما أن الشبح قعد مستوفزاً لوقع خطاى.

كيف العمل بعد ذلك؟ كنت أسأل نفسى هل يحسن أن أسرع بالانسحاب؟ وكذلك كانت بيمالا، ولاشك تتلمس سبيلا للهرب. ولكن الذهاب لم يكن أقل إحراجًا من البقاء! وقبل أن أعزم على أمر نهضت بيمالا وجذبت طرف ساريها على رأسها، ومضت إلى الحجرات الداخلية.

كانت هذه الوقفة القصيرة كافية لإشعارى بفداحة ما تتحمله بيمالا من شقاء. فزال منى الرثاء لحياتى أنا فى لحظة ، وناديت : بيمالا!

فانتبهت وتوقفت، ولكنها لم تلتفت ، ودرت حتى واجهتها ، فكان وجهها فى الظل، ونور القمر على وجهى، وكانت عيناها منكستين ويداها مطبقتين.

قلت : بيمالا! ما الذى يدعونى إلى أن أسجنك فى قفصى هذا المغلق؟ ألست أعلم أن هذا لن يكون إلا سببًا لذبولك وانكسارك؟

فظلت ساكنة لاترفع عينيها ولا تنطق بكلمة.

فمضيت أقول: أنا أعلم أن لو صممت على إبقائك أسيرة فلن تكون حياتى كلها إلا قيداً من حديد. فأى مسرّة لى فى ذلك؟

فلم تخرج عن صمتها. وأنهيت مقالى : لهذا أقول لك حقًا يا بيمالا: أنت حرة.

وعلى ذلك ذهبت إلى الحجرات الخارجية.

لا، لا. لم يكن أريحية منى ولا عدم اكتراث . ولكن كنت قد فهمت أخيراً أنى لن أكون حراً حتى أعطى الحرية. فلو حاولت أن أبقى بيمالا عقدا حول عنقى لكان معنى ذلك أن أبقى على قلبى ثقلا. ألم أكن أضرع بكل قولى : إن لم تكن السعادة لى فلتذهب، وإن كان الشقاء نصيبى فليأت، لكن لا أبقين فى الأغلال. فلا معنى لأن يمسك المرء بالباطل كما لو كان حقًا إلا أن يخنق نفسه. ليتنى أوقى إهلاك نفسى هذا الهلاك!

عندما دخلت حجرتى وجدت أستاذى ينتظرنى هناك. وكانت مشاعرى المضطربة لا تزال تموج فى باطنى، فبدأت أقول بغير احتفال بلا تحية، ولا بسؤال: الحرية ياسيدى هى أعظم ما للإنسان، فلا شىء يمكن أن يوزن بها، لا شىء على الإطلاق!

وتطلع إلى أستاذى صامتا، وقد أدهشه انطلاقى المفاجئ . ومضيت أقول: إن المرء لا يستطيع أن يفهم شيئًا من الكتب. إننا نقرأ فى الكتب المقدسة أن رغباتنا قيود تغللنا نحن كما تغلل الآخرين، ولكن هذه الكلمات وحدها لاتغنى شيئًا. ولابد لنا أن نصل إلى حد إطلاق الطائر من قفصه حتى ندرك كيف جعلنا الطائر أحرارًا . فكل شىء نحبسه يقيدنا برغبة أغلالها أقوى من سلاسل الحديد. أقول لك ياسيدى: إن هذا هو ما عجز العالم عن أن يفهمه. كلهم يحاولون إصلاح شىء خارج أنفسهم ، والإصلاح إنما يطلب فى رغبات المرء، لا فى أى مكان آخر، لا فى أى مكان آخر!

قال: نحن نحسب أننا سادة أنفسنا حين تقبض أيدينا على الشىء الذى نرغبه – ولكننا لا نكون سادة أنفسنا حقًا إلا حين نستطيع أن نطرح رغباتنا من نفوسنا.

فمضيت أقول : سيدى ، إننا حين نضع هذا كله فى كلمات يبدو أشبه بموعظة سخيفة ، ولكننا إذا أدركنا ولو بعضًا منه وجدناه هو تلك «الأمريتا» التى شربت منها الآلهة وأصبحت خالدة. إننا لا نقدر أن نرى

الجمال حتى نرسله من قبضتنا. لقد كان بوذا هو الذى غزا العالم لا الإسكندر . إن هذا يبدو باطلا حين نعبر عنه بكلام منثور جاف . أوه، متى نستطيع أن نغنيه؟ متى تفيض هذه الحقائق الكونية العميقة من صفحات الكتب المطبوعة وتقفز إلى نهر مقدس كنهر الكنج إذ ينطلق من عليائه المقدسة.

وتذكرت فجأة غياب أستاذى هذه الأيام الأخيرة وجهلى بسببه. وشعرت أنى أشبه بالأحمق حين سألته : وأين كنت طوال هذه المدة ياسيدى ؟

فأجاب : كنت مقيما مع بانشو.

فصحت : حقا! أكنت هناك كل هذه الأيام؟

– أجل . أردت أن أنتهى إلى اتفاق مع المرأة التى تسمى نفسها زوجة عمه. كادت لا تصدق أنه يمكن أن يوجد بين السادة شخص غريب كذلك الذى تضيفهم . قلت لها: لن تتخلصى منى يا أماه ولو شتمتنى! وما دمت مقيما فسيقيم بانشو أيضا. ألا ترين أنى لا أستطيع أن أقف وأنظر إلى أطفاله الذين لا أم لهم يطردون إلى الشوارع؟

ظلت تستمع لمثل هذا الكلام منى يومين دون أن تقول نعم أولا. وفى هذا الصباح وجدتها تربط صررها. قالت: « إننا عائدتان إلى برندابان، أعطنا مصروفات السفر.» وعلمت أنها غير ذاهبة إلى برندابان وأن أجر رحلتها سيكون كبيرًا ، ولهذا جئت إليك .

فقلت : سيدفع الأجر المطلوب.

ومضى أستاذى يقول متأهلا: ليست هذه العجوز امرأة شريرة. إن بانشو لم يكن واثقًا إلى أى طائفة تنتمى . فأبى أن يسمح لها بلمس جرته أو شئ من أدواته ، ولهذا كانا دائمى الشجار، ولكنها حين وجدتنى لا آبى ذلك عليها خدمتنى بإخلاص. إنها طباخة ماهرة.

ولكن ما بقى من احترام بانشو قد زال . لقد كان يظننى حتى ذلك الوقت رجلا عاديًا على الأقل، فإذا بى أخاطر بعزة طائفتى دون تحرج لأستميل العجوز إلى غرضى. ليس هذا كأن أحاول التغلب عليها بإحضار شاهد زور إلى المحكمة، فالمكر يجب أن يقابل بالمكر . أما الحيلة على حساب التقوى فشىء لا يمكنه احتماله!

قلت : قد نستطيع إنقاذه، وقد لا نستطيع ذلك، ولكننا إن متنا في سبيل إنقاذ بلادنا من الحبائل الكثيرة التى لا يألو هؤلاء القوم جهداً في نشرها، حبائل الدين والتقاليد والأنانية ، فإننا على الأقل سنموت سعداء.

حكاية بيمالا

(١٤)

من كان يظن أن ذلك كله يمكن أن يحدث فى هذه الحياة الواحدة؟ لكأنى مررت بسلسلة من الولادات ، كان الزمن يمر سريعًا سريعًا حتى لم أشعر بحركة، إلى أن جاءت الصدمة منذ أيام.

حين عزمت على أن أطلب إلى زوجى منع البضائع الأجنبية من سوقنا كنت أعلم أن سيكون بيننا كلام. ولكننى كنت موقنة أنى لن أحتاج إلى مقابلة الحجة بالحجة، فقد كان الهواء الذى يحيط بى نفسه مشبعًا بالسحر، ألم يسقط جبار مثل سنديب عاجزًا عند قدمى ، كموجة من البحر العظيم تتكسر على الشاطئ ؟ هل ناديته ؟ لا، بل ناداه ذلك السحر المحيط بى. وأموليا – ذلك الصبى العزيز المسكين – كيف احمر تيار حياته كالنهر عند الفجر حين جاءنى لأول مرة ! لقد عرفت حقًا كيف تعشر الإلهة حين تنظر إلى وجه عابدها المشرق.

للثقة التى اكتسبتها من هذه الدلائل على قدرتى كنت مستعدة للقاء زوجى كسحابة مشحونة بالكهرباء. ولكن ماذا حدث؟ لم أر قط

طوال هذه السنوات السبع مثل تلك النظرة البعيدة الشاردة فى عينيه – كسماء الصحراء – لاندى رحيم فيها ولا لون منعكس مما تنظر إليه . ولو انفجر غضبه لشعرت براحة أى راحة! ولكنى لم أستطع أن أجد فيه شيئًا يمكننى أن ألمسه، شعرت أنى كاذبة كحلم ، حلم لن يترك حين ينقضى إلا سواد الليل.

فيما مضى كنت أغار من سلفتى لجمالها. ثم سكنت إلى الشعور بأن السماء لم تمنحنى قوة خاصة بى، وأن كل قوتى هى فى الحب الذى يغدقه زوجى علىّ. والآن وقد أفرغت كأس القوة حتى الثمالة – ولا غنى لى عن نشوتها– أجدها فجأة محطمة عند قدمى، لم تترك لى شيئًا أعيش من أجله.

كم كنت محمومة حين جلست لأعقص شعرى ذلك اليوم! أوه، ياللعار، ياخجلتى، ياما أشد خزيى! لقد صاحت سلفتى حين مرت بى: « آه تشوتا رانى، شعرك يكاد ينط. لا تتركيه يحمل رأسك معه.».

ومنذ أيام ، فى الحديقة .. ما أسهل ما قال لى زوجى، إنه يمنحنى حريتى! ولكن هل الحرية – الحرية الفارغة – يمكن أن تعطى وتؤخذ بهذه السهولة؟ إن هذا أشبه بإطلاق الحرية لسمكة فى السماء – فكيف يمكننى أن أتحرك أو أعيش خارج جو الحب العطوف الذى كان يحيينى دائما؟

عندما دخلت حجرتى اليوم لم أر غير الأثاث - الفراش ، المرآة ، المشجب - لا القلب الذى ينفذ إلى كل شىء، والذى كان يهيمن على كل ما هناك . بدلا منه كانت هناك الحرية، لا شيء غير الحرية ، الفراغ المطلق! مجرى جاف تعرت صخوره وحصباؤه. لا شعور، بل أثاث فقط!

حين وصلت إلى حالة من الحيرة الشاملة، وسألت نفسى إن كان قد بقى فى حياتى شىء صادق وأين عساه يكون، صادفت سنديب مرة أخرى. وهنا اصطدمت حياة بحياة، وتطاير الشرر كدأبه فى القديم. هنا كانت الحقيقة، الحقيقة، الهوجاء التى تندفع وتتجاوز كل الحدود، حقيقة أصدق ألف مرة من البارا رانى ووصيفتها ، وثاكو وأغانيها البلهاء، وسائر من يتكلمون ويضحكون ويذهبون ويجيئون....

لقد قال سنديب : خمسون ألفا!

وصاح قلبى المنتشى : وما خمسون ألفا؟ ستكون بين يديك!

كيف الحصول عليها ، ومن أين ؟ مسائل فرعية لاتستحق الاهتمام . انظر إلى. ألم أرتفع، فى لحظة واحدة، من العدم الذى كنت فيه إلى قمة فوق كل شىء؟ كذلك ستأتى الأشياء كلها حين أشير إليها بإصبعى. سأحصل عليها، هذا مالا ريب فيه.

هكذا تركت سنديب منذ أيام . ثم حين تلفت حولى ... أين كانت ، تلك الشجرة الدائم أكلها ؟ أوه، لماذا يهين هذا العالم الخارجى القلب؟

ولكننى يجب أن أحصل عليها. كيف؟! لايعنينى كيف. فلا يمكن أن يكون ثمة إثم. إن الإثم لا يلوث غير الضعفاء، وأنا « بروحى » فوق متناوله. لا يكون اللص إلا رجلا من العامة، أما الملك فإنه يغزو ويغنم ... يجب أن أعرف مكان الخزانة، ومن يضع فيها المال، ومن يحرسها.

أمضيت نصف الليل واقفة فى الشرفة الخارجية أتطلع إلى صف أبنية الإدارة. ولكن كيف الحصول على تلك الروبيات الخمسين ألفا من قبضة هذه القضبان الحديدية ؟ لو استطعت برقية ما أن أجعل كل أولئك الحراس يسقطون موتى فى أمكنتهم لما ترددت – إلى هذا الحد كنت أشعر أنى قاسية !

ولكن منزل الراجات الكبير كان ينام فى سلام، بينما ترقص عصبة كاملة من اللصوص رقصة الحرب فى رأس ملكته الدائر. وكات الساعة تدق ساعة بعد ساعة، والسماء من فوق تطل فى هدوء.

وأخيراً.. بعثت إلى أموليا. قلت له : إن القضية الوطنية محتاجة إلى مال، فهل تستطيع أن تحصل عليه من الخزانة؟

فقال : وتفخ صدره : لم لا ؟

وا أسفاه : أترانى قلت« لم لا » لسنديب بهذه الطريقة نفسها؟ إن ثقة الصبى المسكين لم تستطع أن تثير فى نفسى أملا ما .

سألت : كيف ستفعل ذلك؟

إن الخطط العجيبة التى بسطها لى لا تحتمل إلا على صفحات رواية رخيصة مليئة بالرعب.

قلت بقسوة : لا يا أموليا. يجب ألاّ تكون طفلا.

فقال : حسنًا، إذًا دعينى أرشو أولئك الحراس.

- ومن أين لك بالنقود؟

فانفجر قائلاً دون إجفال : يمكننى أن أنهب السوق.

- دع هذا كله . إن عندى حليى ، وهى تكفينا .

قال أموليا. ولكننى دهش؛ لأن الصراف لا تمكن رشوته. لا بأس، هناك سبيل آخر أيسر.

- وما ذاك ؟

- ما حاجتك إلى سماعه؟ إنه جد يسير.

- أحب أن أعلمه مع ذلك.

فبحث أموليا فى جيب سترته وأخرج أولا نسخة صغيرة من الجيتا[1] وضعها على المنضدة ، ثم مسدسًا أرانى إياه، ولكنه لم يزد قولا.

---

(١) الهاجافاد جيتا: أهم الكتب المقدسة عند الهنود (المترجم).

ياللفظاعة! إنه لم يحتج إلى لحظة واحدة ليقرر قتل صرافنا العجوز الطيب[1]! ولو نظرت إلى وجهه الصريح الطلق لما ظننته قادرًا على أن يؤذى ذبابة، ولكن الكلمات التى انبعثت من فمه كانت جد مختلفة. لقد كان واضحًا أن مكان الصراف فى العالم لا يعنى شيئًا بالنسبة له. إنه مجرد فراغ لا حياة فيه ولا شعور ، ليس فيه إلا عبارات محفوظة من الجيتا : « من يقتل الجسم يقتل عدما! »

صحت أخيرًا : ما الذى تعنيه يا أموليا؟ ألا تعلم أن لهذا الشيخ العزيز زوجة وأطفالا وأنه ...

فقاطعنى قائلا : وأن نجد رجالا ليس لهم زوجات وأطفال؟ انظرى يامهرانى، إن الشىء الذى نسميه شفقة ليس فى صميمه إلا إشفاقًا على أنفسنا. إننا لا نستطيع أن نحتمل جرح غرائزنا الرقيقة، ولهذا لا نضرب أبدًا . الشفقة حقًا ! إنها غاية الجبن !

أذهلنى سماع عبارات سنديب من فم ذلك الصبى. كم كانت سذاجته جميلة محببة - كان فى تلك السن التى لا تزال تستطيع أن تؤمن بالخير على أنه خير، فى تلك السن التى يحيا فيها المرء حقًا وينمو ، واستيقظت فى الأم.

---

(١) الصراف هو أكثر الموظفين اتصالا بالسيدات فى بيت ملاك الأراضى ، فهو يتلقى منهن مباشرة ما يطلبنه لحاجات البيت ، ويتسوق لهن، ولهذا يصبح أقرب من غيره إلى أن يعد فردا من الأسرة (المترجم).

لى أنا لم يبق خير ولا شر، لم يبق إلا الموت، الموت الجميل المغرى، ولكن جسمى كله ارتجف لسماع هذا الغلام يتحدث بهدوء عن قتل شيخ مسالم على أنه ماينبغى عمله. وبدا لى الإثم فظيعًا فى كلماته بقدر ما وضح لى أن قلبه خلو من كل إثم. وكأنما رأيت آثام الآباء يحملها طفل برىء.

مس أوتار قلبى منظر عينيه الكبيرتين تلمعان إيمانًا وحماسة. لقد كان منطلقًا كالمسحور إلى أنياب البيثون[1] ، حيث لا رجوع لداخل، كيف يمكن إنقاذه : لماذا لا تصبح بلادى مرة أما حقيقية ، تحضنه وتصيح : أوه ياولدى، ياولدى ، أى ربح فى أن تنقذنى إن لم أستطع إنقاذك ؟».

أنا أعلم ، أنا أعلم أن كل قوة فى الأرض تتعاظم حين تلتحم بالشيطان، ولكن هناك الأم تدين هذا التقدم الشيطانى وتقف فى سبيله ولو كانت وحيدة. إن الأم لاتبالى بالنجاح وحده مهما يكن عظيمًا ، إنها تريد أن تمنح الحياة وأن تنقذ الحياة .. وأن روحى اليوم لتمد يديها مشتاقة إلى إنقاذ هذا الصبى .

---

(١) فى الأساطير اليونانية : أفعى خرافية قتلها أبولو (المترجم).

منذ لحظة أوحيت إليه بالسرقة . ومهما أقل الآن منفرة منها فسيفسره بضعف المرأة . إنهم لا يحبون ضعفنا إلا حين يجر العالم فى شباكه!

قلت له أخيراً . لا حاجة بك لأن تفعل شيئًا ما يا أموليا. سأدبر أمر النقود.

وحين كاد يبلغ الباب ناديته ليرجع . قلت : أموليا. إننى أختك الكبيرة ليس هذا يوم الأخ[1] فى التاريخ، لكن كل أيام السنة هى فى الواقع أيام الأخ. فلتكن بركتى معك، وليحرك الله أبدا.

فوجئ أموليا بهذه الكلمات غير المتوقعة من شفتى، فوقف برهة لايتحرك ، ثم عاد إليه إدراكه فركع عندى قدمى قبولا منه لهذه الصلة ، وأحنى رأسه إجلالا. وعندما نهض كانت عيناه مغرورقتين بالدموع... أوه يا أخى الصغير! إننى مسرعة إلى موتى، فدعنى أحمل كل ذنبك

---

(١) للابنة معزة خاصة فى البيت البنغالى (ولعل ذلك صحيح بالنسبة إلى البيوت الهندوسية عامة فى جميع أنحاء الهند) لأن التقاليد تقضى بزواجها المبكر، ولهذا تحمل معها ذكريات المحبة والحنان إلى بيت زوجها، حيث يتحتم عليها أن تبدأ غريبة قبل أن تحتل مكانتها . وقد اتخذ الشعور الناشئ عن ذلك عند ربة البيت الجديد بالنسبة إلى البيت الذى تركته صورة عرفية فى « يوم الأخ » ، الذى يدعى فيه الإخوة إلى منازل أخواتهم المتزوجات، وإذا كانت الأخت أكبر سنا فإنها تعطى بركتها وتتلقى إجلال أخيها، والعكس بالعكس . ويتبادلان الهدايا ، وتسمى هدايا الإجلال أو البركة . (المترجم).

معى، ولا تلوثن براءتك أبدًا وصمة واحدة منى!

قلت له : فلتكن هدية إجلالك هى ذلك المسدس!

– ما حاجتك إليه يا أختى ؟

– سأتدرب على الموت.

– إن نساءنا أيضًا يجب أن يعرفن كيف يمتن ، وكيف يصنعن الموت!

قال ذلك وناولنى المسدس.

وكأنما لوّن إشراق وجه الصبى حياتى بلمسة فجر جديد. فوضعت المسدس بين ملابسى، فلتكن هدية الإجلال هذه هى الملجأ الأخير فى ضائقتى ...

حين فتح الباب إلى غرفة الأم فى قلبى الأنثوى حسبت أنه سيظل مفتوحًا أبدًا . ولكن هذا المعبر إلى الخير الأسمى أغلق حين حلت الحبيبة محل الأم وأغلق ثانية. فى اليوم التالى نفسه رأيت سنديب . ورقص الجنون على قلبى عريان معربدًا .

ما كان هذا؟ أهذه إذًا هى نفسى الأصدق ؟ كلا ! إننى لم أعرف قط هذه النفس المستهترة القاسية فى . لقد جاء الساحر زاعمًا أنه سيخرج هذا الثعبان من بين طيات ملابسى، ولكنه لم يكن هناك قط ، بل كان ثعبانه ولم يزل . لقد استولى على شيطان، وما أفعله اليوم هو من

أفاعيله ، ولا شأن لي به.

لقد جاءني هذا الشيطان في ثوب إله، جاءني ذلك اليوم بمشعله الساطع قائلاً : « أنا بلادك ، أنا رجلك سنديب. أنا أقرب إليك من كل ماليك « باندى ماترم !»، وأجبته وقد أطبقت يدى: « أنت دينى. أنت جنتي كل مالي سواك سيجرفه حبى لك. باندى ماترم! ».

أهى خمس آلاف؟ فلتكن خمسة آلاف ! تريدها غداً ! غداً تأخذها! فى هذه السكرة القاتلة ستكون هدية الخمسة الآلاف أشبه بحبات الخمر – وبعدها هيا إلى الصخب المعربد! العالم المستقر سيتزلزل تحت أقدامنا، والنار ستندلع من عيوننا ، وستزأر فى آذاننا عاصفة، ويقيم الذى أمامنا كالذى ليس أمامنا . ثم بخطى مترنحة نغوص فى موتنا، وفى لحظة تطفأ كل النار، وينثر الرماد ، ولا يبقى شىء بعدنا.

الفصل التاسع

حكاية بيمالا

(١٥)

حرت مدة فى سبيل الحصول على هذه النقود. ثم مثلت أمامى الصورة كلها فى وضوح تحت ضوء القلق الشديد. كان ذلك منذ أيام.

فى كل عام يقدم زوجى هدية إجلال إلى سلفتى مقدارها ستة آلاف روبية فى موسم درجا پوجا. وفى كل عام تودع باسمها فى المصرف فى كلكتا. وقد قدمت الهدية هذا العام كالعادة، ولكنها لم ترسل بعد إلى المصرف، ولم تزل محفوظة فى خزانة حديدية فى ركن من حجرة الملابس المتصلة بمخدعنا.

وكان زوجى نفسه يأخذ النقود إلى المصرف كل عام. ولكنه لم يتح له الذهاب إلى المدينة هذا العام. كيف كان يمكننى ألا أرى يد القدر فى هذا؟ لقد أبقيت النقود؛ لأن البلاد فى حاجة إليها.

من كان يستطيع أن يأخذها منها ليضعها فى المصرف؟ وكيف أستطيع أنا الامتناع عن أخذ النقود ؟ إن الإلهة التى تطرب للتدمير تمد كأسها الملطخ بالدم صائحة: « أعطينى أشرب. إننى ظمأى. » سأعطيها دم قلبى مع هذه الخمسة الآلاف . أماه، إن التى تفقد هذه النقود لن يؤذيها فقدها كثيراً ، ولكننى أنا التى ستدمرينني تدميراً.

كثيراً ما كنت – قديماً – أسمى الرانى الكبرى بينى وبين نفسى لصة، لأنى كنت أتهمها بخداع زوجى الطيب، وكثيراً ما كانت بعد موت زوجها تستخلص لنفسها أشياء من ملك الولاية . وكنت أنبه زوجى إلى ذلك، ولكنه يلزم الصمت، فأغضب وأقول : « إن كنت أريحياً فلك أن تهب كما تشاء، ولكن لماذا تسمح بأن تسرق؟ » ولا بد أن القدر كان يضحك وقتئذ لشكاواى هذه، فإننى الليلة فى طريقى إلى سرقة نقود سلفتى من خزانة زوجى.

وكانت عادة زوجى أن يبقى مفاتيحه فى جيوبه حين يخلع ملابسه قبل النوم ويتركها فى حجرة الملابس. فأخذت مفتاح الخزانة وفتحتها. وخيل إلىّ أن الصوت الصغير الذى أحدثته سيوقظ العالم كله. وعرتنى قشعريرة مفاجئة جعلت يدى وقدمى باردة كالثلج، وارتجف جسمى كله.

كان فى داخل الخزانة درج، وحين فتحته وجدت النقود ، لم تكن أوراقاً بل قطعاً ذهبية ملفوفة فى قراطيس ، ولم أجد وقتاً لأعد

ما أحتاج إليه . كان هناك عشرون لفافة أخذتها جميعًا وربطتها فى حاشية سارى.

كم كانت ثقيلة! إن عبء السرقة رزح على قلبى حتى ألصقه بالتراب. ولعلها لو كانت أوراقا لبدا الأمر أقل شبها بالسرقة، ولكنها كانت كلها ذهبًا .

بعد أن تسللت إلى حجرتى كاللصة بدت كأنها لم تعد حجرتى. لقد اختفت كل حقوقى الغالية عليها حين لمست المال المسروق، ورحت أتمتم لنفسى وكأننى أردد بعض الرقى: « باندى ماترم. باندى ماترم، يا بلادى، يا بلادى الذهبية، لك كل هذا الذهب لا لأحد غيرك!».

ولكن العقل يضعف فى الليل . لقد عدت إلى المخدع حيث كان زوجى نائمًا . وأغمضت عينى وأنا أعبره خارجة إلى الشرفة المكشوفة وراءه، حيث انبطحت على وجهى وأنا أضم إلى صدرى حاشية السارى التى صرت على الذهب، وبعثت فى كل لفافة هزة ألم.

ووقف الليل الصامت هناك رافعًا سبابته. ولم أستطع أن أفكر فى منزلى على أنه منفصل عن بلادى : لقد سرقت منزلى ، لقد سرقت بلادى. وبسبب هذه الخطيئة لم يعد منزلى منزلى، وكذلك بلادى أصبحت غريبة عنى. لو أننى مت وأنا أشحذ من أجل بلادى – ولو دون جدوى – لكانت تلك الشحاذة عبادة تتقبلها الآلهة. ولكن السرقة لا تكون عبادة

أبدًا. فكيف يمكننى إذًا أن أهب هذا الذهب ؟ تعسًا لى! إننى مقضى علىّ بالموت ، فهل يجب أن أدنس بلادى بلمستى الشريرة؟

لا سبيل لى إلى رد النقود . ليست لدى القوة لأعود إلى الحجرة ، وأخرج ذلك المفتاح ثانية ، وأفتح الخزانة من جديد – لأموتن على عتبة باب زوجى، إن السبيل الوحيد الباقى هو سبيل التقدم. ليست لدى القوة أيضًا لأجلس هادئة وأعد النقود ، فلتبق خلف أغطيتها ، إننى غير قادرة على الحساب.

كانت سماء الشتاء خلوا من الضباب، والنجوم تلمع ، فقلت لنفسى وأنا راقدة هناك: لو كان على أن أسرق هذه النجوم كالقطع الذهبية واحدة واحدة من أجل بلادى – هذه النجوم المحفوظة بعناية فى حضن الظلام – إذن لعميت السماء ، وترمل الليل أبدًا، ورزأت سرقتى العامل كله. لكن هذا الذى فعلته ... أليس هذا أيضًا سرقة للعالم كله ، لا سرقة المال فحسب، بل للثقة والأمانة؟

قضيت الليل راقدة فى الشرفة. حتى إذا أصبح الصباح وأيقنت أن زوجى قد استيقظ وغادر الحجرة، هنالك فقط استطعت أن أعود أدراجى إلى الحجرة بعد أن أرخيت ملفحتى على رأسى.

وكانت سلفتى تجول بقدرها النحاسية تسقى نباتاتها. فلما بصرت بى مارة على بعد صاحت: هل سمعت الخبر ياتشوتا رانى؟

فوقفت صامتة أرتعد. وخيل إلى أن لفافات الذهب تبرز من الملفحة وخفت أن تتمزق وترن متساقطة لتفضح أمام خدم المنزل جميعًا تلك اللصة التى أفقرت نفسها حين سرقت ثروتها.

ومضت سلفتي قائلة : إن عصابة اللصوص الذين معك قد بعثوا رسالة مجهولة ينذرون فيها بنهب الخزانة.

فظللت صامتة صمت اللصوص. وأردفت مازحة:

- كنت أنصح لأخي نيكهيل أن يلجأ إلى حمايتك . أبعدى صبيانك عنا أيتها الملكة السارقة! سنقدم القرابين لإلهك« ياندى ماترم » إن أنت أنقذتنا. ما أعجب مايجرى فى هذه الأيام! لكن بحق الله أعفى منزلنا من السرقة على الأقل.

وأسرعت إلى حجرتى دون أن أجيب. لقد وضعت قدمى على رمل موَّار ولم يعد فى استطاعتى أن أسحبها الآن، فلن يزيدنى التملص إلا غوصًا.

متى أسلم النقود إلى سنديب! لم أعد أستطيع احتمالا، لقد كان ثقلها يحطم أضلاعى.

كان الوقت لا يزال مبكرًا حين تلقيت كلمة أن سنديب فى انتظارى. لم أبال اليوم بزينتى، بل ذهبت إلى الحجرات الخارجية مشتملة بملفحتى كما كنت.

وحين دخلت حجرة الجلوس رأيت سنديب وأموليا هناك معاً . فخيل إلى أن كل كرامتي وشرفي يجريان مشتعلين في جسمي من الرأس إلى القدم ويغيبان في الأرض. أفحتم عليّ أن أكشف أقصى عار امرأة أمام عيني هذا الصبي ! أتراهما كانا يتحدثان عن فعلتي في اجتماعهما؟ وهل بقيت لي بقية من قناع لعزة أو وقار؟

نحن النساء لن نفهم الرجال أبدا. إنهم حين يصممون على شق طريق للوصول إلى هدف ما لا يبالون أن يحطموا قلب العالم قطعًا كي يمهدوه لسير مركبتهم. وحين تذهب بعقولهم نشوة الخلق يفرحون بتدمير ما صنعه الخالق. إن عاري هذا الذي يمزق القلب لم يكن ليسترعي من أعينهما نظرة . إنهما لايشعران بالحياة نفسها – كل حماستها منصبة على غرضهما. وهل أنا لهما إلا زهرة من زهور المروج في طريق سيل دفاق؟

وما نفع دماري هذا لسنديب؛ خمسة آلاف روبية فقط؟ أما كنت أصلح لشيء أكثر من خمسة آلاف روبية فقط؟ أجل، أجل! ألم أتعلم هذا من سنديب نفسه، أو لم أكن قادرة بفضل هذه المعرفة على أن أحتقر كل شيء آخر في عالمي؟ لقد كنت واهبة النور والحياة و « الروح» والخلود، وبذلك الاعتقاد ، وبذلك الفرح كسرت حدودي كلها وبرزت . ولو أن أحداً حقق لي ذلك الفرح عندئذ لحييت في موتي، ولما فقدت شيئًا إذ أفقد كل شيء .

هل يريدان أن يقولا لى الآن : إن ذلك كله كان باطلا؟ ونشيد ثنائى الذى غنى بذلك الولاء، هل أنزلنى من سمائى ليجعل السماء نفسها كالتراب، لا ليجعل الأرض كالسماء؟

(١٦)

قـال سنديب ونظرته الحـادة منصبـة كلهـا على وجـهى : النقـود ياملكة؟

وكذلك ثبت أموليا نظرته علىّ. إن هذا الصبى العزيز ليس ابن أمى ولكنه أخ لى، فـإن الأم أم فـى كل مكـان على الأرض، نظر إلى بوجـهـه الصـافى، وعينيـه الحنونتين، وشـبـابه البـرىء. وأنا . كيف اسـتطعت أن أقدم إليه السـم وأنا امرأة كأمه - ألأنه طلبه ....؟

« النقود ياملكة! » رن سؤال سنديب الوقح فى أذنى، وودت لخجلى وغـيظى وحـدهـمـا أن أقـذف بذلك الذهب على رأس سنديب. بمشـقـة اسـتطعت أن أحل عـقـدة السـارى، فـقـد كـانت أصـابعى تـرتجف أى ارتجاف. وأخيراً سقطت اللفافات على المنضدة.

وأسـود وجه سنديب .. لابد أنه حسب اللفـافـات من فـضـة ... أى احتقـار كان فى نظراته! أى اشـمئزاز من ذلك العـجـز ! كـأنما كـان يهم بضـربى! لابد أنه خـالنى جئت لأفـاوضـه ، لأنزل بـالخـمـسـة آلاف التى طلبها إلى بضع مئات. ومرت لحظة ظننت أنه سيخطف اللفافات ويرميها من النافذة معلناً أنه ليس شحاذاً بل ملكا يطلب الجزية.

وسـأل أمـوليا وفى صـوته نبض شفقة جعلتنى أود لو أجـهش بـالبكاء : أهذا كل شىء ؟

وأحكمت كبح قلبي ، واكتفيت بأن أومأت برأسي .

وظل سنديب واجماً ، لم يلمس اللفافات ، ولا نطق بحرف .

ومست مذلتي قلب الصبي، فصاح بحماسة مفاجئة مصطنعة: هذا كثير. إنه يكفي كل حاجتنا. لقد أنقذتنا. وبهذه الكلمات مزق غطاء إحدى اللفافات.

وبرقت الجنيهات الذهبية. وفي لحظة بدا كأن الغطاء الأسود قد رفع عن وجه سنديب أيضًا، فأضاءت قسماته سروراً، ولم يستطع التحكم في انقلاب شعوره؛ فوثب عن كرسيه نحوي. ولست أدري ماذا كان يهم أن يفعل، فقد رميت نظرة كالبرق نحو أموليا، فإذا بوجه الصبي يشحب كأنما لسعه سوط . ثم دفعت سنديب عني بكل قوتي، ففقد توازنه واصطدم رأسه بحافة المنضدة الرخامية، وسقط على الأرض. وبقي هناك برهة لا يتحرك، أما أنا فهبطت على مقعدي وقد أنهك المجهود قواي.

وأشرق وجه أموليا إشراق الفرح، حتى أنه لم يلتفت إلى سنديب، بل أقبل عليّ ومسح التراب عن قدمي، وبقي هناك جالسًا إزائي على الأرض. آه يا أخي الصغير، ياطفلي! إن تحية إجلالك هذه هي آخر لمسة من السماء بقيت في عالمي المقفر! لم أعد أستطيع أن أتمالك نفسي وفاضت دموعي انسكابا، فغطيت عيني بطرف ساري وضغطت على

وجهى بكلتا يدى ورحت أنتحب وأنتحب، وكلما شعرت بلمسته الرقيقة على قدمى تحاول تهدئتى تجدد بكائى.

ولما أفقت بعد قليل ورفعت يدى عن وجهى رأيت سنديب عند المنضدة يجمع الجنيهات فى منديله كأن شيئًا لم يحدث، ونهض أموليا من مكانه عند قدمى إلى كرسيه وعيناه المخضلتان تبرقان.

ونظر سنديب إلى وجهى ببرود وهو يقول : إنها ستة آلاف.

فصاح أموليا: ماحاجتنا إلى هذا القدر ياسنديب بابو؛ إن كل مايلزمنا لعملنا ثلاثة آلاف وخمسمائة.

فأجاب سنديب : إن حاجتنا ليست لهذا المكان وحده . فسوف نحتاج إلى كل ما نستطيع الحصول عليه.

قال أموليا : قد يكون هذا. ولكنى أتعهد بأن آتيك بكل ماتحتاج إليه فى المستقبل. أما هذا فأرجوك أن ترد ألفين وخمسمائة منه إلى المهرانى.

فنظر سنديب إلىّ مستفهمًا. فابتدرته : لا لا ، لن أمسى هذه النقود ثانية ، افعل بها ماتريد.

قال سنديب ناظرًا نحو أموليا: هل يستطيع الرجل يومًا أن يعطى كما تعطى المرأة؟

فوافقه أموليا بحماسة : إنهن إلهات!

ومضى سنديب يقول : نحن الرجال نستطيع على الأكثر أن نعطى من قدرتنا، ولكن النساء يعطين أنفسهن. من حياتهن يلدن، ومن حياتهن يغذون. مثل هذه العطايا هى العطايا الحقة ، ثم التفت إلى قائلا: ياملكة ! لو كان ما أعطيتنا إياه هو المال وحده لما لمسته، ولكنك أعطيت ما هو أكبر عندك من الحياة نفسها!

لا بد أن فى الإنسان شخصين مختلفين. فأحد هذين الشخصين فيّ قادر على أن يفهم أن سنديب يحاول خداعى؛ والشخص الآخر راض بأن يخدع، إن لسنديب قدرة ، ولكن ليست له قوة العدالة. وسلاحه الذى يبعث الحياة بضربها ثانية حتى الموت. إن لديه جعبة الآلهة التى لا تنفد ، ولكن السهام التى فيها من الشياطين.

لم يتسع منديل سنديب للنقود كلها فسأل : يا ملكة ، هل يمكنك أن تعطينى منديلا آخر؟

ولما أعطيته منديلى لمس جبينه به فى خشوع ثم ركع على الأرض فجأة وأحنى رأسه قائلا : يا إلهة ! إنما اقتربت منك لأقدم تحية إجلالى، ولكنك رفضتنى ورميتنى فى التراب. فإن كان هذا فإنى أقبل رفضك نعمة منك على، وأرفعه إلى رأسى تحية لك؛ قال ذلك وأشار إلى موضع الصدمة من رأسه.

هل أسأت فهمه إذن؟ هل كانت يداه الممدوتان موجهتين إلى قدمى حقًا؟ إن أموليا نفسه قد رأى الانفعال الذى اشتعل فى عينيه ووجهه. ولكن سنديب بارع فى وضع الموسيقى لأغنية ثنائه بحيث لا أستطيع

جدالا. إننى لأفقد قدرتى على رواية الحقيقة ؛ ويغيم بصرى كعينى مخدور. وهكذا رد لى الضربة التى أنزلتها به ضعفين، وكانت عاقبة الجرح فى رأسه أن جعل قلبى يدمى. وحين تلقيت تحية سنديب بدا كأن سرقتى تكتسب كرامة، والذهب على المائدة يبتسم فينسى كل خوف العار ، وكل وخز الضمير.

وكما رجعت رجع أموليا. واشتعل ولاؤه لسنديب ثانية بعد أن أصيب بصدمة قصيرة ، وامتلأت زهريته من جديد بهدايا العبادة لسنديب ولى، وأضاء إيمانه فى عينيه بنور صاف كنور نجمة الصباح عند الفجر .

بعد أن أهديت العبادة وتلقيتها بدا إثمى مشرقًا، وحين نظر أموليا إلى وجهى رفع يديه المطبقتين محييًا وصاح « باندى ماترم! » لم أكن لأتوقع أن تظل هذه العبادة محيطة بى أبدًا، ومع ذلك فقد أصبحت هى السبيل الوحيد لإبقاء احترامى لنفسى.

لم أعد أستطيع أن أدخل مخدعى. الفراش كأنه يمد يدًا ليمنعنى، والخزانة الحديدية تعبس لى. أريد أن أهرب من هذه الإهانة المستمرة لنفسى، هذه الإهانة التى تعتمل فى باطنى . أريد أن أهرع إلى سنديب كل حين ليغنى بمديحى . لم يبق إلا هذا المحراب الوحيد للعبادة يبقى رأسه مرفوعًا فوق أعماق خزيى التى شملت كل شىء، ولهذا أريد أن أتعلق به ليل نهار ، فإننى حيثما ابتعد عنه لا أجد إلا فراغا.

الشتاء، الشتاء، أريد شتاء متصلا. لا أستطيع أن أحيا إن ترك كأسى فارغًا لحظة واحدة. لهذا أريد سنديب اليوم دون الخلق أجمعين، لأنه هو ثمن حياتى.

(١٧)

عندمـا يـأتى زوجى فى هذه الأيام ليـتناول طـعـامـه أشـعـر أنى لاأستطيـع الجلـوس أمامــه، ولكن الابتعـاد عنه أمر مـخجل حتى أنى لا أقـدر أن أفـعل ذلك أيضًـا. لهذا أجلس بحـيث لا يسـتطيع أحـدنا أن ينظر إلى وجـه الآخـر. وعلى هذه الصـورة كنت أجلس منذ أيام حين جاءت البـارا رانى وانضـمت إلينا . قـالت : لك أن تضـحك يا أخى من خطابات التهديد هذه، ولكنها تخيفنى أيما خوف. هل أرسلت تلك النقود التى أعطيتنى إياها إلى مصرف كلكتا؟

فأجاب زوجى : لا، لم أجد وقتًا بعد لإرسالها .

– أنت مهمل يا أخى العزيز . يجب أن تحترس...

فقال زوجى بابتسامة مطمئنة : إنها فى الخزينة الحديدية فى قلب حجرة الملابس الداخلية .

– وإن وصلوا إلى هناك؟ من يضمن!

– إذا بلغوا إلى هذا الحد فإنهم قد يسرقونك أيضًا!

– لا تتم، لن يأتى أحد للمسكينة التى هى أنا ، إن الإغراء الحقيقى هو فى حجرتك! ولكن دعنا من المزاح الآن، يجب ألا تخاطر بترك النقود فى الحجرة هكذا.

– إنهم سيحملون حصيلة الحكومة إلى كلكتا بعد بضعة أيام، وسأرسل هذه النقود إلى المصرف مع الحراس.

– هذا حسن . لكن حذار أن تنسى الأمر كله، فأنت كثير النسيان.

– حتى لو فقدت هذه النفود وهى فى حجرتى فلن يكون فقدها عليك ، ياأختى الرائى.

– لا لا يا أخى . إن هذا الكلام يغضبنى جداً . هل جعلت فرقًا بين مالك ومالى ؟ لتفرض أن نقودك ضاعت، ألا يسوغنى ذلك؟ إذا كان القدر قد شاء أن يستأثر بحظى من الدنيا فإنه لم يتركنى جاحدة لفضل أخلص أخ منذ أيام لاكشمان[1].

حسنًا ياتشوتا رانى ! هل انقلبت دمية من الخشب؟ إنك لم تقولى كلمة واحدة حتى الآن. هل تعلم يا أخى أن تشوتا رانى تظننى أتملقك؟ لو اضطررت إلى ذلك فلن أتردد، ولكنى أعلم أن أخى العجوز العزيز لايحتاج إلى الملق!

وهكذا مضت البار رانى تثرثر! غير ناسية أن تنبه أخاها بين الحين والحين إلى هذه الطرفة أو تلك فيما يقدم من ألوان الطعام . كل

(١) من أبطال الرامايانا ، وقصة وفائه لأخيه الأكبر راما وزوجة أبيه سيتا أصبحت مضرب الأمثال . (المترجم).

ذلك ورأسى يدور. إن الأزمة تقترب مسرعة. لابد من عمل شىء لإعادة النقود ... وبينما أسائل نفسى عما يمكن عمله ، وكيف يحجب عمله، كانت دمدمة سلفتى تبدو أشق احتمالا كل حين.

والذى زاد الأمر سوءا أن عينى سلفتى الحادتين لم يكن ليفوتهما شىء، وكانت ترمقنى عن عرض بين لحظة وأخرى. ولست أدرى ماذا استطاعت أن تقرأ فى وجههى ، ولكننى كان يخيل إلىّ أن كل شىء مكتوب عليه بوضوح.

ثم أقدمت على أمر شديد الحماقة. تصنعت ضحكة لاهية ناعمة وقلت. أرى أن شكوك البار رانى كلها منصبة على، وليس خوفها من اللصوص إلا إدعاء. وابتسمت البارارانى بخبث وقالت : أنت على حق ياأختى . إن سرقة المرأة هى أفدح السرقات، ولكن كيف تروغين من رقابتى؟ أرجل أنا حتى تخدعينى؟

فأجبت: إن كنت تخافيننى كل هذا الخوف فدعينى أستودعك جميع ما أملكه ليكون ضمانا، فإن سببت لك خسارة رددتها إلى نفسك.

فأجابت على ضحكتى بمثلها، وقالت ملتفتة إلى زوجى: اسمع لها، صغيرتنا الساذجة التشوتا رانى ! أليست تعلم أن من الخسائر مالا يعوضه ضمان، لا فى هذا العالم ولا فى العالم الآخر؟

لم يعد زوجى فى نقاشنا، وعندما فرغ من طعامه ذهب إلى الحجرات الخارجية ، فإنه لا يقيل فى حجرتنا فى هذه الأيام.

كانت كل جواهري الثمينة مودعة في الخزانة في عهدة الصراف. ومع ذلك فإن ما أحتفظ به لابد كان يساوي ثلاثينت ألفًا أو أربعين ألفًا من الروبيات.

فأخذت صندوق حليي وذهبت إلى حجرة البارارانى وفتحته أمامها قائلة : إننى أترك هـذه عندك يا أختى. ستجعلك فى مأمن من كل خوف .

فأشارت البارا رانى إشارة جزع مصطنعة ، وقالت، إنك تدهشيننى حقًا ياتشوتا رانى! أتحسبيننى حقًا لا أنام الليل خوفًا من أن تسرفينى؟

– وأى بأس فى أن تخافى منى خوفًا ينفعك؟ هل يعرف أحد أحداً فى هذه الدنيا؟

– أتريدين أن تلقنينى درسا بائتمانك إياى؟ لا لا، تكفينى حيرتى فيما أفعل بحليي عن حراسة حليك. خذيها يا عزيزتى. هناك كثير من الخدم يتجسسون.

خرجت توًا من حجرة سلفتى إلى حجرة الجلوس الخارجية، واستدعيت أموليا. فجاء معه سنديب أيضًا. وكنت فى عجلة شديدة، فقلت لسنديب: معذرة. أريد أن أقول لأموليا كلمة أو كلمتين. هل تسمح...

فابتسم سنديب ابتسامة شوهاء : إذن فأنا وأموليا شخصان منفصلان في نظرك ؟ إذا كنت قد بدأت تفطمينه عني؛ فيجب أن أعترف بعجزى عن الاحتفاظ به.

فلم أجب، بل وقفت منتظرة.

وأردف سنديب قوله: ليكن ماتريدين أتمى حديثك الخاص مع أموليا، ولكنك يجب أن تمنحينى حديثًا خاصًا لى وحدى أنا أيضًا، وإلا كان معنى ذلك هزيمة لى. إن نصيبى يجب أن يكون دائمًا نصيب الأسد. لم يزل هذا عراكى الدائم مع القمر. إنى أريد أن أهزم حظى ولا أتلقى الهزيمة من يديه.

وخرج من الحجرة بعد أن حدج أموليا بنظرة ساحقة.

قلت : أموليا، يا أخى الصغير العزيز، يجب أن تصنع شيئًا من أجلى.

– إننى أخاطر بحياتى فى أى واجب تلقينه على عاتقى يا أختاه.

فأخرجتُ صندوق حليى من بين ثنايا شالى ووضعته أمامه وقلت: بع هذه أو أرهنها، وهات لى ستة آلاف روبية بأسرع ما تستطيع.

قال أموليا مستنكرًا : لالا ياأختى الرانى. دعى هذه الحلى كما هى. ولكنى سآتيك بستة آلاف.

قلت نافدة الصبر: أوه، لاتكن أبلة لاوقت لشيء من العبث، خذ هذا الصندوق، واذهب إلى كلكتا بقطار الليل، وأحضر النقود إلى بعد غد على التحديد.

فتناول أموليا عقداً ماسياً من الصندق ورفعه إلى الضوء ثم رده مكتبئًا . قالت:

– أعلم أنك لن تحصل على الثمن المناسب لهذه الماسات، ولهذا أعطيك حليًا تساوى ثلاثين ألفًا . إننى لا أبالى أن تذهب جميعها ولكن يجب أن أحصل على هذه الستة الآلاف بدون إبطاء.

قال أمويا: أتعلمين يا أختى الرانى أننى اختلفت مع سنديب بابو بشأن هذه الستة الآلاف التى أخذها منك ؟ إننى لا أستطيع أن أصف لك مقدار خجلى. ولكن سنديب بابو يرى أننا يجب أن نتحلى حتى عن الخجل من أجل بلادنا. قد يكون ذلك صحيحًا، ولكن هذا الأمر مختلف بعض الاختلاف. إننى لا أخاف الموت فى سبيل الوطن. لقد منحت هذا القدر من « الروح »ولكنى لا أستطيع أن أنسى خجلى لأخذ النقود منك. إننى لا أبلغ شأو سنديب فى هذا . فهو لا يعرف الندم ولا تأنيب الضمير. هو يقول إننا يجب أن نتخلص من فكرة أن النقود ملك لمن يتق أن توجد ى خزانته. وإن لم نستطع فأين سحر « باندى ماترم » ؟

وازدادت حماسة أموليا وهو يتكلم. لحديثه يكتسب حرارة دائمًا حين أستمع إليه. وأردف : تقول لنا الجيتا: لا أحد يمكنه أن يتقل الروح.

فالقتل مجرد كلمة . وكذلك أخذ المال. مال من هو؟ إن أحداً لم يخلقه، ولا أحد يأخذه معه حين يفارق هذه الدنيا، فإنه ليس جزءاً من روحه. اليوم هو لى، وغداً لابنى، وبعد غد لدائنه. وبما أن النقود ليست ملكاً لأحد فى الواقع فأى لوم يمكن أن يقع على رجالنا الوطنيين إذا هم أخذوها لينتفعوا بها بدلا من تركها لولد فاسد؟

إن جسمى يرتجف حين أسمع كلمات سنديب ينطقها هذا الفتى. ليلعب السحرة بالثعابين ماشاءوا، فإن أصابهم أذى؛ فإنهم مستعدون له. ولكن هؤلاء الصبية فيهم من البراءة ما يستنفر العالم كله ليحميهم ببركته. إنهم يلاعبون الثعبان جاهلين بطبعه، وحين نراهم يبتسمون فى ثقة وهم يضعون أيديهم حيث تبلغ ناباه، عند ذلك ندرك مافى الثعبان من خطر فظيع. إن سنديب على حق حين يشك أنى وإن رضيت لنفسى بالموت على يديه، فسوف أفطم منه هذا الصبى وأنقذه.

سألت مبتسمة : إذاً فالمال مطلوب لينتفع به رجالكم الوطنيون؟

فقال أموليا بفخر : أجل! أليسوا ملوكنا؟ إن الفقر ينتقص من قدرتهم الملكية . أتعلمين أننا نصر دائماً على أن يسافر سنديب بابو فى الدرجة الأولى ؟ وهو لاينفر قط من علائم التكريم الملكى – إنه يتقبلها لا من أجل نفسه بل لعزتنا جميعاً. لقد أنبأنا سنديب بابو أن أعظم سلاح عند أولئك الذين يحكمون العالم هو مغناطيسية مظهرهم . فليس التزام الفقر بالنسبة إليهم قمعاً للنفس فحسب، بل إنه انتحار.

وهنا دخل سنديب الحجرة بلا صوت. فطرحت شالى على صندوق الحلى بحركة سريعة وسأل بنبرة ساخرة : لم ينته الحديث الخامس بعد؟

فقال أموليا معتذراً . بلى . قد انتهينا . لم يكن أمراً ذا بال.

قلت : لا يا أموليا. إننا لمن ننته بعد.

فقال سنديب : إذن فليخرج سنديب للمرة الثانية ؟

– إذا سمحت .

– وماذا عن عودة سنديب...

– اليوم لا. إن وقتى لا يتسع.

فقال سنديب وعيناه تبرقان : هكذا الوقت لايسمح إلا بالأحاديث الخاصة !

إنها الغيرة! عندما يبدى الرجل القوى ضعفاً . هنالك لايملك الجنس الأضعف إلا أن يدق طبول النصر، وهكذا كررت فى حزم :حقاً إن وقتى لا يتسع.

فخرج سنديب وقد أربد لونه . وانزعج أموليا انزعاجاً شديداً. قال مجادلا : يا أختى الرانى ، إن سنديب غاضب.

فقلت بشىء من الحدة : لاشىء يدعوه إلى الغضب، ولا حق له فى أن يغضب . دعنى أحذرك من شىء واحد ياأموليا : لاتخبر سنديب بابو بشىء عن بيع حليى – بحياتك لا تفعل !

- لن أفعل .

إذن يحسن ألا تنتظر . اذهب بقطار الليل.

وغادرنا الحجرة أنا وأموليا معًا . وحين خرجنا إلى الشرفة كان سنديب واقفًا هناك، ولم يخف على أنه كان منتظراً ليتصيد أمواليا. ولأمتع ذاك كان لابد أن أشغله. فسألته : ماذا أردت أن تقول لى ياسنديب بابو؟

- ليس لدى شيء بعينه أريد قوله - لكن بعض الحديث، ومادام وقتك لايتسع...

- أستطيع أن أمنحك قليلا منه.

وكان أموليا قد ذهب . فسألنى سنديب ونحن ندخل الحجرة : ما ذلك الصندوق الذى حمله أموليا.

إن الصندوق لم يخف عن عينيه . بيد أنى ظللت راسخة. قلت : لو كان لى أن أخبرك لأعطيتك إياه فى حضورك!

- أتظنين إذن أن أموليا لن يخبرنى ؟

- لن يفعل .

ولم يعد سنديب قادراً على إخفاء غضبه. فانفجر صائحًا : أتحسبين أنك سوف تعلين على ؟ إن ذلك لن يكون أبدًا . أموليا هذا لو

رضيت أن أدوسه تحت قدمي لمات سعيداً . إنني لن أسمح لك ما حييت بأن تجعليه يركع عند قدميك !

أوه، الضعيف ، الضعيف! أخيراً أدرك سنديب أنه ضعيف أمامي ! هذا سبب غضبته المفاجئة. لقد فهم أنه لا يستطيع أن يقابل سلطاني بالقوة وحدها. فأنا أستطيع بنظرة أن أجعل أقوى حصونه يتداعى . إذاً فلابد له أن يلجأ إلى التهديد. واكتفيت بأن ابتسمت في احتقار صامت. أخيراً استطعت أن أعلو عليه، يجب ألا أتخلى عن موقعي هذا أبداً يجب ألا أهبط ثانية . وسط كل انحداري يجب أن تبقى لي هذه القطعة من الكرامة!

قال سنديب بعد هنيهة : أنا أعلم أنه كان صندوق حليك.

قلت : لك أن تخمن ماتشاء! ولكنك لن تظفر بشيء مني.

- إذن فأنت تثقين بأموليا أكثر مما تثقين بي ؟ أتعلمين أن هذا الصبي هو ظل ظلي ، صدى صداي ، إنه لاشيء إن لم أكن بجانبه؟

حيث لايكون صداك يكون هو نفسه، أي أموليا، وهناك أثق به أكثر مما أستطيع أن أثق بصداك!

- لا تنسي أنك أخذت على نفسك عهداً بأن تهبي كل حليك لعبادة الأم المقدسة . بل إنك قدمت هذه الهبة فعلا .

- مهما تبق لي الآلهة من حلي توهب للآلهة . ولكن كيف أهب ماسرق مني؟

- انظرى ! عبثًا تحاولين الرواغ منى هكذا. لقد حان وقت العمل العبوس، فلينته هذا العمل ولك بعد ذلك أن تبدى من كيدك النسوى مايبهج فؤادك ، وسوفت أساعدك فى لعبتك.

منذ سرقت نقود زوجى ودفعتها إلى سنديب توقفت الموسيقى التى كانت فى علاقتنا. لم أضيع كل قيمتى بإرخاص نفسى فحسب، بل إن قدرات سنديب فقدت مجال نشاطها الكامل أيضًا. إنك لا تستطيع أن تبدى مهارتك فى الرماية إذا كانت الرمية فى قبضتك. وكذلك فقد سنديب منظر البطل، ودخلت فى كلماته نبرة شجار سوقى.

ظل سنديب مثبتًا عينيه اللامعتين على وجهى حتى بدتا وكأنهما تتلهبان بكل ظمأ سماء الظهيرة. وحرك قدميه مستوفزًا مرة أو مرتين، وكأنه يهم بالانقضاض علىّ. وكان جسمى كله كأنه يسبح، وعروقى تنبض، والدم الحار يصعد إلى أذنىّ ، وشعرت بأنى إن بقيت هناك فلن أقوم أبدًا. فانتزعت نفسى عن الكرسى بجهد بالغ، وأسرعت نحو الباب.

وجاءت من حلق سنديب الجاف صرخة مكتومة : أين تهربين يا ملكة ؟ وفى لحظة نهض عن كرسيه وثبًا ليمسكنى. غير أنه تراجع مسرعًا لوقع خطى خارج الباب، وانحط فى كرسيه ثانية. وقيدت خطاى قرب رف الكتب حيث وقفت أحملق فى العناوين.

وصاح سنديب حين دخل زوجي الحجرة: ترى هل تحتفظ ببروننج بين كتبك هذه يانكيهيل؟ لقد كنت أحدث الملكة الساعة عن نادينا في الكلية. أتذكر مسابقتنا في ترجمة هذه الأبيات لبروننج؟ ألا تذكر ؟

« ما كان لها أن تنظر إليّ

لو كانت تقصد ألا أحبها.

كثيرون هم ... من يدعون رجالاً.

الذين تكشف لهم روحها،

ولكنها تترك معظمهم كما وجدتهم،

أما أنا فلست مثلهم،

ولقد علمت ذاك،

حين أثبتتني، وعيناها تجولان حولهم. »

لقد استطعت أن أجمع الكلمات لأؤديها في البنغالية، ولكن النتيجة لم تكن « متعة خالدة » لأبناء البنغال، بل لقد حسبت مرة أني على وشك أن أصبح شاعراً ، ولكن القدر أنقذني من هذه البلاء. أتذكر دا كشينا العجوز؟ لو لم يصبح مفتش ضرائب لكان شاعراً .إنني أذكر ترجمته إلى اليوم ...

لا ياملكة، لا فائدة من النبش في هذه الأرفف . لقد كف نيكهيل عن قـراءة الشعـر منذ زواجـه - ولعله لم يعد بحاجة إليه . ولكني أظن « حمى الشعر » ، كما تسمى بالسنسكريتية، توشك أن تنتابني مرة أخرى.

قال زوجي : لقد جئت لأحذرك يا سنديب.

- من نوبة حمى الشعر !

فلم يبال زوجي بهذه المحاولة للهزل، واستمر يقول : إن الوعاظ المسلمين يطوفون منذ مدة محرضين السكان المسلمين . وكلهم حانقون عليك، وقد يهاجمونك في أية لحظة.

- هل جئت تنصح بالهجرة؟

- لقد جئت لأنبئك لا لأنصحك.

- لو كانت هذه الضياع ملكي لكان الوعاظ هم المحتاجين للتحذير لا أنا، ولو خشنت لهم بدلا من أتحاول تخويفي لكان ذلك أجدر بك وبي. هل تعلم أن ضعفك يضعف ملاك الأراضي جيرانك أيضا .

- إنني لم أقدم إليك نصحي يا سنديب، وأود أن تمتنع أنت أيضا عن تقديم نصحك إليّ . ثم إنه غير مجد. هناك شيء آخر أريد أن أخبرك به؛ إنك وأتباعك قد لبثتم ترهقون سكان أرضي وتؤذونهم في الخفاء، ولا يمكنني أن أسمح باستمرار ذلك ، لهذا يجب عليّ أن أسألك مغادرة أرضي .

– خوفًا من المسلمين ، أم أن هناك خوفًا آخر تهددني به؟

– هناك أنواع من الخوف يكون انعدامها جبنًا ، باسم تلك المخاوف آمرك يا سنديب أن ترحل. سأكون في طريقي إلى كلكتا بعد خمسة أيام، وأريد أن ترافقني. ولك بالطبع أن تقيم في منزلي هناك، فلا اعتراض لي على ذلك.

– حسنًا . إذن فلا يزال لدي خمسة أيام. والآن يا ملكة دعيني أغني لك أغنية فراقي لخليتك. آه يا شاعر البنغال الحديثة ! افتح أبوابك ودعني أنهب كلماتك. إنك أنت السارق حقًا؛ لأن الأغنية التي جعلتها ملكك هي أغنيتي . فليكن الاسم لك كما تشاء ولكن الأغنية لي.

قال سنديب ذلك وانطلق يغني بصوت عميق أجش، يوشك أن يخرج عن النغمة. أغنية من مقام البهايراڤي :

« في ربيع مملكتك يا مليكتي.

« تتعاقب الاقيا والفراق في طراد لا ينتهي ،

« وتورق الزهور على آثار اللواتي ذبلن ومتن في الظلال.

« في ربيع مملكتك يا مليكتي .

« لقياي وإياك كانت لها أغانيها.

« أما لرحيلي هدية يقدمها إليك ؟

« بلى، هي الأمل الخفي خبأته يظلا جنة أزهارك.

« أن تندى أمطار تموز نيران حزيرانك .»

كان جسوراً أيما جسارة ، جسارة سافر عادية كالنار ، لا يلحقها المرء ليوقفها إلا كما يقاوم صاعقة : البرق يخطف ، يضحك من كل مقاومة.

غادرت الحجرة . وبينما كنت أعبر الشرفة نحو الحجرات الداخلية ظهر أموليا فجأة وجاء ووقف أمامي. قال : لاتخشى بأساً يا أختي الراني. إني ذاهب الليلة ولن أعود خائباً.

قلت وأنا أحد النظر إلى وجهه الفتيّ الجاد: أنا لا أخاف على نفسي شيئاً، ولكنني أدعو ألا ينقضي خوفي عليك أبداً.

– والتفت أموليا ليذهب، ولكني ناديته قبل أن يغيب عن عيني وسألته : ألك أم يا أموليا؟

– أجل.

– وأخت؟

– لا. إنني وحيد أمي. أبي مات وأنا طفل صغير.

– إذن عد إلى أمك يا أموليا.

– لكن يا أختي الراني. إن لي الآن أما وأختا.

– إذن تعال يا أموليا قبل أن تسافر الليلة، وتناول عشاءك هنا.

– أن يتسع الوقت لذلك. زوديني بطعام للرحلة مبارك من يديك.

– ما أحب طعام إليك يا أموليا؟

– لو كنت مع أمي لأخذت كثيراً من كعك « البوش » . اصنعي لي بعضاً منه بيديك يا أختي الراني!

الفصل العاشر

حكاية نيكهيل

(١٢)

علمت من أستاذى أن سنديب قد تحالف مع هاريش كوندو، وأن احتفالا كبيراً سيقام لعبادة الإلهة مهلكة الشياطين، وراح هاريش كوندو يبتز النفقات من سكان أرضه، وطلب من الباندييت كافيراتنا والبانديت فيديا جافيش أن ينظما نشيداً مزدوج المعنى.

وكان أستاذى قد جادل سنديب فى هذا الأمر. وسنديب يقول : إن التطور يعمل عمله فى الآلهة أيضًا، فلابد للحفيد أن يعيد تشكيل الآلهة التى خلقها جده لتصبح موافقة له، وإلا فإنه يصير ملحداً. ورسالتى هى أن أجدد الآلهة القديمة. لقد ولدت لأنقذ الآلهة وأحررهم من عبودية الماضى.

لقد عرفت منذ صباى كيف يلعب سنديب بالمعانى لعب الحواة . إنه لا يهتم باكتشاف الحقيقة، ولكنه يطرب للإلغاز فيها. ولو ولد فى أحراش

إفريقية لقضى وقتاً ممتعاً فى اختراع حجة لإثبات أن أكل لحوم البشر هو أمثل السبل لتنمية الاتصال الصحيح بين الإنسان والإنسان. ولكن الذين يتاجرون بالضلالة ينتهون بإضلال أنفسهم، ويقينى الثابت أن سنديب يقنع نفسه بأنه قد وجد الحقيقة كلما اختلق مغالطة جديدة، مهما يكن بين مختلقاته من تناقض.

ولكننى لن أكون عوناً على إنشاء مصنع للخمور فى بلادى. إن الشبان الراغبين فى خدمة قضية بلادهم يجب ألا يتعودوا السكر، وهؤلاء الذين يريدون أن يحصلوا على عمل بأساليب التخدير يهتمون بالإثارة أكثر مما يهتمون بالعقول التى يثيرونها.

كان لابد أن أبلغ سنديب، فى حضرة بيمالا، بضرورة رحيله. ولعل كليهما سيفسران الدافع لى على ذلك تفسيراً خاطئاً. ولكننى يجب أن أتحرر أيضاً من كل خوف أن يسىء أحد فهمى، ولو كان بيمالا ...

يتوافد من « دكا » عدد من الوعاظ المسلمين . كان المسلمون فى أرضٍ قد اكتسبوا كراهة لذبح البقر تكاد تساوى كراهة الهندوس لذلك، ولكن حوادث ذبح الأبقار بدأت تظهر هنا وهناك. وقد سمعت الخبر أول الأمر من بعض السكان المسلمين الذين أبدوا استنكارهم له. كان موقفاً يصعب علاجه. ففى قرارته حمية دينية مصطنعة، لن تبقى مصطنعة إذا كبحت. وفى هذا كانت عبقرية الحركة !

بعثت إلى بعض السكان الهندوس وحاولت أن أبصرهم بالأمر على حقيقته . فقلت لهم : إن لنا أن نتمسك بعقائدنا، ولكن لا سلطة لنا على عقائد غيرنا. فمع أن فينا كثيراً من الفياشنافا، فإن الشاكتا من بيننا لا يزالون يقربون ذبائحهم ، هذا أمر لا مفر منه. وكذلك يجب علينا أن نترك المسلمين يفعلون ما يرونه صواباً . لهذا أرجو أن تمتنعوا عن كل شغب.

فأجابوا : يا مهراجا، لقد هجرت هذه الإساءات زمنًا طويلا.

قلت : أجل، كان ذلك لأنهم شاءوه هم أنفسهم. فليكن مسلكنا بحيث يساعد على تحقيق ذلك مرة أخرى. ولكن نقض السلام لايساعد على تحقيقه.

فأصروا : لا يا مهراجا. لقد ذهبت تلك الأيام. ولن يقف هذا الأمر إلا أن تقمعه قمعاً.

قلت : إن الاضطهاد لن يمنع قتل الأبقار، وقد يؤدى إلى قتل الناس أيضاً.

وكان أحدهم قد تلقى تعليمًا إنجليزيًا، وتعلم ترديد العبارات الجارية، فاحتج بقوله : ليست المسألة مسألة عقيدة فقط. إن بلادنا تعتمد على الزراعة، والأبقار...

فقاطعته قائلا : إن الجاموس فى هذه البلاد أيضًا يؤخذ لبنه ويستخدم فى الحرث. وما دمنا نرقص رقصات جنونية على أفاريز

معابدنا وقد تلطخنا بدمائها وحملنا رءوسها المقطوعة على أكتافنا فإن الدين سيسخر منا لو تنازعنا نحن والمسلمون فيها، والحقيقة الوحيدة التى ستبقى هى النزاع. وإذا كانت البقرة وحدها دون الجاموسة هى المقدسة التى لا تذبح فإن هذا لا يكون دينًا بل تعصبًا.

وواصل الساكن الذى يعرف الإنجليزية قوله : لعلك لا تعلم يا سيدى ما وراء هذا كله ؟ إن هذا لم يصبح ممكنًا إلا لأن المسلم آمن ولو خرق القانون. ألم تسمع بقضية باتشور؟

فسألت : وكيف أمكن استخدام المسلمين ضدنا؟ ألسنا نحن الذين دفعناهم إلى ذلك بتعصبنا؟ هكذا يعاقبنا القدر. إن ذنوبنا المتراكمة تقع على رءوسنا.

- حسنا ، فلتقع . ولكننا سننتقم . لقد قضينا على أعظم قوة للسلطات وهى ولاؤها لقوانينها. إنهم كانوا مرة ملوكا حقًا يقيمون العدالة، والآن أصبحوا هم أنفسهم خارجين على القانون، فليسوا إذن أفضل من اللصوص . قد لا يسجل التاريخ هذا، ولكننا سنحمله فى قلوبنا على مدى الزمن.

أقاويل السوء التى تتناقلها الصحف عنى تجعل لى شهرة ذميمة. وثمة خبر يقول : إن صورتى أحرقت فى محرقة آل تاشكرا فارتى المجاورة للنهر بما ينبغى من احتفال وحماسة. وهناك إهانات أخرى تعد. وكان سبب هذه المتاعب أنهم جاءوا يطلبون منى المساهمة فى

مصنع لنسج القطن أرادوا إنشاءه ، فاضطررت لأن أقول لهم : إنى لا أبالى بضياع نقودى ولكنى لا أحب أن أشترك فى إنزال الخسارة بكثير من المساهمين الفقراء. فقال زائرى : هل نفهم من هذا يا مهراجا أنك غير معنى يتقدم البلاد؟

فقلت موضحًا : إن الصناعة قد تؤدى إلى تقدم البلاد، ولكن مجرد الرغبة فى تقدمها لا يؤدى إلى نجاح الصناعة. إن صناعاتنا لم تزدهر عندما كانت رءوسنا أهدأ ، فلماذا تقدر أنها ستزدهر لغير سبب إلا أننا أصبحنا مجانين؟

– هلا قلت صراحة : إنك لا ترغب فى المخاطرة بنقودك؟

سأقدم نقودى عندما أرى أنكم مهتمون بالصناعة حقًا . لكن إذًا كنتم قد أشعلتم نارًا فلا يستنتج من ذلك أن لديكم طعامًا تطهونه عليها .

(١٣)

ماهذا؟ خزانتنا الفرعية فى «تشاكنا» نهبت! كان من المقرر أن تصل ٧٥٠٠ روبية من هناك إلى المركز الرئيسى، وكان صراف الإقليم قد بدل العملة المعدنية من خزانة الحكومة بأوراق نقدية حتى يسهل عليه حملها، وتركها مجهزة فى حزم. وفى جوف الليل أغارت عصابة مسلحة على الحجرة، وجرحوا الحارس « قاسمًا » والغريب فى الأمر أنهم لم يأخذوا إلا ستة آلاف روبية، وتركوا الباقى مبعثرًا على الأرض، مع أنه كان من السهل عليهم أن يأخذوه أيضًا. على كل حال انتهت غارة اللصوص لتبدأ غارة الشرطة، ولم يعد السلام فى الإمكان.

عندما دخلت البيت وجدت الخبر قد سبقنى إليه . صاحت البارا رانى: ما أفظع الأمر يا أخى ، ماذا نستطيع أن نعمل؟

فهونت الأمر عليها. قلت مبتسمًا : لا يزال لدينا بعض النقود، ونستطيع أن ندبر حالنا.

– لا تجعلها ضحكة يا أخى العزيز. لماذا كلهم غاضبون عليك؟ ألا تستطيع إرضاءهم ؟ لماذا تجعل الجميع ضدك؟

– لا يمكننى أن أترك البلاد تسير إلى الخراب، ولو كان فى ذلك رضى الجميع.

- كان شيئًا فظيعًا هذا الذى فعلوه فى المحرقة. عار أن يعاملوك هكذا . لقد تخلصت تشوتا رانى من جميع مخاوفها بفضل تعليم المرأة الإنجليزية. أما أنا فلم أجد بدًا من أن أبعث إلى الكاهن ليطرد النحس حتى أجد شيئًا من الراحة. أرجوك يا عزيزى، من أجل خاطرى، ترحل إلى كلكتا. إنى أرتجف من التفكير فيما يمكن أن يفعلوه إن بقيت هنا.

تأثرت تأثرًا عميقًا لإشفاقها الصادق ومضت زوجة أخى تقول:

- ويا أخى ، ألم أحذرك من الاحتفاظ بهذه النقود الكثيرة فى حجرتك؟ إنهم لا يبعد أن يشموا خبرها يومًا. لا تهمنى النقود - لكن من يدرى ...

ولكى أطمئنها وعدت بنقل النقود إلى الخزانة على الفور ثم إرسالها إلى كلكتا مع أول حرس ذاهب . وذهبنا معًا إلى حجرة نومى . كان باب حجرة الملابس مغلقًا. وحين طرقته صاحت بيمالا : إنى ألبس.

فقالت زوجة أخى فى دهشة : عجبًا لتشوتا رانى، تلبس فى هذا الوقت المبكر! لعله أحد اجتماعات « باندى ماترم » ونادت بيمالا ممازحة: أيتها الملكة السارقة ! هل تعدين غنائمك عندك ؟

وقالت خارجًا إلى حجرة مكتبى : سأعنى بأمر النقود بعد قليل.

وجدت مفتش الشرطة فى انتظارى ، فسألته : هل من أثر للصوص ؟

– إنى أظن ذلك .

– من ....؟

– قاسم ، الحارس.

– قاسم ، ألم يجرح؟

– شيئًا غير ذى بال. جرحًا سطحيًا فى الساق، لعله هو الذى أحدثه.

– ولكنى لا أستطيع أن أصدق. إنه خادم جد أمين.

– لعلك كنت تأتمنه، ولكن ذلك لايمنع أنه لص. لقد رأيت رجالا يؤتمنون عشرين سنة ثم يتحولون فجأة ...

– حتى إن صح هذا؛ فإنى لا أستطيع إرساله إلى السجن . ولكن لماذا يترك بقية النقود وهى أمامه؟

– ليضللنا. مهما تقل يامهراجا فلابد أنه لص أزرق الناب. إنه يقوم بالحراسة فى نوبته ، هذا صحيح ، ولكنى واثق أن له إصبعًا فى جميع السرقات التى تحدث فى هذه المنطقة .

وبدأ المفتش يسرد الطرق المختلفة التى يمكنه بها أن يشترك فى سرقة على بعد عشرين ميلا أو ثلاثين ثم يعود قبل موعد نوبته . فسألته: هل أحضرت قاسمًا إلى هنا؟

وكان الجواب : لا ، إنه فى الحجز، وسيحضر المحقق لاستجوابه.

فقلت : أريد أن أراه.

وحين ذهبت إلى زنزانته ركع عند قدمى باكيا وقال : أقسم بالله أنى لم أفعل هذا الشىء!

فطمأنته قائلا : أنا لا أشك فيك ياقاسم . لا تخش شيئًا . إنهم لن يفعلوا بك شيئًا إذا كنت بريئًا.

ولكن قاسمًا عجز عن أن يقدم وصفًا مترابطًا للحادث. وكان من الواضح أنه يبالغ، فقد كان فى قصته أربعمائة رجل أو خمسمائة، ومدافع كبيرة، وسيوف لاتحصى. ولابد أن ذلك كان راجعًا إما إلى هوشة عقله أو إلى رغبته فى تفسير انهزامه السريع. وكان رأيه أن هذا تدبير هاريش كوندو، بل لقد زعم أنه سمع صوت « إكرام » كبير خدم آل كوندو.

واضطررت أن أحذره بقولى: اسمع ياقاسم ! لا تجر أناسًا آخرين بحكاياتك. إنك غير مطالب بتوجيه اتهام إلى هاريش كوندو أو إلى غيره.

(١٤)

حين عدت إلى المنزل دعوت أستاذى. فهز رأسه بحزن وقال : أنا لا أرى فى هذا خيراً. هذا الإطراح للضمير وإحلال الوطن محله. الآن ستنطلق كل آثام البلاد مروعة لا تستحى.

– من تظنه ...

– لا تسألنى . ولكن الإثم يستشرى. اطردهم جميعا. اطردهم فوراً من هنا.

– لقد أعطيتهم يوماً آخر، وسوف يرحلون بعد غد.

– وشىء آخر .. خذ بيمالا إلى كلكتا. إنها تنظر إلى العالم الخارجى من هنا نظرة جد ضيقة ، فهى لا تستطيع أن ترى الناس والأشياء فى نسبها الحقيقية. دعها تر الدنيا – الناس وعملهم – أتح لها نظرة أوسع.

– هذا بعينه ما كنت أفكر فيه.

– إذن فلا تتوان عن تنفيذه. واعلم يانيكهيل أن تاريخ الإنسان يجب أن يبنى بتضافر جهود جميع الأجناس فى العالم، ولذا فلن ينفع بيع الضمير هكذا من أجل أسباب سياسية، وجعل وطن المرء معبوداً خاصاً له. أنا أعلم أن أوروبا لا تسلم بذلك فى صميم قلبها. ولكنها لا تستطيع أن تدعى لنفسها الحق فى الوقوف منا فى هذا الأمر موقف

المعلم . إن الرجال الذين يموتون فى سبيل الحق يخلدون، وإذا استطاع شعب بأسره أن يموت في سبيل الحق فإنه سيخلد أيضًا فى تاريخ البشرية. فليصبح هذا الشعور نحو الحق واقعا هنا فى أرض الهند، بين ضحك الشيطان الذى يخترق السماء! أى وباء من الإثم مروع حمل إلى بلادنا من أراض أجنبية ...

مر اليوم كله فى دوامة من التحقيق. وكنت منهكا حين أويت إلى فراشى مؤجلا إرسال نقود زوجة أخى إلى الخزانة حتى الصباح التالى :

وصحوت من نومى فى سكون الليل . كانت الحجرة مظلمة. وخلت أنى سمعت أنينا فى مكان ما، لابد أن أحداً كان يبكى. جاءت أصوات النحيب مثقلة بالدموع كنفثات الريح فى ليل مطير. وخيل إلىّ أن الصراخ ينبعث من قلب حجرتى. كنت وحيداً، فقد نقلت بيمالا سريرها منذ بضعة أيام إلى حجرة مجاورة لحجرتى، فقمت وحين خرجت وجدتها فى الشرفة منبطحة على وجهها فوق الأرض العارية .

هذا شىء لا يمكن أن يكتب بكلمات. إنما يعلمه من هو مستو فى صدر العالم يتلقى نبضات الألم منه فى قلبه هو. السماء بكماء ، النجوم خرساء ، الليل هامد، وفى وسط هذا كله صرخة واحدة لا تنام!

إننا نعطى هذه العذابات أسماء رديئة أو حسنة، حسبما تصنفها الكتب. لكن هل ثمة اسم لهذا الوله النابع من قلب ممزق، يصب فى الظلام الذى لا قرار له؟ عندما نظرت إلى ذلك الشبح، فى قلب ذلك الليل، وأنا واقف تحت النجوم الصامتة، عرتنى رهبة وقلت لنفسى: «من أنا حتى أدينها؟» يا حياة، ياموت ، يا الله، يامن تقصر عن وجودك الحدود، إننى أحنى رأسى صامتا أمام سرك.

فكرت مرة أن أرجع، ولكنى لم أستطع فجلست على الأرض قرب بيمالا ووضعت يدى على رأسها، عند أول لمسة بدا كأن جسمها كله تصلب، ولكن الصلابة استرخت فى اللحظة التالية، وانفجرت الدموع. وأمررت أصابعى برفق على جبينها، وفجأة أمسكت يداها المتلمستان بقدمى واحتضنتهما بقوة حتى ظننت أن قلبها ينشق.

حكاية نيكهيل

(١٨)

موعد أموليا أن يعود من كلكتا هذا الصباح. أمرت الخدم أن ينبئونى ساعة وصوله ولكنى لم أستطع أن أقر فى مكانى، وأخيراً خرجت لأنتظره فى حجرة الجلوس.

أخالنى لم أكن أفكر فى غير نفسى عندما أرسلته ليبيع الحلى. فلم يخطر ببالى أن مثل هذا الصبى الصغير يتعرض للشبهة على الفور إذا حاول أن يبيع حليا ثمينة كهذه. نحن النساء ضعيفات الحيلة حتى أننا لنحمل غيرنا عبء. الخطر المحدق بنا، وعندما ننساق إلى موتنا نجر من حولنا إليه.

لقد قلت فى فخر إننى سأنقذ أموليا. كأنما تستطيع الغريقة أن تنقذ غيرها. ولكننى بدلا من أن أنقذه أرسلته إلى هلاكه. يا أخى الصغير، أى أخت كنت لك؟! لاشك أن الموت ابتسم فى يوم الأخ ذاك حين منحتك بركتى - أنا التى أهيم شاردة اللب تحت عبء خطاياى.

أشعر اليوم أن الإنسان يهاجمه الشر أحيانًا كما يهاجمه الوباء، جرثومة تجد طريقها من مكان ما، وفي مدى ليلة يدخل الموت بخطاه الخشبية. لماذا لا يبعد المصاب عن سائر الناس؟ أنا على الأقل عرفت فظاعة العدوى ، كمشعل نارى يحترق ليضرم النار فى العالم.

دقت التاسعة . ولم أستطع أن أتخلص من فكرة أن أموليا فى مأزق، وأنه قد وقع فى أيدى الشرطة. لابد أن هناك هياجًا شديدًا فى مركز الشرطة – من صاحبة الحلى؟ – من أين حصل عليها؟ وعلىّ أخيرًا أن أقدم الجواب علنا، على رءوس الأشهاد.

ماذا يكون ذلك الجواب؟ هذا يومك يا بارا رانى، أنت التى طالما احتقرتك . ستنالين قصاصك وأنت فى صورة الجمهور، فى صورة الدنيا.. رباه!! جنبنى هذه الساعة، فأذرح كل كبريائى عند قدمى سلفتى.

لم أعد أطيق صبرًا . فذهبت توًا إلى البار رانى، كانت فى الشرفة تقطع أوراق « التنبول » كعادتها وثاكو بجانبها. وأجفلت لحظة حين رأيت ثاكو، ولكنى تغلبت على كل تردد، وانحنيت انحناءة عميقة ومسحت التراب عن قدمي سلفتي. فصاحت : عجبًا لك ياتشوتا رانى! ماذا أصابك ؟ لم هذه التحية المفاجئة؟

قلت : إنه يوم ميلادى يا أختى. لقد سببت لك آلاما كثيرة. فامنحينى بركتك اليوم حتى لا أعود إلى ذلك . إن عقلى صغير. وكررت انحناءتى وتركتها مسرعة ، ولكنها نادتنى.

– لم تخبرينى قط أن هذا يوم ميلادك يا حبيبتى « تشوتى » ! يجب أن تتغدى عند اليوم . يجب ، يجب.

رباه، اجعله حقًا يوم ميلادى ! ألا يمكن أن أولد من جديد؟ امسح أو ضارى يا ربى ، طهرنى واختبرنى مرة أخرى!

ذهبت ثانية إلى حجرة الجلوس لأجد سنديب هناك. فخيل إلى أن شعوراً ابالتقزز يسمم دمى نفسه. لم يكن فى وجهه الذى رأيته فى ضوء الصبح شيء من ألق العبقرية . صحت : اخرج من الحجرة!

فابتسم سنيب قائلاً : ما دام أموليا غير موجود فأظن أن دورى قد جاء لحديث خاص.

كان قدرى ينصب على من جديد. كيف أنزع حقًا أنا منحته. كررت: أحب أن أبقى وحيدة .

قال : يا ملكة ، إن وجود شخص آخر لا يمنع أن تكونى وحيدة. لا تحسبينى واحداً من الدهماء. أنا – سنديب – وحيد أبداً، ولو كان حولى ألوف.

– أرجوك أن تأتى فى يوم آخر. إننى فى هذا الصباح ...

– تنتظرين أموليا؟

وتحولت من غيظى لأترك الحجرة ، وإذا بسنديب يُخرج من بين ثنايا عباءته صندوق حلي ويضعه بقوة على المنضدة الرخامية. وتملكتنى الدهشة ، فصحت : ألم يذهب أموليا إذن؟

- إلى أين ؟

- إلى كلكتا .

فتهانف سنديب : لا.

إذن فقد صحت بركتى على الرغم من كل شيء. لقد أنقذ . فليقع عقاب الله عليّ، فأنا الأصل ، وليبق أموليا فى مأمن!

أثار تغير طلعتى احتقار سنديب، فقال ساخراً : كل هذا السرور ياملكة ! أهذه الحلى ثمينة جداً إلى هذا الحد؟ كيف استطعت إذن أن تتغلبى على نفسك حتى تهبيها للإلهة؟ لقد أعطيت هبتك فعلا، أتحبين أن ترجعى فيها الآن؟

إن الكبرياء تدافع عن نفسها حتى الموت، وترفع مخالبها إلى اللحظة الأخيرة. لقد وضح لى أننى يجب أن أبدى لسنديب استهانتى××× بهذه الحلى، فقلت : خذها إن كانت تثير طمعك.

فأجاب سنديب : إن طمعى اليوم يحيط بكل ثروة البنغال. هل هناك قوة أعظم من الطمع؟ إنه ركوبة عظماء الأرض، كما أن الفيل إيراوات ركوبة إندرا. هذه الحلى هى إذن لى؟

وبينما كان سنديب يتناول الصندوق ويعيده تحت عباءته اندفع أموليا داخلا. كانت تحت عينيه حلقات سوداء، وكانت شفتاه جافتين، وشعره مشعثًا ، وكأنما ذبلت نضرة شبابه في يوم واحد. واعتصر الألم قلبي حين نظرت إليه. صاح وهو يمضي إلى سنديب دون أن ينظر نحوي: صندوقي ! هل أخذت صندوق الحلي هذا من حقيبتي؟

فقال سنديب ساخرًا : صندوق حليك؟

– إنها حقيبتي!

فانفجر سنديب ضاحكًا: لقد أصبحت ضعيف التمييز بين مالك ومالي يا أموليا . وما أحسبك إلا ستموت واعظًا دينيًا.

غاص أموليا في كرسي وقد أخذ وجهه بين يديه. فذهبت إليه ووضعت يدي على رأسه وسألته: ما يحزنك يا أموليا ؟

فأجاب وهو يقف معتدلا : لقد منيت نفسي يا أختي الراني أن أرد هذه الحلي إليك بيدي . وكان سنديب بابو يعلم ذلك ولكنه سبقني.

قلت : وما قيمة الحلي لي : فلتذهب . إنني لن أضار. فسأل الفتى مذهولا : تذهب ؟ أين ؟

قال سنديب : إن الحلي لي . هبة من ملكتي!

فصاح أموليا ثائرًا : لا ، لا ! لن يكون ذلك يا أختي الراني. لقد أحضرتها لك، فلن تعطيها لإنسان آخر.

قلت : إنني أقبل هديتك يا أخي الصغير. ولكن دع من يحلم بها يرضي طمعه.

فحملق أموليا في سنديب كوحش ضار، وزمجر: اسمع يا سنديب بابو، أنت تعلم أني لا أخاف الشنق نفسه ، لو جرؤت على أن تأخذ هذا الصندوق...

فقال سنديب وهو يحاول أن يصطنع ضحكة سخرية: ينبغي أن تكون قد علمت أيضا يا أموليا أني لست بالرجل الذي يخافك.

ومضى يقول ملتفتًا إلي : يا ملكة ، إني لم آت إلى هنا اليوم لآخذ هذه الحلي، بل لأقدمها إليك . فلو أخذت هديتي من يدي أموليا لكنت مخطئة. لقد كان علي أن أجعلها ملكًا خالصًا لي أولا حتى أمنع ذلك. والآن أهدي إليك جواهري هذه. إليك ! تفاهمي مع هذا الفتى كما تشائين، فإني ذاهب. لقد شغلتما بأحاديثكما الخاصة كل هذه الأيام ، وجعلتماني بمعزل . فإن حدثت أمور خاصة الآن فلا تلوماني.

وأردف : أموليا ! لقد أرسلت حقائبك وأمتعتك إلى مسكنك . فلا تبقي شيئًا مما تملكه في حجرتي بعد الآن.

أطلق سنديب هذه الرصاصة الأخيرة ، واندفع خارجًا من الحجرة.

(١٩)

لقلت لأموليا: لم أعرف راحة القلب منذ بعثتك لتبيع حليى.

– لماذا يا أختى الرانى؟

– خفت أن تقع فى المتاعب بسببها، فيشكوا أنك لص . وكان أهون علىّ أن أستغنى عن هذه الستة آلاف من الروبيات. الآن يجب عليك أن تفعل شيئًا آخر من أجلى. عد إلى بيتك حالا. عد إلى أمك .

فأخرج أموليا ربطة صغيرة وقال : ولكننى أحضرت الستة آلاف يا أختى .

– من أين ؟

فمضى يقول دون أن يجيب عن سؤالى : لقد اجتهدت فى أن أحصل على ذهب ولكنى لم أستطع، فاضطررت أن أحضرها أوراقًا.

– قل لى الحق يا أموليا. احلف بحياتى . من أين حصلت على هذه النقود؟

– هذا مالن أخبرك به.

ورأيت كل شىء يظلم أمام عينى. صحت : ماهذا الأمر الفظيع الذى أتيته يا أموليا ؟ أهو إذن ...

– أعلمك ستقولين إنى حصلت على هذه النقود من طريق سيىء. حسن جداً. إنى أعترف بذلك. ولكنى دفعت ثمن إساءتى كاملا. وإذن، فالنقود الآن لى.

لم تعد بى رغبة إلى معرفة المزيد، تقلصت عروقى نفسها، حتى جعلت جسمي كله ينكمش . وتضرعت: خذها يا أموليا. ردها كما أخذتها.

– إن هذا جد عسير!

– ليس بعسير يا أخى العزيز. لقد كانت لحظة منحوسة تلك التى جئتنى فيها أول مرة. حتى سنديب لم يستطع أن يؤذيك كما آذيتك.

وكأنما كان اسم سنديب طعنة له. صاح : سنديب ! إنك أنت وحدك التى جعلتنى أعرف هذا الرجل على حقيقته. أتعلمين يا أختى أنه لم ينفق دانقًا من تلك الجنيهات الذهبية التى أخذها منك؟ لقد أغلق على نفسه باب حجرته بعد أن خرج من عندك وراح يتأمل الذهب بعينين مشدوهتين، وقد صبه فى كومة على الأرض. وكان يصيح : « ليست هذه نقوداً. إنها أوراق الزهر فى لوتس القدرة، أنغام متبلورة من موسيقى النايات التى تعزف فى جنة الثراء! إن قلبى لا يطاوعنى على تبديلها، فإنى أراها مشتاقة إلى استيفاء حظها بتزيين جيد الجمال، أموليا ياولدى لاتنظر إلى هذه بعين جسمك، إنها ابتسامة لاكشمى، ضياء ملكة إندرا الساطع. لا لا ، إنى لا أستطيع تسليمها لذك الوكيل الجلف. أنا

واثق يا أموليا أنه كان يكذب علينا . إن الشرطة لم تهتد إلى الرجل الذى أغـرق ذلك القـارب . إن الوكـيل هو الذى يريد أن يخـرج بشىء من الصفقة. يجب أن نسترد تلك الخطابات منه».

وسألته كيف نفعل ذلك، فأمرنى أن أستخدم العنف أو التهديد. وقبلت أن أنفذ قوله إن هو رد الذهب. فقال إنه سيفكر بعد فى هذا الأمر . ولن أثقل عليك يا أختى بالحديث عن كل ما فعلته لأخيف الرجل حتى سلم هذه الخطابات وأحرقها، فهذه قصة طويلة. وفى تلك الليلة نفسها جئت إلى سنديب وقلت: نحن الان آمنون. أعطنى الجنيهات الذهبية لأردها غدًا إلى أختى المهرانى. ولكنه صاح : ماهذه الفتنة منك؟ إن ثوب أختك العزيزة يوشك أن يحجب البلاد كلها عن عينيك . قل «باندى مانرم» وأبعد عنك الروح الشريرة.

إنك تعلمين يا أختى الرانى قوة سحر سنديب. لقد بقى الذهب معه، وأمضيت الليل الطويل المظلم على درج البحيرة أتمتم: « باندى ماترم».

ثم لما أعطيتنى الحلى لأبيعها ذهبت ثانية إلى سنديب، فلم يخف على أنه غاضب منى. وإن حاول ألا يظهر ذلك . قال وهو يلقى إلى بمفاتيحه: « إن كنت لا أزال أكنزها فى صندوق من صناديقى، فلك أن تأخذها». ولم أعثر لها على أثر، فقلت : أخبرنى أين هى. قال : « سأخبرك حين تذهب عنك هذه الفتنة».

ولما رأيت أنى لن أستطيع زحزحته اضطررت أن ألجأ إلى طرق أخرى. فحاولت أن أحصل منه على الجنيهات الذهبية إزاء أوراقي المالية وهى ستة آلاف روبية. فقال : سآتيك بها . » ثم غاب فى حجرة نومه وتركنى أنتظر خارجها. وهناك فض حقيبتى وجاء إليك بصندوقك من طريق آخر. لقد أبى علىّ أن أحضرها والآن، يجرؤ على أن يسميها هديته . كيف أصف لك مقدار ما حرمنى منه؟ إننى لن أغفر له أبداً.

ولكن سلطانه على قد انمحى تماماً يا أختى . وأنت التى محوته.

قلت : يا أخى العزيز إن صح ماتقوله، فإن حياتى لم تذهب عبثًا. لكن لا تزال هناك أعمال أخرى يا أموليا. فلن يكفى تدمير السحر حتى يغسل دنسه. لاتؤجل الأمر أكثر من هذا. اذهب من فورك ورد النقود حيث أخذتها. ألا يمكنك أن تفعل ذلك أيها العزيز؟

- ببركتك كل شيء ممكن يا أختى الرانى.

- تذكر أن ذلك لن يكون تكفيراً عنك وحدك بل عنى أيضا. فأنا امرأة ، والعالم الخارجى مغلق أمامى، ولولا ذلك لذهبت بنفسى. إن أشد عقاب أتحمله هو أنى أحملك وزرى.

- لاتقولى هذا يا أختى. إن الطريق الذى سردت فيه لم يكن طريقك. لقد اجتذبنى بأخطاره ومصاعبه. والآن وقد نادانى طريقك فليكن أصعب ألف مرة وأشد خطراً . فتراب قدميك سيساعدنى على الظفر . أتأمرين إذن برد هذه النقود؟

– أنا لا آمر يا أخى العزيز ، ولكنه أمر السماء.

– عن هذا لا أعلم شيئًا . يكفينى أن هذا الأمر السماوى يصدر من شفتيك ، ثم إننى يا أختى كنت أحسب لى دعوة ههنا . لست بمضيعها. أعطينى « البراساد[1] » قبل ذهابى . وإن استطعت: فسوف أتم واجبى فى المساء.

واغرورقت عيناى بالدموع حين حاولت أن أبتسم وأنا أقول : فليكن ما تريد؟

(١) طعام باركته لمسة شخص مبجل (المترجم).

الفصل الحادى عشر

حكاية بيمالا

(٢٠)

لما رحل أموليا غاص قلبى بين جنبى. إلى أى مهلكة بعثت هذا الابن الوحيد؟ رباه! لماذا يكون لتفكرى كل هذه الفخامة والاحتفال؟ ألا يسمح لى بأن أتعذب وحدى دون أن أدعو كل هذا الجمع إلى مشاركتى فى عقابى؟ رباه ! لا تدع هذا الطفل البرىء يسقط ضحية لغضبك.

لقد ناديته ثانية : أموليا!

كان صوتى ضعيفًا فلم يبلغه ، فسرت إلى الباب وناديت ثانية. أموليا!

كان قد ذهب.

– من هناك؟

– أمنا الرانى!

- اذهب وقل لأموليا إننى أريده .

ولست أدرى ماذا حدث بالضبط. لعل الرجل لم يكن يعرف اسم أموليا ، ولكنه عاد من فوره يتبعه سنديب. قال وهو يدخل: لحظة طردتنى كنت أشعر أنك ستناديننى ثانية. إن جاذبية القمر نفسه تحدث الجزر والمد جميعًا. لقد كنت واثقًا من استدعائى حتى أنى انتظرت فى الدهليز، وما كنت ألمح خادمك خارجًا من حجرتك حتى قلت : « نعم، نعم، أنا آت، آنا آت على الفور!» - قبل أن يستطيع النطق بكلمة واحدة. لقد دهش هذا الغبى وحملق فىّ فاغر الفم، وكأنه يحسبنى عالمًا بالسحر.

واستطرد سنديب: كل المعارك فى العالم يا ملكة هى فى واقع الأمر معارك بين قوة مغناطيسية. سحر يقذف بسحر - أسلحة لا صوت لها، تصل إلى أهداف قد لا تبصرها العين. وأخيرًا لقيت فيك كفئا لى. إننى أعلم أن جعبتك ملأى. أيتها الملكة المحاربة الماكرة! أنت وحدك فى العالم التى استطعت أن تطردى سنديب وتستدعيه على هواك. حسنًا ، إن صيدك عند قدميك ، فماذا أنت فاعلة به الآن؟ هل تجهزين عليه أم تبقينه فى قفصك ؟ دعينى أحذرك مقدمًا يا ملكة ، ستجدين التعجيل بقتل الوحش صعبا كاستبقائه فى الأسر. على كل حال، لماذا ضياع الوقت فى تجربة أسلحتك السحرية؟

لابد أن سنديب شعر بظل الهزيمة المقتربة، فراح يحاول كسب الوقت بالثرثرة دون أن ينتظر جوابًا . وأحسبه كان يعلم أنى بعثت الرسول فى طلب أموليا، ولا بد أن الرجل ذكر اسمه، ومع ذلك فقد تعمد أن يلعب لعبته، وهو الآن يحاول ألا يدع لى ثغرة لأخبره أن أموليا هو من أردت لا إياه. ولكن هذه الحيلة لم تنتج، فقد استشففت منها ضعفه. يجب ألا أتزحزح قيد شعرة عن الأرض التى كسبتها.

قلت: سنديب بابو! يدهشنى كيف تستطيع أن تمضى بلا توقف فى هذه الخطب التى لا تنتهى . هل تحفظها مقدمًا عن ظهر قلب؟

فاحمر وجه سنديب فى الحال، ومضيت أقول: لقد سمعت أن خطباءنا المحترفين لديهم كتاب ملىء بجميع أنواع الخطب الجاهزة التى يمكن إدخالها فى أى موضوع. أأنت أيضًا عندك كتاب؟

فطحن سنديب جوابه بين أسنانه. لقد أعطاكن الله معشر النساء نصيبا وافيًا من الدل ابتداء، ثم وجدتن فوق ذلك عونًا من الحائك والجوهرى، ولكن لا تحسبن أننا نحن الرجال ضعاف الحيلة حتى ....

– خير لك أن ترجع وتذاكر كتابك يا سنديب بابو ، لقد أسمعت كلماتك كلها خطأ، وهذا عيب الترديد دون فهم.

فصاح سنديب، وقد فقد كل سلطان على نفسه . أنت! أنت تهينيننى هذه الإهانة! ماذا بقى منك لا أعرفه حتى القرار ؟ ماذا ....

وأرتج عليه.

إن سنديب صاحب الرقى السحرية يصاب بالعجز المطلق حين تأبى رقيته أن تحدث أثرًا . لقد هوى من ملك إلى سوقة. أوه، ما أحلى رؤية ضعفه! وكلما ازداد غلظة تدفقت الفرحة فى نفسى. إن حلقاته الثعبانية التى كان يأسرنى بها قد ذهبت قوتها - إننى حرة ، لقد نجوت، نجوت. اعنف بى، أهنى، فذلك يظهرك على حقيقتك ، لكن اعفنى من أغنيات مديحك الكاذبة.

دخل زوجى ونحن على هذه الحال ، ولم يجد سنديب من المرونة ما يمكنه أن يملك نفسه فى لحظة كعادته فيما مضى. فنظر زوجى إليه دهشًا، ولو حدث هذا منذ أيام لشعرت بالخجل، ولكننى اليوم مسرورة - مهما يظن زوجى. فقد أردت أن أفرغ من أمر خصمى المتهالك.

تردد زوجى قليلا حين وجدنا كلينا صامتين متحفزين ، ثم جلس على حافة كرسى. قال : سنديب ، لقد كنت أبحث عنك ، وقيل لى إنك هنا.

فقال سنديب بشىء من التأكيد؟ إننى هنا. الملكة أرسلت إلىّ فى الصباح الباكر، وأنا العامل المسكين فى الخلية تركت كل شىء لأتلقى أوامرها.

- أنا ذاهب إلى كلكتا غداً. وأنت آت معى؟

– ولماذا بريك؟ أتحسبني واحداً من حاشيتك؟

– أوه ، حسنًا ، هب أنك ذاهب إلى كلكتا ، وأنى تابعك .

– ليس لى عمل هناك.

– هذا أدعى لذهابك. فإن أعمالك هنا أكثر مما ينبغى.

– لست أنوى الانتقال.

– إذن فأنا أنوى نقلك.

– بالقوة!

– بالقوة .

– حسنًا . سأتحرك إذن. ولكن العالم ليس مقسمًا بين كلكتا وضياعك. هناك أماكن أخرى على الخريطة.

– لم يكن يبدو من مسلكك أن فى العالم مكانًا آخر غير ضياعى.

فنهض سنديب وقال: يحدث أحيانًا أن ينحصر عالم المرء فى بقعة واحدة. وقد وجدت عالمى فى حجرة جلوسك هذه، ولذلك أطلت البقاء

ثم التفت إلىّ قائلا: لن يفهم كلماتى غيرك يا ملكة . ولعلك أنت أيضًا لن تفهميها. إنى أحييك . أتركك وفى قلبى عبادة. لقد تغير شعارى منذ وقعت عليك عيناى. لم يعد « باندى ماترم». حييت يا أم، بل حييت يا حبيبة ، حييت يا ساحرة، إن الأم ترأم، والحبيبة تقود إلى

الهلاك – ولكنه هلاك حلو. لقد جعلت أصوات الخلاخيل فى رقصة الموت ترن بقلبى. لقد غيرت إمامى، أنا عابدك، صورة هذه البنغال بلادنا، البلاد الرقيقة، بلاد الماء النمير والجنى الحلو التى لطفتها أنفاس النسيم[1] إنك لاتعرفين الرحمة يا حبيبتى. لقد جئت إلى بكأسك المسموم وسأشربه إلى آخر قطرة، فإما أن أموت معذبًا وإما أن أعيش منتصرًا على الموت.

ومضى يقول ، أجل . لقد ذهب يوم الأم. آه يا حبيبتى، يا حبيبتى، لقد جعلت الحقيقة والعدل والسماء نفسها هباء عندى . كل الواجبات أصبحت كالظلال، كل القواعد والحدود انكسرت قيودها . يا حبيبتى، يا حبيبتى، إننى أستطيع أن أشعل النار فى العالم كله غير هذه الأرض التى تضعين عليها قدميك الجميلتين ، وأرقص فى فرح مجنون فوق الرماد ... هؤلاء رجال هادئون. هؤلاء رجال طيبون ، يريدون أن يفعلوا الخير للجميع – كأن هذا الجميع له واقع ! لا، لا ! ليس فى العالم واقع واحد إلا حبى هذا. إنى أحبك . إن ولائى لك جعلنى قاسيًا ، وعبادتى أضرمت شعلة التدمير الهائجة فى نفسى، أنا لست فاضلا، أنا لا أومن بشىء، أنا لا أومن إلا بمن استطعت أن أجدها فوق كل شىء فى العالم.

---

(١) اقتباس من النشيد الوطنى (باندى ماترم).

عجيب ! إن هذا عجيب! منذ لحظة كنت أحتقر هذا الرجل من كل قلبي. ولكن ما كنت أظنه رمادًا خابيًا ومض الآن بنار حية. إن النار فيه صادقة ولا ريب. أوه، لم جعل الله الإنسان كائنًا فيه كل هذه الأخلاط؟ أليظهر قدرته المعجزة؟ منذ دقائق ظننت أن سنديب الذى حسبته مرة بطلا لم يكن إلا بطلا مسرحيًا فى فاجعة، ولكن هذا غير صحيح، إنه غير صحيح. حتى خلف بهارج المسرح قد يختفى بطل حق.

إن فى سنديب كثيراً من الغلط والحسية والزيف، غشاوات من الجسدية بعضها فوق بعض. ولكن - ولكن من الخير أن نعترف بأن فى أعماقه الكثير مما لا نفهمه ولا نستطيع أن نفهمه - وإن كان موجوداً فى أنفسنا أيضًا. عجيب هو الإنسان، لا يعلم الغرض العظيم الخفى من خلقه إلا « الرهيب»[1]. ولكننا نئن تحت صدمة هذه المعرفة، شيفا إله الفوضى. إنه فرح كله. إنه سيحطم قيودنا.

لا أستطيع إلا أن أشعر مرة بعد مرة أن فىّ شخصيتين . إحداهما : تنفر من سنديب فى صورته الفوضوية المرعبة، والأخرى: تجد هذه الصورة نفسها حلوة الإغراء. إن السفينة الغارقة تجر إلى القاع كل من يسبحون حولها، وما أشبه سنديب بهذه القوة المدمرة.

---

(١) (رودرا) أو (الرهيب) اسم من أسماء شيفا.

فجاذبيته العظيمة تستولى على المرء قبل أن يستطيع الخوف إنقاذه، وفى طرفة عين يسحب بقوة لا تقاوم ، بعيداً عن كل نور، كل خير، كل حرية فى السماء، كل هواء يستطيع أن يتنفسه - بعيداً عن مقتنيات العمر، ومشاغل اليوم ، إلى قرار الفناء.

من عالم من النكبات جاء سنديب رسولا. وبينما يقطع الأرض بخطاه الخشبية الواسعة متمتما برقي خبيثة يلتف حوله الصبية والشباب جميعًا. الأم الجالسة فى زهرة اللوتس حيث قلب البلاد تندب حتى يكاد قلبها يذهب فى العويل، فقد اقتحموا مخزنها وعربدوا فيه. خمرتها، شراب الخالدين، هراقوها فى التراب، آنيتها العتيقة جعلوها جذاذاً. حقًا إننى أعطف عليها، غير أنى لا أملك مع ذلك ألا تعدينى ثورتهم.

لقد بعث إلينا الحق نفسه هذا الإغراء ليختبر أمانتنا فى حفظ وصاياه. السكر يتنكر فى لبوس إلهى ويرقص أمام الحجيج صائحًا : « حمقى أنتم يامن تسلكون طريق الزهادة العقيم. إن شقته بعيدة، ووقته بطىء المرور، لهذا أرسلنى إليكم رب الصاعقة.

انظروا ، أنا الجميل الحديد سأقبلكم، فى عناقى سوف تجدون كمالكم" .

بعد وقفة خاطبنى سنديب ثانية : ياربة. لقد حان وقعت رحيلى عنك. هذا خير . ففعل قربك قد تم. وما كان التلكؤ بعد ذلك إلا لينقضه

قليلا قليلا. كل شيء يضيع إذا حاولنا بطمعنا أن نرخص ماهو أعظم شيء على الأرض. ما هو أبدى فى اللحظة يعود ضحلا إذا امتد على الزمان. لقد كدنا نفسد لحظتنا الأخيرة عندما أدركتنا صاعقتك المصلتة. أنت جئت لإنقاذ طهارة عبادتك، وحين أنقذتها أنقذت عابدك أيضًا. إننى أستأذنك اليوم فى الرحيل إذ عبادتك أعظم شيء .. يا ربة ، أنا أيضًا أسلمك حريتك اليوم. فمعبدى الصلصال لم يعد يسعك، فى كل لحظة كان يوشك أن يتداعى . اليوم أرحل لأعبد منك صورة أكبر فى معبد أكبر. فإنى لا أستطيع أن أجدك حقًا إلا حين أبتعد عنك . هنا لقيت إحسانك فحسب، وهناك سأحظى بنعمتك.

كان صندوق حليى على المنضدة ، فرفعته قائلة : إننى أعهد إليك أن تحمل حليى هذه إلى معبودى. من وهبته إياها على يديك».

ظل زوجى صامتًا. وغادر سنديب الحجرة.

(٢١)

ما كدت أجلس لأضع شيئًا من الكعك لأموليا حتى ظهرت البارا راني. فصاحت : يا الله! هل بلغ الحال أن تصنعى كعك عيد ميلادك بنفسك؟

فسألت : أليس هناك أحد آخر يمكن أن أصنع الكعك له؟

– ولكن ليس هذا هو اليوم الذى تفكرين فيه أن تولى لغيرك. علينا نحن أن نولم لك. لقد كنت أفكر منذ لحظة فى صنع شىء لك(١)، عندما سمعت النبأ المذهل الذى أطار عقلى. يقولون إن عصابة من خمسمائة رجل أو ستمائة هجموا على إحدى خزائننا وهربوا بستة آلاف روبية . وهم يتوقعون أن ينهب منزلنا على الأثر.

وشعرت براحة عظيمة، إذن فقد كانت نقودنا على كل حال. وأردت أن أبعث إلى أموليا على الفور لأخبره أنه ما عليه إلا أن يسلم هذه النقود لزوجى ويترك لى تفسير الأمر.

وانفجرت سلفتى صائحة وقد رأت التغير فى طلعتى : إنك لمخلوق عجيب ! ألا تعرفين حقًا شيئًا اسمه الخوف؟

قلت : أنا لا أستطيع تصديق ذلك . لماذا ينهبون منزلنا؟

---

(١) كل طرفة من طعام تقدم فى احتفال ينبغى أن تصنعها سيدة البيت بنفسها. (المترجم).

- لا تصدقينه! ومن كان يصدق أنهم سيهجمون على خزائننا؟

فلم أجب ، بل انحنيت على كعكاتى أحشوها بجوز الهند.

قالت البارا رانى بعد أن حدقت فىّ طويلا : حسنًا ، إنى ذاهبة . يجب أن أرى أخى نيكهيل وأعمل على إرسال نقودى إلى كلكتا قبل أن يفوت الوقت.

ولم تكد تذهب حتى تركت الكعكات وشأنها وأسرعت إلى حجرة الملابس وأغلقت علىّ الباب. كانت سترة زوجى لا تزال معلقة هناك والمفاتيح في جيبها، فقد كان شديد النسيان. فأخذت مفتاح الخزانة الحديدية من الحلقة واحتفظت به مخبأ فى ثنايا ملابسى.

ثم سمعت دقة على الباب. فناديت : « إنى ألبس ». وسمعت البارا رانى تقول : عجبًا ! منذ دقيقة واحدة رأيتها تصنع كعكا، والآن هى مشغولة باللبس . وماذا بعد ؟ لست أدرى ! لعله أحد اجتماعات « باندى ماترم» . ثم نادتنى قائلة : اسمعى أيتها الملكة السارقة ! هل تعدين غنائمك؟

ولست أدرى ما الذى جعلنى أفتح الخزانة بعد أن ذهبا . لعلها بقية أمل فى أن يكون الأمر كله حلمًا . ماذا لو فتحت الدرج الداخلى ووجدت لفافات الذهب هناك كما كانت من قبل؟ .... وا أسفاه ! لقد كان كل شىء خاويًا كالأمانة التى اغتيلت .

واضطررت أن أمثل مهزلة اللبس، واضطررت أن أعقص شعرى من جديد دون ضرورة. وعندما خرجت سخرت سلفتى منى : « كم مرة ستلبسين اليوم ؟».

قلت : إنه عيد ميلادى!

فمضت تقول: أوه ، أى عذر يصلح. ما أكثر من رأيت من النساء المعجبات بأنفسهن ، ولكنك تبذين الجميع.

وكنت على وشك أن أبعث خادمًا فى طلب أموليا عندما جاء أحد الرجال برسالة صغيرة سلمها إلىّ. كانت من أموليا، وقد كتب يقول: « أختى ، لقد دعوتنى عصر اليوم، ولكنى رأيت ألا أتأخر، فائذنى لى أن أنفذ أمرك أولا ثم آتى لآخذك (البراساد) قد أتأخر.»

لمن تراه سيرد تلك النقود؟ وإلى أى مأزق جديد يندفع الصبى المسكين؟ أوه أيتها المرأة الشقية، إنك تستطيعين أن ترسليه كالسهم، ولكنك لا تستطعين أن تسترديه إذا أخطأت هدفك.

كان يجب أن أعلن على الفور أنى وراء هذه السرقة. ولكن النساء يعشن على ثقة محيطهن ، فهذه الثقة هى كل عالمهن، وإذا ظهر مرة أن هذه الثقة قد ديست فى الخفاء فإنهن يفقدن مكانتهن فى عالمهن، ويلزمهن الوقوف على شظايا ما حطمنه ، فتجرحهن حروفه المسننة فى كل خطوة . الإثم سهل، ولكن التكفير عنه هو على المرأة جد عسير.

لقد مضى زمن منذ أغلق أمامي كل سبيل للاتصال بزوجي . فكيف أفاجئه بهذا الخبر الفظيع؟ اليوم تأخر كثيراً في المجيء للغداء، كانت الساعة الثانية تقريباً، وكان شارد الذهن، ولم يكد يقرب الطعام. لقد فقدت حتى الحق في حضه على الأكل ، واضطررت لأن أحول وجهي لأمسح دموعي.

كم كنت مشتاقة لأن أقول له: « تعال إلى حجرتنا واسترح قليلا. إنك تبدو متعباً. » ولم أكد أطلق حلقي بسعلة صغيرة حتى جاء أحد الخدم مسرعاً ليقول: إن مفتش الشرطة قد أحضر بانشو إلى القصر، فترك زوجي طعامه وخرج وقد ازداد وجهه إظلاماً.

وبعد قليل أقبلت البارا راني وقالت شاكية : « لماذا لم تبعثي إليّ حين جاء أخي نيكهيل ؟ لقد فكرت أن أنتهي من حمامي حتى يجيء. وكيف فرغ من غدائه بهذه السرعة؟

- لماذا ؟ هل كنت تريدينه في شيء؟

- ماهذا الذي يقال عن ذهابكما معاً إلى كلكتا غداً؟ كل ما يمكنني قوله هو أني لن أبقى هنا وحدي . سأموت من الخوف كلما سمعت صوتاً، وهؤلاء اللصوص كلهم حولنا . هل عزمتما حقاً على السفر غداً ؟

- نعم .

قلتها مع أني لم أسمع بالخبر قبل الآن، بل لم أكن واثقة أن قصتنا لن تتحول قبل الغد إلى اتجاه يجعل الرحيل والبقاء بمنزله سواء. لم أكن

لأتصور كيف يصبح بيتنا وحياتنا بعد ذلك، فقد بدا لى المستقبل مغلقاً بالضباب ، أشبه بالأشباح.

بعد بضع ساعات سيصبح مصيرى المجهول ظاهراً . ألا أحد يؤجل مرور هذه الساعات أبداً، يوماً بعد يوم، حتى يمكننى إصلاح الأمور بقدر ما أستطيع؟ إن الزمن الذى تقضيه البذرة كامنة فى الأرض لطويل، طويل حقًا حتى لينسى المرء أن هناك خطراً من انبثاقها. ولكن شطأها لا يكاد يظهر على السطح حتى ينمو وينمو مسرعًا بحيث لا يمكن ستره، لا بالثوب، ولا بالجسم ، ولا بالحياة نفسها.

لن أحاول التفكير فى الأمر من جديد. بل سأجلس ساكنة، فى سلبية وجمود، وأدع الانهيار يأتى متى شاء، بعد غد سيكون كل شىء قد انتهى. الفضيحة، والضحك، والانتحاب، والأسئلة، والشروح، وكل شىء.

ولكنى لا أستطيع أن أنسى وجه أموليا – جميلاً مشرقا بالولاء. إنه لم ينتظر فى يأس أن تقع ضربة القدر، بل أسرع إلى زحمة الخطر. فى شقائى أحبيه. إنه إلهى الصبى. بحجة لعبه حمل عنى إصرى. مراده إنقاذى بأن يتلقى عقوبتى على رأسه، ولكن كيف أتحمل هذه الرحمة الرهيبة من إلهى؟

آه ياولدى ، ياولدى، إنى أحبيك. ياأخى الصغير، إنى أحبيك . نقى

أنت ، جميل أنت . إني أحبيك. ليتك تأتي إلى ذراعيّ في المولد الثاني ابنًا لي هذا هو دعائي.

(٢٢)

نشطت الشائعات من كل جانب، وكانت الشرطة دائمة الدخول والخروج، وخدم المنزل فى اضطراب عظيم.

جاءتنى وصيفتى « خيما » وقالت: « أوه يا أمى الرانى! بالله ضعى قلادتى الذهبية وأسورتى فى خزانتك الحديدية. » لمن أقول: *إن الرانى* نفسها قد نسجت كل هذه الشبكة من الاضطراب ، وإنها واقعة فيها أيضًا؟ لم أجد بدًا من تمثيل دور الحامية الكريمة وقبول وديعة خيما من الحلى ووديعة ثاكو من النقود. وأحضرت اللبَّانة بدورها صندوقًا لتحفظه فى حجرتى، كان فيه « سارى » من صنع بنارس وبعض مقتنياتها الأخرى. وقالت لى : « لقد حصلت على هذه الأشياء فى زفافك ».

عندما تفتح خزانتى الحديدية غدًا أمام هؤلاء – خيما وثاكو واللبانة والجميع .. إنى لا أريد أن أفكر فى هذا! خير لى أن أفكر كيف يكون الحال عندما يعود هذا اليوم الثالث من « ماغ » مرة أخرى بعد أن يمر عام . هل ستكون كل الجراح فى حياتى البيتية حية بعد كالعهد بها؟

كتب أموليا أنه سيعود فى المساء . لا أستطيع أن أبقى وحيدة مع أفكارى، لا أعمل شيئًا. لهذا أجلس ثانية لأصنع كعكا له. لقد صنعت منه الشىء الكثير ولكنى يجب أن أستمر . من سيأكله؟ سأوزعه على الخدم. يجب أن أفعل هذا الليلة. الليلة موعدى، والغد لن يكون فى يدىّ.

مضيت أعمل دون ملل، أقلى كعكة بعد كعكة. وكان يخيل إلىّ بين لحظة وأخرى أن ثمة ضوضاء من نحو حجراتى فى الطبقة العليا. ترى هل افتقد زوجى مفتاح الخزانة، وجمعت البارا رانى الخدم لمساعدته فى البحث عنه؟ لا، يجب ألا ألتفت إلى هذه الأصوات، فلأغلق الباب.

ونهضت لأفعل ذلك وإذا بثاكو تقبل لاهثة : « أمى الرانى! أوه، أمى الرانى! ».

فقطعتها ثائرة : اذهبى ! لا تشغلينى!

ومضت تقول : أمنا البارا رانى تريد أن تراك. لقد أحضر ابن أختها آلة عجيبة من كلكتا. إنها تتكلم كالإنسان. بالله تعالى واسمعيها!

لم أدر هل أضحك أم أبكى. هكذا يجب أن يظهر على المسرح فى مثل هذا الوقت حاك يردد فى كل لغة أغانيه المسرحية ذات الرنين الأخنف! ما أفظع مايحدث عندما تقلد الآلة إنسانا!

بدأت ظلال المساء تهبط. كنت أعلم أن أموليا لن يرجئ ظهوره، ولكنى لم أستطع أن أنتظر. فدعوت خادمًا وقلت : « اذهب وقل لأموليا بابو ويأتى إلى هنا حالا. ، فعاد الرجل بعد لحظة ليقول إن أموليا لم يكن موجوداً، ولم يعد منذ ذهابه! » وقعت الكلمة الأخيرة على أذنى كالعويل فى غبشة الظلام. أموليا ذهب! هل كان إذن كشعاع من الشمس الغاربة ذهب إلى الأبد؟ مرت بعقلى كل أنواع المخاطر الممكنة

وغير الممكنة. إنني أنا التي أرسلته إلى حتفه. هبه كان غير هياب، إنما يدل هذا على عظمة قلبه، ولكن كيف يمكنني أن أعيش وحدي بعد هذا؟

لم يكن لدي تذكار من أموليا سوى ذلك المسدس، هدية إجلاله. خيل إليّ أنه كان آية من القدر. هذا الذنب الذي أفسد حياتي من جذورها جاءني إلهي في صورة طفل وترك لي وسيلة إزالته ثم اختفى. أوه، يا للهدية المحبة، ويا للخلاص الذي يكمن فيها!

فتحت صندوقي وأخرجت المسدس ، ورفعته في خشوع إلى جبيني. وفي هذه اللحظة رنت الدقات من المعبد الملحق بمنزلنا، فانبطحت على الأرض للصلاة.

وفي المساء دعوت من في البيت جميعًا إلى كعكاتي. فصاحت سلفتي: « لقد هيأت وليمة ميلاد رائعة، وكل ذلك وحدك! ولكنك يجب أن تتركي لنا شيئًا نفعله. » قالت ذلك وأدارت حاكيها فأطلقت أصوات ممثلات حنكتا الندية الحارة تملأ المكان، فكأن اسطبلا يضج بصليل المهار.

تقدم الليل قبل أن ينتهي الحفل. وشعرت بشوق مفاجئ إلى أن أختم عيد ميلادي بمسح التراب عن قدمي زوجي. فصعدت إلى المخدع ووجدته مستغرقا في النوم، فقد كان يومه شاقًا مرهقًا، فرفعت طرف الكلة بلطف شديد ووضعت رأسي عند قدميه، ولابد أن شعري لمسه فقد حرك رجليه في نومه ودفع رأسي بعيدًا.

ثم خرجت وجلست في الشرفة الغربية. وكانت هناك شجرة قطن حريرى تقف بعيداً وقد نفضت كل أوراقها فكأنها هيكل عظمى، ومن خلفها كان الهلال يغرب، وفجأة شعرت بأن نجوم السماء نفسها خائفة منى، وأن عالم الليل كله ينظر إلىّ شزراً. لماذا ؟ لأنى كنت وحيدة.

لاشيء فى الخليقة أغرب من إنسان وحيد. حتى ذلك الذى مات أحباؤه جميعًا واحداً بعد واحد ليس بوحيد ، فالصحبة تأتيه من خلف ستار الموت. أما الذى تكون عشيرته معه ولكنهم لم يعودوا قريبين إليه ، الذى انقطع عن كل ضروب الصحبة فى البيت الكامل، فذلك يبدو عالم النجوم نفسه وكأنه يقشعر من النظر إليه فى ظلامه.

أنا لا أوجد حيث أوجد، أنا نائية عن أولئك الذين يحيطون بى. أنا أعيش وأتحرك فوق هوة من الانفصال عرضها العالم كلها، قلقة كنقطة الندى على ورقة اللوتس.

لماذا يتغير الناس تغيراً تامًا حين يتغيرون؟ عندما أنظر فى قلبى أجد أن كل ما كان فيه لا يزال فيه، إلا أنه انقلب رأسًا على عقب. الأشياء التى كانت مرتبة أصبحت ملقاة بعضها فوق بعض. الجواهر التى كانت منظومة فى عقد أصبحت ترقد فى التراب. ولهذا قلبى يتصدع.

أشعر أنى أريد الموت. لكن فى قلبى كل شيء مازال يحيا – وحتى فى الموت لايمكننى أن أرى النهاية، بل أخال أن فى الموت مزيداً من الأسى. مايجب إنهاؤه؛ فلينه فى هذه الدنيا – فليس غير هذا سبيل.

أواه، سامحني هذه المرة، هذه المرة وحدها ياربّاه! كل ما وضعته في يديّ ذخراً لحياتي حولته إصراً لي. ولم أعد أستطيع احتماله ولا التفريط فيه. آه ياربي، أطلق من جديد أنغام الناي تلك التي عزفتها لي قديماً على حاشية صباحي الوردية، واجعل كل عقدي يسيرة سهلة. لاشيء غير موسيقى نايك يمكن أن يجبر ما انكسر، ويطهر ما تدنس. اخلق بيتي من جديد بموسيقاك، فإني لا أرى سبيلا آخر.

انبطحت بوجهي على الأرض وأجهشت بالبكاء. للرحمة كان دعائي – لرحمة قليلة من مكان ما، لمأوى التجيء إليه، لآية غفران ، لأمل قد يأتي بالنهاية، وقطعت على نفسي عهداً : « رباه سأرقد هنا، أنتظر وأنتظر، لا أمس طعاماً ولا شراباً ، إلا أن تبلغني نعمتك.».

وسمعت وقع خطى. من يقول إن الآلهة لا تتجلى لبنى الموت! لم أرفع وجهي ناظرة حتى لاتذهب الرؤية بالمعجزة. تعال، تعال، تعال ولتمس قدماك رأسي. تعال وضع قدمك على قلبي النابض، وعندها دعني أموت.

جاء وجلس قرب رأسي. من ؟ زوجي! شعرت أني موشكة أن أغيب عن الوعي عند أول لمسة من حضوره. ثم تفجر الألم في قلبي فيضًا قاهراً من الدموع، يمزق في طريقه كل عروقي وأعصابي. وضممت قدميه بشدة إلى صدري – أواه، لماذا لم يبق أثرهما هناك إلى الأبد؟

مسح على رأسي بلطف، وتلقيت بركته، الآن يمكنني أن أحمل وزر مذلتي غداً على رءوس الأشهاد، وأقدمه - مخلصة - قرباناً عند قدمي معبودي.

ولكن مايطحن قلبي هو أن نايات الفرح التي عزفت في زفافي منذ تسع سنوات، مرحبة بقدومي إلى هذا المنزل، لن ينطلق صوتها لي مرة أخرى في هذه الحياة. أي تفكير قاس يمكن أن يعيدني مرة أخرى إلى مكاني على تلك المنصة، عروساً مجلوة لزوجها؟ كم من السنين ، كم من الأجيال والعصور يجب أن تمر حتى أجد طريقي مرة أخرى إلى ذلك اليوم قبل تسع سنين؟

الفصل الثانى عشر

حكاية نيكهيل

(١٥)

اليوم نذهب إلى كلكتا. إذا مضينا نكدس أفراحنا وأتراحنا فإنها ترزح فوقنا. خطأ أن نحفظها وأن نكدسها. أنا فى موقف صناعى بوصفى رب المنزل، فالواقع أنى مسافر فى طريق الحياة. لهذا يجرح رب البيت الحقيقى فى كل خطوة، وأخيرًا يأتى جرح الموت الأكبر.

كان ارتباطى معك ياحبيبتى هو بعض الطريق. كان خيراً طالما سلكنا طريقًا واحدًا، ولن يكون إلا عائقًا لنا إن حاولنا الإبقاء عليه بعد ذلك. إننا الآن نترك قيوده خلفنا. إننا الآن نبدأ رحلتنا من بعده وبحسبنا لو استطعنا أن نرمى نظرة كل لصاحبه أو نحس تلامس أيدينا ونحن نمر. وبعد ذلك؟ بعد ذلك طريق العالم الأكبر، تيار الحياة الكونية الذى لا ينتهى.

ما أقل مايمكنك حرماني منه ياحبيبتي بعد كل شيء! كلما أصغيت أسمع صوت الناي، تتدفق ألحانه من وقفات الفراق. إن شراب الإلهة لخالد لا ينفد أبدًا . أحيانًا تكسر الكأس الذي نشرب فيه وتضحك إذ ترانا جزعين للخسارة الهينة. لن أقف لألتقط كأسي المكسورة، سأمضي في سيري وإن كان قلبي ظمآن.

جاءت البارا راني وسألتني : قل لي يا أخي ما معنى كل هذه الكتب التي تربط وترسل في الصناديق؟

فأجبت : لامعنى لها إلا أني لم أستطع بعد أن أشفى من غرامي بها.

– ليتك تبقى مغرمًا بأشياء أخرى أيضًا! هل تعني أنك لن تعود إلى دارك أبدًا ؟

– سأجيء وأذهب، ولكني لن أحبس نفسي هنا مرة أخرى.

– أوه، صحيح؟ إذن تعال إلى حجرتي وانظر كم من الأشياء لم أستطع « أنا » التخلص من حبي لها.

قالت ذلك وأمسكت بيدي وسارت بي.

وجدت في حجرة أرملة أخي عددًا لا يحصى من الصناديق والصرر المربوطة المعدة. وفتحت أحد الصناديق وقالت : « انظر يا أخي

إلى كل هذه الأدوات التى أصنع بها المضاغ[1]! فى هذه الزجاجة مسحوق الفوفل المطيب بلقاح أزهار الكاذى، وهذه العلب الصفيح الصغيرة كلها لشتى أنواع التوابل. ولم أنس ورق لعبى ولا لوحة عساكرى، فإذا شغلتما عنى كلاكما ففى وسعى أن أجد هناك أصدقاء آخرين يشاطروننى اللعب. أتتذكر هذا المشط؟ إنه أحد الأمشاط الوطنية التى اشتريتها لى..

- ولكن لم كل هذا يا أختى الرانى؟ لماذا تحزمين أنت كل هذه الأشياء؟

- أتظن أنى لا أذهب معكما؟

- أى فكرة غريبة !

- لا تخف! لست ذاهبة إلى هناك لأغازلك ، ولا لأتشاجر مع التشوتا رانى ! لابد من الموت عاجلا أو آجلا، فلأنتظر على شاطىء الكنج المقدس قبل أن يفوت الأوان. ما أفظع أن أحرق فى محرقتكم هذه الحقيرة، تحت شجرة « البانيان » المقروضة! لهذا أبيت أن أموت حتى الآن، أثقلت عليكم طول هذا الوقت.

أخيراً استطعت أن أسمع صوت البيت حقا. لقد جاءت البارا رانى إلى منزلنا عروساً حين كانت سنى لا تتجاوز السادسة. وكنا نلعب معًا

(١) المضاغ، ما يمضغ ، والمراد به هنا نوع خاص منه (المترجم).

طوال الأصائل النعسانة فى ركن من السطح وكنت أقذف إليها بثمار « الأمرا » الخضراء من أعلى الشجرة فتصنع منها مخللات لذيذة الطعم عسرة الهضم بأن تشققها وتعالجها بالخردل والملح والأعشاب العطرة. وكان علىّ أن أجمع لها كل المحرمات من حجرة الخزين لتستخدم فى زفاف دميتها، فقد كنت أنا وحدى المعفى من العقاب فى قانون جدتى الجنائى. وكنت أعين رسولا من قبلها إلى أخى كلما أرادت أن تظفر منه بشىء ذى قيمة خاصة ، لأنه لم يكن يستطيع أن يقاوم إلحاحى. وإنى لأتذكر أيضًا حين كنت أقاسى شدة نظام أطباء تلك الأيام ، الذين ما كانوا ليسمحوا بشىء غير الماء الدافئ وبذور القاقلّى المسكرة فى أثناء نوبات الحمى، فكانت زوجة أخى لا تتحمل حرمانى فتأتينى بأطيب الطعام فى الخفاء. وما أقسى التوبيخ الذى نالها حين ضبطت ذات يوم!

ثم كانت أفراحنا وأحزاننا المشتركة تكتسب نغمات من الألفة أكثر عمقًا كلما كبرنا. وكم تشاجرنا! فأحيانا كان الصراع على المصالح الدنيوية يثير الشكوك والغيرة، ويصيب حبنا بصدوع. وعندما دخلت تشوتا رانى بيننا بدا كأن هذه الصدوع لن تلتئم أبدًا، ولكن كان يثبت دائمًا أن القوى الشافية الراقدة فى الأعماق أقوى من الجروح على السطح.

وهكذا نمت بيننا علاقة صحيحة منذ طفولتنا حتى الآن، وامتدت دوحتها وتفرعت أغصانها فوق كل حجرة وكل شرفة فى ذلك البيت

الكبير. وعندما رأيت البارا رانى تستعد للرحيل عن منزلنا هذا بكل ما تملك، هزت الصدمة كل الأواصر التى تربطنا حتى أطرافها الممتدة.

لم يخف علىّ السبب فى عزمها على أن تسبح نحو المجهول ممزقة كل روابط العمر من عاداتها اليومية، فى المنزل الذى لم تفارقه يومًا منذ دخلته أول مرة وهى فى سن التاسعة، ومع ذلك فقد أبت أن تسمح لهذا السبب الصحيح بالخروج من بين شفيتها ، مؤثرة أن تعلل بعذر تافه أيا كان .

لم يبق لها فى الدنيا كلها سوى هذه العلاقة الواحدة، وكانت المرأة المسكينة الشقية الأرملة العاقر تحرص عليها بكل ما اختزنه قلبها من حنو ولم أدرك عمق إحساسها بفراقنا المرتقب كما أدركته وأنا واقف بين صناديقها وصررها المبعثرة.

وبدهنى أن الخلافات الصغيرة التى كانت تنشأ بينها وبين بيمالا حول النقود لم تكن ناشئة عن حب وضيع للدنيا بل عن شعورها بأن حقوقها نحو هذه العلاقة الوحيدة فى حياتها قد صودرت وأواصرها وهت بدخول هذه المرأة الأخرى التى لا يعلم إلا الله من أين جاءت! لقد كانت تُجرح فى كل خطوة ولم يكن لها الحق أن تشكو.

وبيمالا ؟ لقد شعرت هى أيضًا بأن حق البارا رانى علىّ لم يكن قائمًا على الرابطة الاجتماعية بيننا بل كان أعمق من ذلك جدًا ، وكانت تغار من هذه العلائق بيننا، الممتدة إلى طفولتنا.

واليوم دق قلبى بعنف على أبواب صدرى، فتهاويت على أحد الصناديق وأنا أقول: شد ما أحب يا أختى الرانى لو أعود إلى تلك الأيام التى تقابلنا فيها لأول مرة فى منزلنا هذا القديم!

فأجابت وهى تتنهد: لا يا أخى العزيز. إننى لا أحب أن أعيد حياتى من جديد - لا أحب أن أعيدها امرأة ! فليتنه ما كان علىّ أن أقاسيه مع هذه الولادة الواحدة ، فإنى لا أستطيع احتماله مرة أخرى.

قلت لها: إن الحرية التى نبلغها من خلال الحزن أعظم من الحزن.
- قد يكون هذا صحيحًا بالنسبة لكم معشر الرجال . الحرية لكم. أما نحن النساء فنريد أن نبقى غيرنا مقيدين، ونفضل أن نوضع نحن أنفسنا فى القيود. لا لا يا أخى ، لن تتحرر أبدًا من حبائلنا . إن كان لا بد لك أن تبسط جناحيك فعليك أن تأخذنا معك، فنحن نأبى أن نترك وراء، لهذا جمعت كل هذه الأثقال، إذ لا يصح أبدًا أن يترك الرجال يجرون خفافًا.

قلت ضاحكًا: أستطيع أن أشعر بثقل كلماتك، وإذا كنا نحن الرجال لا نشكو من أحمالكن فلأن النساء يعوضننا أحسن العوض عما يكلفننا حمله.

- قالت : أنتم تحملونه لأنه مؤلف من أشياء كثيرة صغيرة. فكلما هممت بإلقاء واحد احتج بخفة وزنه، وهكذا نثقل عليكم بكثير من الخفة ... متى نرحل ؟

– القطار يقوم الليلة فى منتصف الحادية عشرة. فأمامنا وقت كثير.

– اسمع . كن طيبًا مرة وخذ كلمة منى. نم جيدًا بعد الظهر. فأنت تعلم أنك لاتنام فى القطار أبدًا . إنك تبدو مرهقًا، توشك أن تتداعى. هيا. اذهب أولا إلى الحمام.

وبينما كنا نسير نحو حجرتى جاءت الوصيفة خيما وقالت لنا بنبرات خفيضة مستعيذة وهى تجذب برقعها بحياء مفرط، إن مفتش الشرطة قد جاء بسجين، وإنه يريد مقابلة المهراجا .

فصاحت البارا رانى غاضبة : هل المهراجا لص أو سارق حتى تزعجه الشرطة هكذا؟ اذهبى وقولى للمفتش إن المهراجا فى الحمام.

فجادلتها قائلا : دعينى أذهب فأرى ما الخبر. قد يكون أمرًا عاجلا.

فأصرت أرملة أخى : لا لا، لقد صنعت تشوتا رانى كعكا كثيرًا ليلة أمس، فأرسل بعضًا منه إلى المفتش حتى يسكن إلى أن تستعد – قالت ذلك ودفعتنى إلى حجرتى وأغلقت على الباب.

لم تكن لدىّ القوة لأقاوم مثل هذا الاستبداد، فإنه جد قليل فى هذه الدنيا . فليمض المفتش الوقت فى أكل الكعك. ماذا إن أهمل العمل قليلا؟

لقد كانت الشرطة نشيطة فى هذه الأيام الأخيرة تقبض على هذا ثم هذا، وكل يوم يجلب شخص برىء ليبعث حياة فى الجمعية المنعقدة فى مكتبى. فقلت لنفسى : واحد من هؤلاء المساكين جىء به اليوم . ولكن لماذا يستمتع المفتش وحده بالكعك ؟ هذا لا يليق أبدًا. فطرقت الباب بقوة.

نادت أرملة أخى من الدهليز : إن كان عقلك يجن فأسرع وصب بعض الماء على رأسك - إنه يهدئك .

فصحت ! ابعثى كعكا لاثنين . لعل الشخص الذى جىء به على أنه اللص أحوج إليه. قولى للرجل يعطه نصيبًا كبيراً .

واستحممت بسرعة. ولما خرجت وجدت بيمالا جالسة على الأرض خارج الحجرة(١). أهذه بيمالى القديمة، بيمالى المتكبرة الحساسة؟ أى معروف تريد أن تطلب وهى جالسة هكذا عند بابى؟ حين وقفت قامت وقالت بلطف وعيناها منكستان: أريد أن أتكلم معك.

قلت : إذن فادخلى.

---

(١) الجلوس على الأرض علامة على الحداد، ومن ثم يدل - بترابط الأفكار - على حالة من ذلة النفس (المترجم).

– لعلك خارج لأمر؟

– كنت خارجًا . ولكن لا بأس . أريد أن أسمع ...

– لا . أنْه عملك أولا. سنتحدث بعد أن تتناول غداءك.

فخرجت إلى حجرة الجلوس لأجد طبق المفتش خاليًا تمامًا، إلا أن الشخص الذى أحضره معه لا يزال منهمكًا فى الأكل.

وصحت دهشًا: مرحى ! أهو أنت يا أموليا؟

فقال أموليا وفمه مكتظ بالكعك ، إنه أنا يا سيدى .. لقد أكلت كثيرًا، وإذا أذنت لى فسآخذ الباقى معى– قال ذلك وبدأ يصر الكعكات الباقية فى منديله.سألت وأنا أحملق فى المفتش : ما معنى هذا؟

فضحك الرجل وقال : إننا لم نقترب ياسيدى من حل مشكلة اللص، ومع ذلك فإن سر السرقة يزداد غموضًا، ثم أخرج شيئًا مربوطًا فى خرقة ، ظهر حين حله أنه رزمة من الأوراق النقدية. قال المفتش:

– هذه يامهراجا هى الستة الآلاف من الروبيات!

– أين وجدت ؟

– فى يدى أموليا بابو. لقد ذهبت مساء البارحة إلى وكيل مكتبك فى تشاكتا ليخبره أن النقود وجدت. وبدأ الوكيل أشد هلعًا لاسترداد النقود مما كان عند سرقتها. فقد خاف أن يشك فى أنه سرق النقود ثم

جاء الان يخترع قصة خرافية لئلا يكتشف أمره. فسأل أموليا أن ينتظر متعللا بإحضار شراب له ثم جاء مسرعا إلى مركز البوليس. فقمت على الفور، وأبقيت أموليا معى، وشغلت بأمره طول الصباح. فهو يرفض أن يخبرنا من أين جاء بالنقد، وقد حذرته أنه سيظل محجوزاً حتى يفعل ذلك، فقال لى : إنه سيضطر إلى الكذب فى هذه الحالة. قلت له : فليكذب إن أراد. فقرر أنه وجد النقود تحت شجرة . فأوضحت له أن الكذب ليس سهلا إلى هذا الحد . فتحت أى شجرة وجدها؟ وأين هذه الشجرة؟ ولماذا كان هناك؟ عليه أن يقرر كل ذلك أيضاً . فقال: لا تقلق . هناك متسع من الوقت لاختراع هذا كله .

قلت : ولكن يا حضرة المفتش ، لماذا تضايق سيداً شاباً محترماً مثل أموليا بابو؟

قال المفتش: أنا لا أرغب فى إزعاجه، فهو ليس سيداً فحسب بل ابن نيبا ران بابو زميلى فى الدراسة. دعنى أقل لك يا مهراجا ماحدث بالضبط كما أعتقد . إن أموليا يعرف اللص ، ولكنه يريد حمايته بتعريض نفسه للشبهة. فهو يحب هذا النوع من إظهار الشجاعة.

ثم التفت المفتش إلى أموليا قائلا: اسمع أيها الشاب. أنا أيضا كنت فى الثامنة عشرة مرة، وكنت طالبًا فى كلية ريبون، وكدت أدخل السجن لمحاولتى إنقاذ سائق عربة من يد شرطى . بمشقة نجوت.

ثم التفت إليّ ثانية وقال : يامهراجا يظهر أن اللص الحقيقى سينجو الآن، ولكنى أستطيع أن أخبرك من أصل هذه كله.

فسألت، من؟

– ذلك الوكيل بالاتفاق مع الحارس قاسم.

ولما ذهب المفتش أخيراً بعد أن احتج لنظريته كما حلا له قلت لأموليا: إذا أخبرتنى من أخذ النقود فإنى أعدك ألا يضار أحد.

فقال : أنا أخذتها.

– ولكن كيف يمكن هذا ؟ وعصابة الرجال المسلحين؟

– بل أنا وحدى!

وكان ما أخبرنى به أموليا بعد ذلك عجيباً. إن الوكيل كان قد فرغ لتوه من عشائه، وكان فى الشرفة يغسل فمه، والمكان معتم، وكان أموليا يحمل مسدسين فى كلا جيبيه، أحدهما محشو بطلقات فارغة والآخر بالرصاص، ويضع قناعًا على وجهه، فضرب ضوء مصباح كاشف إلى عينيه، وأطلق طلقة فارغة، فأغمى على الرجل. وجاء بعض الحراس مسرعين ، ولم تكن نوبتهم، ولكن أموليا أطلق طلقة فارغة أخرى نحوهم فسارعوا بالاختفاء. ثم جاء قاسم ، صاحب النوبة ، يلوح بعصا، وفى هذه المرة صوب أموليا رصاصة إلى ساقيه، فلما وجد قاسم أنه جرح تداعى إلى الأرض، عند ذلك أمر أموليا الوكيل المرتعد، وكان قد أفاق،

أن يفتح الخزانة ويسلم إليه ستة آلاف روبية. وأخيراً ركب أحد جياد الضيعة وجرى به بضعة أميال. ثم أطلق الحصان ومشى إلى منزلنا مطمئناً.

سألته : وما جعلك تفعل هذا كله يا أموليا؟

فأجاب : كان هناك سبب هام يامهراجا.

– إذن فلماذا تحاول رد النقود؟

– دعها تحضر، تلك التى فعلتُ ذلك بأمرها. فى محضرها سأصرح بكل شىء.

– ومن هى؟

– أختى التشوتا رانى !

فأرسلت إلى بيمالا . وجاءت تقدم رجلا وتؤخر أخرى، حافية القدمين ، على رأسها شال أبيض. لم أر بيمالا قط فى هذه الصورة من قبل. بدت كما لو كانت متدثرة بنور الصباح.

ركع أموليا محيياً ومسح التراب عن قدميها. ثم قال وهو ينهض:

– نفذ أمرك يا أختى. ردت النقود.

قالت : لقد أنقذتنى يا أخى الصغير.

فاستمر أموليا بقول : كانت صورتك فى مخيلتى فلم أكذب مرة واحدة . إن شعارى « باندى ماترم» قد ألقى عند قدميك إلى الأبد.

وقد تلقيت مكافأتى، البراساد الذى صنعته لى، لحظة جئت إلى القصر.

فنظرت إليه بيمالا نظرة فارغة وقد غاب عنها معنى كلماته الأخيرة. فأخرج أموليا منديله وحله وأراها الكعكات التى وضعها فيه. قال : لم أكلها كلها. استبقيت هذه حتى تقدميها إلىّ! بيديك.

ورأيت أن لامكان لى. فخرجت من الحجرة. وقلت لنفسى: أنا لا أستطيع إلا أن أعظ وأعظ، حتى أكافأ بحرق صورتى. لم أستطع بعد أن أسترد روحا واحدة من طريق الموت. الذين يملكون القدرة على ذلك يفعلونه بإشارة، ولكن كلماتى ليس لها هذا المعنى الذى لا يوصف. لست شعلة بل فحمة سوداء منطفئة. لا يمكننى أن أشعل مصباحًا . هذا ماتدل عليه قصة حياتى. صفّ مصابيحى بقى غير مضاء.

(١٦)

عدت إلى الحجرات الداخلية وئيد الخطى. لابد أن حجرة البارا راني كانت تجتذبني مرة أخرى. لقد كانت ضرورة محتمة عليّ في ذلك اليوم أن أشعر بأن حياتي هذه استطاعت أن تعزف لحنا، أن تضرب على وتر حساس في قيثارة حياة أخرى. إن الإنسان لا يستطيع تحقيق وجوده بالبقاء داخل نفسه – بل يجب أن يتلمسه خارجها.

ولما مررت أمام حجرة أرملة أخي خرجت قائلة : لقد خفت أن تتأخر اليوم أيضًا. ولكني أمرت بإعداد غذائك حالما سمعتك قادمًا. سيكون حاضرًا بعد دقيقة.

قلت : في أثناء ذلك أخرج نقودك استعدادًا لأخذها معنا. وبينما كنا سائرين نحو حجرتي سألتني هل جاء مفتش الشرطة بخبر عن السرقة. ولم أشأ أن أخبرها بكل التفاصيل عن رد تلك الستة آلاف، فقلت مراوغًا: هذا سبب كل الضجة.

وعندما دخلت حجرة ملابسي وأخرجت سلسلة مفاتيحي لم أجد مفتاح الخزانة الحديدية في الحلقة. حقا إنني مبتلى بالنسيان! ففي هذا الصباح نفسه كنت أفتح كثيرًا من الصناديق وغيرها ولم ألحظ قط أن هذا المفتاح غير موجود.

سألتني : ماذا حدث لمفتاحك؟

ورحت أفتش فى هذا الجيب وذاك ولكننى لم أستطع أن أجيبها.

وبحثت فى المكان الواحد مرات. ثم خطر لنا كلينا أن الأمر لايمكن أن يكون خطأ فى مكان المفتاح بل لابد أن أحداً أخذه من الحلقة. ترى من يكون؟ من غيرنا يمكن أن يدخل هذه الحجرة؟

قالت لى . لاتشغل بالك به هلم إلى طعامك أولا، فلابد أن تشوتا رانى تحتفظ به لعلمها أنك أصبحت كثير النسيان.

ولكننى كنت شديد الانزعاج. فلم يكن من عادة بيمالا أن تأخذ مفتاحا من مفاتيحى دون أن تخبرنى بذلك. ولم تحضر بيمالا الغداء معى فى ذلك اليوم، فقد كانت مشغولة بإطعام أموليا فى حجرتها، وأرادت أرملة أخى أن تبعث إليها لتأتى ولكنى سألتها ألا تفعل.

لم أكد أفرغ من غدائى حتى دخلت بيمالا . وكنت أفضل ألا أتحدث معها فى أمر المفتاح بمحضر من البارا رانى، ولكنها ما إن رأت بيمالا حتى سألتها . أتعلمين ياعزيزتى أين مفتاح الخزانة.

وكان الجواب : إنه معى.

فصاحت أرملة أخى منتصرة: ألم أقل لك؟ إن التشوتا رانى تتظاهر أنها لا تبالى بهذه السرقات ، ولكنها تحتاط منها فى الخفاء.

ورأيت على وجه بيمالا ما بعث فى نفسى الشك . فقلت : دعى أمر المفتاح الآن. سأخرج تلك النقود فى المساء.

فقالت البارا رانى: ها أنت ذا تؤجل مرة أخرى. لماذا لا تخرجها وتبعثها إلى الخزانة وأنت ذاكر؟

قالت بيمالا : أنا أخرجتها.

فانتفضت. وسألت أرملة أخى : أين احتفظت بها إذاً؟

لقد صرفتها.

- عجباً ! وفيم صرفت كل هذه النقود؟

فلم تجب بيمالا . ولم أوجه إليها سؤالا آخر. وبدا أن البارا رانى تهم بإبداء ملاحظة أخرى لبيمالا، ولكنها ردت نفسها عن ذلك، وأخيراً قالت وهى تنظر نحوى : حسن لا بأس على كل حال . تماماً كما كنت أفعل بنقود زوجى السائبة. كنت أعلم ألا فائدة من تركها معه، فسيأخذها المتطفلون وهم كثيرون . أنت مثله ياعزيزى . ما أكثر الطرق التى تعرفونها معشر الرجال لصرف النقود. إننا لا نستطيع إنقاذها من أيديكم إلا بأن نسرقها نحن . هيا . قم لتنام.

وقادتنى البارا رانى إلى حجرتى، ولكننى كنت لا أكاد أعى أين أذهب. وجلست بجانب سريرى بعد أن تمددت عليه، وابتسمت لبيمالا وهى تقول: أعطنى كعكة من كعكاتك ياحبيبتى تشوتى. ماذا؟ ليس معك شىء! لقد أصبحت أشد إسرافاً من عقيلة الحاكم. إذن فاطلبى بعضاً من حجرتى.

فسألت قلقًا : لكن هل تناولت غداءك ؟

فأجابت : أوه ، منذ مدة – وكان واضحًا أنها كذبة .

وظلت بجانب فراشي تثرثر حول أمور شتى. وجاءت الوصيفة وقالت لبيمالا إن غذاءها حاضر وقد كاد يبرد، ولكنها لم تبد أثرا لسماع ذلك . فقالت لبارا راني : « ألم تتناولي غداءك بعد ! كيف هذا؟ لقد تأخرت جداً . » وخرجت مع بيمالا.

كان في وسعي أن ألمح صلة ما بين أخذ هذه الستة الآلاف وسرقة الأخرى. ولكنني غير مشوق إلى معرفة طبيعة هذه الصلة . ولن أسأل عنها أبداً.

إن القدر يترك حياتنا مشكّلة بصورة غير كاملة. لأنه يريد أن نضع بأنفسنا اللمسات الأخيرة، ونعطيها الشكل النهائي الذي نرغبه. ولقد كان في نفسي دائمًا شوق إلى التعبير عن فكرة عظيمة خلال تشكيل حياتي على نحو مارسم الخالق . في هذا الجهد أنفقت أيامي جميعًا. ولا يعلم إلا المطلع على القلوب بأي قسوة كبحت رغباتي، وقمعت نفسي في كل خطوة.

ولكن العسير في الأمر هو أن حياة المرء ليست حياته وحده. فمن أراد أن يصنعها فعليه أن يستعين بما حوله وإلا فشل. لهذا كان حلمي الدائم أن أجتذب بيمالا حتى تشاطرني صنع نفسي. كنت أحبها بكل روحي ، إذًا فلا بد أن أنجح في كسبها لغرضي – تلك كانت عقيدتي الراسخة.

ثم اكتشفت أن الذين يستطيعون فى يسر وبلا تكلف أن يجتذبوا ما يحيط بهم إلى الاشتراك فى صنع أنفسهم أولئك ينتمون إلى نوع من جنس الإنسان ، وأنا إلى نوع آخر. لقد تلقيت الشرارة الحيوية . ولكننى لا أستطيع إعطاءها لغيرى، والذين سلمت إليه كل ماعندى أخذوا كل ما عندى، ولكنهم لم يأخذونى معه.

إنى اختبارى لعسير ، فكلما اشتدت حاجتى إلى معين لم أجد غير نفسى . ولكننى آليت أن أنتصر حتى فى هذا الاختبار. لأخطونّ وحيداً فى طريقى الشائك إلى حيث تنتهى رحلة هذه الحياة...

بدأت أشك أنى لم أخل قط من عرق استبداد. كنت مستبداً فى رغبتى أن أصب علاقتى ببيمالا فى شكل صلب واضح كامل. ولكن حياة الإنسان لم تُجعل لتصب فى قالب . وإذا حاولنا أن نشكل الخير كما نشكل المادة فإنه ينتقم انتقاماً رهيباً بأن يفقد حياته.

لم أدرك طوال هذا الزمن أن استبدادى اللاشعورى ذاك هو الذى جعلنا نتباعد شيئًا فشيئًا. إن حياة بيمالا لم تجد مستواها الحقيقى لأنى كنت أضغط من أعلى، فاضطرت أن تلتمس مخرجًا بهدم شواطئها من القاع. اضطرت أن تسرق هذه الستة الآلاف من الروبيات لأنها لم تستطع أن تكون صريحة معى، لأنها شعرت أنى أستبد بمخالفتها فى بعض الأشياء.

إن الرجال الذين تتملكهم فكرة واحدة مثلى لا يفرقون بين أنفسهم وبين من يستطيعون موافقتهم، أما من لايستطيعون ذلك فلا يمكنهم مسايرتنا إلا بأن يغشونا. إنه عنادنا الصلب الذى يدفع أكثر الناس صراحة إلى الالتواء. فى محاولتنا أن نصنع رفيقة نفس وزوجة.

هل يمكننى أن أعود إلى البداية؟ إذن لا تبعت سبيل البسطاء. إذاً لما حاولت أن أقيد رفيقة حياتى بأفكارى، بل لعزفت على نايات حبى الطروب وقلت : « هل تحبيننى؟ إذاً فلتكبرى صادقة مع نفسك فى ضوء حبك. فلتهمل مشورتى، ولتنتصر حكمة الله فيك، ولتتوار أفكارى خجلى.».

ولكن هل يستطيع طب الطبيعة نفسها أن يأسو الجرح المنتهك، الذى تفجرت فيه كل خلافاتنا المتجمعة؟ لقد تمزق الحجاب الذى تستطيع قوى الطبيعة الصامتة وحدها أن تعمل تحت ستره، ويجب أن تضمد الجروح، فهل يمكننا أن نضمد جرحنا بحبنا حتى يأتى اليوم الذى لا تظهر فيه ندبته؟ ألم يفت الأوان؟ ما أكثر الوقت الذى ضاع فى سوء الفهم! لقد وصلنا بمشقة إلى تفاهم ، فكم نحتاج لنصحح الخطأ؟ وماذا أن التأم الجرح آخر الأمر؟ هل يمكن إصلاح ما أفسده؟

سمعت صوتاً قرب الباب، فلما التفت رأيت شبح بيمالا يتراجع من الباب المفتوح . لابد أنها كانت منتظرة عند الباب ، تتردد هل تدخل أو لا تدخل، وأخيراً قررت أن ترجع. فهببت ووثبت إلى الباب منادياً :

« بيمالا».

فتوقفت، وكان ظهرها إلى. فذهبت وأخذت بيدها وقدتها إلى حجرتنا. وانطرحت بوجهها على وسادة وأجهشت بالبكاء. ولم أقل شيئًا، ولكنى ظللت ممسكا بيدها وجلست عند رأسها.

وعندما سكنت عاصفة حزنها استوت جالسة. وحاولت أن أضمها إلى صدرى ولكنها رفعت ذراعى عنها وركعت عند قدمى، وراحت تلمسهما برأسها فى خشوع، فسحبتهما مسرعا ولكنها اعتنقتهما قائلة بصوت مختنق : لا لا لا، لا تبعد قدميك ، دعنى أتم عبادتى.

ويقيت ساكنا. من أكون لأمنعها؟ أأنا إلهها المعبود حتى أجد من عبادتها حرجا؟

(٢٣)

كفى، كفى! آن أن ننشر الشراع نحو ذلك المرّج العظيم حيث يلتقى نهر الحب ببحر العبادة. فى تلك الزرقة الصافية يهبط ثقل أوحاله جميعًا ويختفى.

أنا الآن لا أخاف أحدًا، لا نفسى ولا أحدًا غيرى. لقد اقتحمت النار وعبرتها، وماكان للحريق صار رمادًا ، وما بقى لا يموت. لق نذرت نفسى لقدميه، من تلقى كل خطيئتى فى أعماق ألمه.

الليلة نذهب إلى كلكتا ، لقد منعتنى متاعبى الباطنية طويلا من النطر فى حاجاتى. فلأرتبها الآن ولأحزمها.

بعد لحظة وجدت زوجى قد دخل وأخذ يعاون فى إعداد الحقائب. فقلت : هذا لا يكون . ألم تعدنى أنك ستنام؟

فأجاب : لعلى وعدت، ولكن نومى لم يعد. ولم أجده فى مكان.

فرددت: لا لا ، هذا لا يكون أبدًا . ارقد ساعة على الأقل.

– ولكن كيف تستطعين القيام بهذا كله وحدك؟

– إننى أستطيع ولا شك.

– حسنا، لك أن تفخرى بقدرتك على الاستغناء عني. ولكنى أصارحك القول : إنى لا أستطيع الاستغناء عنك. حتى النوم أبى أن يوافينى وحدى فى تلك الحجرة.

ثم عاود العمل.

ولكن شاغلا جاء فى صورة خادم قال إن سنديب بابو قدم وطلب الإذن فى الدخول. ولم أجرؤ أن أسأل من كان يريد. وبدا أن نور السماء يغمض فجأة كأوراق نبات حساس.

قال زوجي: تعالى يابيمالا، فلنذهب ولنسمع ما يريد سنديب أن يقول لنا. لا بد أن لديه أمرًا ذا بال مادام قد عاد بعد استئذانه فى الرحيل.

فذهبت ، لا لشيء إلا أن البقاء كان أكثر حرجًا . كان سنديب يحملق فى صورة على الحائط ، وقال ونحن ندخل: لابد أنكما تتساءلان فيم عاد الرجل، ولكنكما تعلمان أن الشبح لا يذهب حتى تتم جميع الطقوس.

قال ذلك وأخرج من جيبه شيئًا مربوطًا فى منديله . وبعد أن وضعه على المنضدة حل العقدة ، كانت تلك الجنيهات الذهبية.

قال : لا تسئ الفهم يانيكهيل . لا تحسبن أن عدوى صحبتك قد أحالتنى فجأة رجلا أمينا. لست بالذى يرجع تائبًا متباكيا ليرد نقوداً حصل عليها بغير حق. ولكن ...

ولم يتم كلامه. وبعد لحظة التفت إلى نيكهيل ولكنه خاطبنى قائلا: بعد كل هذه الأيام ياملكة وجد شبح الندم طريقًا إلى ضميرى الذى لم يكن يزعجه شيء. وما دمت لا أجد بداً من مصارعته كل ليلة بعد أن تذهب أول سنة من النوم فإنى لا أستطيع أن أسميه شبحًا من صنع خيالى. حتى أنا لا نجاة لى أو أقضى دينه. دعينى إذن أرد الحق إلى يدى ذلك الروح. يا إلهة! منك وحدك دون العالمين لن أستطيع أن أنتزع شيئًا . لن أتخلص منك حتى أترب . استردى هذه !

وفيما كان يقول ذلك أخرج صندوق الحلى من تحت عباءته، ووضعه وتركنا مسرع الخطى.

وناداه زوجى: اصغ إلىّ يا سنديب!

فقال سنديب وهو يقف قرب الباب : إن وقتى ضيق يانيكهيل. لقد سمعت أن المسلمين يروننى جوهرة لا تقدر بثمن ، ويأتمرون بى ولكنى أشعر أن من الضرورى أن أعيش. ليس أمامى إلا خمس وعشرون دقيقة لألحق بالقطار المسافر إلى الشمال. وهكذا يجب أن أذهب الآن.

سنتحدث فى أول فرصة مناسبة. وإذا أردت نصيحتى فلا ترجىء سفرك أنت أيضًا . أحييك يا ملكة ، يا ملكة القلوب الدامية، يا ملكة الخراب!

ثم ذهب سنديب وهو يكاد يعدو. ووقفت سامدة . لم أدرك قط من قبل كما أدركت اليوم كم كان هذا الذهب وهذه الحلى تافهة حقيرة. منذ لحظة قصيرة كنت مشغولة بالتفكير فيما ينبغى أن أخذه معى، وكيف أضعه فى الحقائب ، والآن شعرت ألا حاجة إلى أخذ شىء ما . إنما الأمر المهم هو الخروج والانطلاق.

قام زوجى من كرسيه وجاء إلى وأخذ بيدى وقال : إن الوقت يتقدم ، ولم يبق لدينا متسع لنتم معدات الرحلة.

وهنا دخل تشاندرانات بابو فجأة . فلما وجدنا مجتمعين تراجع لحظة ثم قال : سامحينى يا أمى الصغيرة إن تطفلت ، نيكهيل، إن المسلمين ثائرون فى مقاطعة هاريتش كوندو!

فقال زوجى : أنا ذاهب.

وجادلته وأنا أمسك بيده: « ماذا تستطيع أن تصنع هناك؟» وتوسلت إلى أستاذه : « ألا تأمره ألا يذهب ؟ »

فأجاب : يا أمى الصغيرة. الوقت لا يسمح بغير ذلك.

وقال زوجى وهو يغادرنا : لا تخافى يا بيمالا.

وعندما ذهبت إلى النافذة رأيت زوجي يركض جواده ولا سلاح بيديه.

وبعد دقيقة أقبلت البارا راني مسرعة وصاحت : ماذا فعلت ياتشوتي يا حبيبتي ؟ كيف تركته يذهب؟

وقالت ملتفتة إلى أحد الخدم: ناد رئيس الديوان حالا! ولم تكن الملكات يظهرن أمام رئيس الديوان ، ولكن البارا راني كانت في شغل عن مراعاة التقاليد. قالت حالما جاء رئيس الديوان: أرسل فارسا ليعيد المهراجا على الفور!

فقال رئيس الديوان : لقد توسلنا إليه جميعا أن يبقى يا أمنا الرابي. ولكنه أبى أن يلتفت.

فصاحت سلفتي بجنون : ابعثوا إليه أن البارا راني مريضة ، وأنها على فراش الموت!

وعندما خرج رئيس الديوان التفتت إلى ثائرة: أنت ياساحرة، يا شيطانة، لم تستطيعي أن تموتي أنت . ولكنك أبيت إلا أن ترسليه إلى حتفه.

وبدأ ضوء النهار يذبل، وغابت الشمس خلف شجرة « الساجنا » المزهرة بأوراقها التي تشبه الريش . ما زلت إلى اليوم أرى كل لون من ألوان ذلك الغروب. كان على كلا جانبي القرص الغارب ركام من سحاب

فبدا كطائر عظيم نشر جناحين لهما ريش نارى. وخيل إلى أن ذلك اليوم الرهيب يطير ليعبر محيط الليل.

واحلو لك الظلام. وكانت ضجة بعيدة تنبثق فى موجات تتردد تحت جنح الليل، كألسنة النار فى قرية بعيدة أصابها الحريق ، تثب كل حين فوق الأفق.

ورنت دقات صلاة المساء من معبدنا، وكنت أعلم أن البارا رانى جالسة هناك وقد ضمت راحتيها فى صلاة صامتة ، ولكنى لم أستطع أن أبتعد عن النافذة خطوة.

وانبهمت الطرق، والقرية من ورائها ، وستار الأشجار البعيد وراء القرية. وكانت البركة فى أراضينا شاخصة إلى السماء بلمعان ؛ كأنها كعين ضرير، وعلى اليسار كان البرج يبدو مشرئبا ليلمح شيئًا يحدث.

إن أصوات الليل تتنكر فى شتى الصور، ينكسر غصن فتحسب أن أحداً يجرى هاربًا من الموت. ويصطفق باب فتخالها دقة مفاجئة من قلب عالم مذعور.أنوار تضوئ تحت ظل الأشجار البعيدة ثم تختفى . حوافر جياد تدق من حين إلى حين، ثم يتبين أنها الفرسان يخرجون من أبواب القصر.

ولازمنى الإحساس بأنى لو استطعت فقط أن أموت لانتهى كل هذا الاضطراب . فطالما بقيت حية ستظل آثامى فى عنفوانها تنثر

الخراب في كل جانب. وتذكرت المسدس في صندوقي . ولكن قدمي أبتا أن تزايلا النافذة للبحث عنه. ألم أكن أنتظر قدري؟

دق جرس الساعة عشراً في مهابة وجلال. وبعد قليل لاحت على البعد مجموعات من الأنوار ، وزحف حشد من الناس على الطرقات في الظلام نحو أبواب القصر كثعبان عظيم.

وأسرع رئيس الديوان إلى البوابة لدى سماع الصوت، فإذا بفارس يركض جواده . فسأله : ماذا وراءك يا جاتا؟

فكان الجواب : شر.

استطعت أن أسمع هذه الكلمات بجلاء من نافذتي، ولكنها أردفت بهمس لم تستطع أذناي التقاطه.

ثم أقبلت محفة يتبعها سرير. وكان الطبيب يسير بجانب المحفة.

وسأل رئيس الديوان : ما رأيك يادكتور؟

فأجاب الطبيب: لا أستطيع أن أحكم الآن . إن الجرح في الرأس خطير.

– وأموليا بابو؟

– أصيب برصاصة في القلب. لا أمل في حياته.

(تمت)

التصحيح اللغـوى : محمـد الشـربينى

الإشـراف الفنـى : حسـن كامـل

من أجل هذه الدعوة إلى تقديس الإنسان ورعاية حقه يحتفل الشرق والغرب بذكرى طاغور. وطاغور نسيج وحده، فقد جمع إلى حكمة الشرق ثقافة الغرب، وإلى عراقة الأصل وشرف المحتد الإيمان العميق بالشعب وبالجماعة الإنسانية، وإلى زكانة القلب ورجاحة العقل ذلاقة اللسان وطيب المعشر، وإلى علو المكانة شرف الجهاد من أجل حرية بلاده واستقلالها. وهو بهذا كله قد احتل مكانا فريدا فى تاريخ الهند الحديث، بل وفى تاريخ الشرق كله، حتى استحق بحق أن ينعت بأنه أعظم فنان فى العصر الحديث، وأن نخلع عليه جائزة
فى عام 1914.

تصميم الغلاف: نسرين كشك